رواية

اللّوزُ المَرّ

سامي عيساوي

2016

اللَوّز المرُ

رواية

اللَّوّزُ المُرُ

سامي عيساوي

الناشر

دار كنعان
طباعة - نشر - توزيع

نابلس - فلسطين
0097292340624

تنبيه

حقوق الطبع بأي شكل من الأشكال محفوظة للمؤلف
لا يجوز نقل أو إعادة إنتاج هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال بدون إذن خطي من

الطبعة الثانية

2016

—إهـــــداء—

تقول لي:

_" متى وأين عرفتَ أخلاق النساء...

وعيت التفاصيل كلّها..."

أقول:

_" خيالات كلها.."

تصدق؛ تقاوم، وتتناسى...

تضمني وتقول

_"المهم أنكَ الآن معي.."

إليك..

زوجتي الحبيبة

" إذا أردت أن تخدم قضية ما، فاكتب رواية جيّدة... "

غابريل غارسيا ماركيز

الفصل الأول

بداية ممكنة

(1)

يظن قلبي ظنَّ جاهليته الأولى. أنَّ النار ما زالت تستحق منا التجربة، وأنكِ لستِ نظريةً فَرغَ منها العلماء، وانتهت بالتسليم والرضى الذي لا يقبل حواراً، أو فرصة لإعادة طرح الأسئلة من جديد.

وأبقيتُ على ظنّ قلبي القديم.

ربما نكاية فيك، وفي الأيام وخداعها. ربما لأقول بغير الكلمات، ومن خلال جسدي ودمع عيوني، أن النظريات تلك غير ثابتة، وتستحق منا دوماً أن نعيد التجربة.

" النار تحرق... "

" لا تثق في المرأة ولا شمس الشتاء..."

ماذا يستطيع القدر، أن يفعل في قلب أصر على عناد نفسه، وأن يعيد من جديد الكشف عن النار، وإبتكار العجلة، والإثبات لنفسه أولاً، أن القرب منك، لن يحرق قلبه وأطراف أصابعه، وربما لحلق شاربه السميك؛ متخلصاً من آخر مظاهر الرجولة الباقية.

بعدك، حَلقتُ شاربي الذي كان يعامله جَدّي بقدسيّة القرآن. وكان يمضي الساعات يحوم حوله في المقص الصغير وهو يتنعم بدعة القطط في شمس الشتاء عقب مواسم المطر.

حلقت شاربي، ومضيت دون الرجولة الباقية مني بعدك.

هل تصلح تلك بداية لقصتي معكِ ومع جدّي والمخيم...

دعيني أحاول مرة أخرى...

هناك مسافات بين سفر الجسد وسفر الروح، أطول بكثير مما ظَننت، ولعشرين سنة مضت مني.

سافرت أبداننا في المكان والزمان.

تقلبتُ خلالها بين القلوب، وعرفت أصناف الحب الكاذب، والوعود المطهوة على نار الرغبة. عرفت الفيافي والبحار، وخبرت الأسرار ما بين الشط والنهر، وعلى ضفاف الخيبة.

أنَقل بصري بين الخطوة والأخرى. أعدو ممسكاً بمظلة شتوية قاتمة اللون في صحراء موحدّة الألوان، موحلة التضاريس، قاسية الملامح.

أتلقى قطرات الندى بمظلتي السوداء. وللمطر الصحراوي أعددتُ ظهري العاري.

تناولت طعاماً أعدته الأيام.

وشربت من كأس اغريقية مرّت عليها شفاه الإسكندر وهو يعبر الأرض بجيشه المتعب، إلى بلاد فارس.

الحبيبة "روكسانا" ماتت معلولة بحبها. وأطرق الإسكندر بعدها إطراقته الأبدية.

كنت أقوم بواجباتي كلها. وعندما جلست إلى إختبار الزمن الذي يُعقد في العمر مرة.

فَشلتُ مرة بعد مرة.

رجوت الأيام أن تعيد لي الإختبار..

أن تخبرني بالأسئلة..

أن تُخَيِرني بين أسئلة لها موضوعية أحلامي، وأسئلة لها إنشائية حواسَكِ..

وها أنا أشرب كأس فشلي معك حتى الثمالة، وأتنعم بجهلي بكِ، وبلونِ عينيك، تَنعُّم المشتاق إلى النار..

فشلتُ في حُبك مرَّة. وها أنا أعيدُ الكرَّة..

وفي فترات الغياب والتنعم في الجهالة، إزددتُ حكمةً وموتاً، وقَّلت رعشة قلبي، وطرب فؤادي عند سماع كلمة عشق عابرة.

تَخَلَّيت خلالها عن الحب، وأشيائي الصغيرة.

سافر جسدي سفرَ المشتاق، إلى مساحات الدفء والوهم، أتلمسُ أشلائي في الغربة، أتقَّلب على الرمل المحمص، وأمشي برموش العين على النار التي أوقدتِها بيديك.

أختبر الأطعام والألوان وبطاقات المعايدة المعدة مسبقاً، المؤطرة بالشوق الكاذب، والعبارات الجاهزة لكل مناسبة، وما أكثر مناسباتك.

يخامرني الشك في شكي بكِ. وأرجو الليل الساهر أن يجلس إلى جواري لساعات قليلة، أُحادثه عنكِ وعن الوطن، عن أولادٍ حلمتُ بهم ولم أنجبهم، عن أحلامي الغريبة في الثروة، وأكثر أحلامي غرابة، رغبتي الساكنة في تبديدها.

ترى، هل تتغير أحلامنا، كما تتغير أجسادنا ؟

احتجت عمراً كاملاً لأسبر مجاهل جسدك الممتد في الفضاء، وعمراً آخر لأدرب حواسي على وسع عينيكِ.

اتسعت جغرافية جسدي وتغيرت تضاريسه. وتَقَلّص الفضاء المخصص منه للأحلام.

إمتلأ رأسي "بالبزنس" خِلالها، وَخَلا من الشَعر بفتح الشين ومن الشِعرِ بكسرها.

تقلبتُ في الأمصار، وبين السيارات والأطعام، وعشت الساعات كلها. وها أنا أعود إليكما..

.. ترى هل تلك أفضل من هذه، أو أنني سأنفق عمري في اختيار بدايات كثيرة، أعبث في كلماتها تقديماً وتأخيراً، ألهو بحركات الفتح والجر والتنوين..

متسائلاً أولاً. وقبل كل شيء..

هل كانت قصة حبٍّ، أم قصة وطن..!؟

كنا في عمر الورود حينها، وكان الحُب وطناً.

والآن.. الحب والوطن؛ وجهان قديمان لي ولها.

أحتار، أيّكما الكتابة وأيّكما الصورة.

(2)

أحتار أيّكما الكتابة وأيّكما الصورة.

.. قف، فأنت تسكن مدينة تسكنها الأشباح، وتمارس فيها دعارة الإصغاء وكشف العورات.

تسكننا في أوضاعنا كلها، تَجرحنا، تُحرجنا. نصغي لآلامنا فيها، مهوسون بها، مجبولون بها ومجبولة بنا.

ندّعي حُبّها. ولم نتذوق طعم عذريتها النائمة فينا. نُريدها محظية تكنس حجرات قلوبنا القذرة، تطهو لنا وقت الظهيرة، ونضاجعها في أوقات زحمتها وفراغنا.

نأتيها في خواتيم الصباحات الماطرة، مترعين بالشهوة، وفحش أفكارنا..

نأتيها. ونريدها جاهزة دوماً: جاهزة للولادة، للطعام والشراب، وتنظيف الثياب.

تتفرسُ فينا أعيننا المثقلة بالمتع الهابطة. تصبر علينا، وترجو بحكمة الأوطان، أن يكبر الرجال وينضجوا، وتكبر أشياؤهم..

تصبر على غبائنا ونزقنا وشتائنا، وعلى خشونة ذقوننا، على برودة أجسادنا ورائحة فمنا.

وعندما تتحقق أحلامها فينا، يبدأ صراعنا مع الوقت.

يهرم الرجال فينا، نأتيها في الليالي المقمرة، نجرجر سقامنا وخيبتها فينا.

تصبر وترجو قادماً لا يأتي...

صبورة هي الأوطان فينا، والمدن فينا. ولا نستحق صبرها الجميل.

ويا لخسرانها، عندما يهرم الرجال.. ونبدأ بعدّ الحصى المتبقي وقشور المحار، وخطوات العابرين، والرمل المتسكع على شواطىء حياتنا، نموت فيها. تأخذنا بأحضانها، وتسكننا باللّطف والغفران..

نتوارى فيها، وتبقى تجتر ذكرانا وعفونة أقدامنا.

في صباح اليوم التالي لموتنا، يولد رجالٌ صغارٌ آخرون. يعبرون المنافذ والطرقات والأزقة التي عبرناها.

يحملون نفس صفاتنا الوراثية، واستدارة خواطرنا.

لهم لون عيوننا، وغبائنا وأسمائنا، وفساد أذواقنا وروائحنا، وعاداتنا القديمة في كره الإستحمام والبعد عن الطهارة..

وتبدأ رحلتها من جديد، ولا تنسى التفاصيل كلها، تَتَذّكر تواريخ ميلادنا، ومواعيد بكائنا، وأول يوم مشت فيه أقدامنا، وأول إسم نطقت به أفواهنا. وتفاصيل أخرى كثيرة لا تملها.

مدينة هي الكون كله، هي البحار والسهول والهضاب والجبال، وهي خط الإستواء وغابات الصنوبر، هي أشجار الكينا والنرجس والأقحوان والدفلى، هي زهر اللوتس في مياه عيوننا الراكدة، هي المناطق الإستوائية، وتلك التي تعتاش على الضياء شطر العام وعلى الصمت شطره الأخر.

فلكل مدينة يا سيدتي هواياتها الخاصة.

ولها لونها المفضّل؛ ووقتها الأثير.

تصحو وتنام كالنساء.

ولها رائحتها الخاصة، قبل الإستحمام وبَعد المطر.

ولها طعمها الخاص، قبل النوم ووقت السحر.

ولها عادات قبيحة تماماً كالنساء. تتركنا ننتظر على المداخل وفي الطرقات ووقت الزحمة. بينما تقوم هي ببراءة الأطفال وتغريد البلابل بتعديل مكياجها ورسم حواجبها بعدد صلواتنا فيها.

ولها أيضا كالنساء، عادة شهرية تأتيها في العمر مرة.

يتوقف الرجال عن النوم إلى جوارها، أو العبور من بواباتها الرئيسية. تتوقف فيها عن انتاج الحليب، وتزويدنا بالماء والكهرباء وخبز الصاج.

المدن تماما كالنساء.

وأنتِ لكِ وجه مدينتي.

أحتار أيكما الكتابة وأيكما الصورة.

أُقلبُ وَجهي في ثنايا ثوبك المضرج بدمي، وثوبها المطرز بالفرح. وأرى الصور تكرر نفسها في الأوضاع كلها، بعضها يسيء الأدب ويخدش حياء العذارى؛ والبعض الآخر له عري القدر.

.. فكلاكما قد تعلم في مدرسة واحدة، وجلستما على الطاولة نفسها. وشربتما من الكأس عينها. وتتلمذتما على شيخ واحد.

تعلمتما على يديه مضاجعة الزمن في العراء، وشرب الشاي بلا سكر، وتعلمتما المكر والعصيان وقول الزور، والبقاء تحت المزاريب في الليالي الماطرة الموحلة المظلمة في انتظار موعد لا يأتي، ساقته شهوتكما القديمة في قتل البشر.

وعندما مات شيخكما، تمردتما عليه. وتطورت عادات الشرب لديكما. فلم يعد للشاي طعم، وحل محله دمي المحلى منذ الأزل.

في العاشر من كل شهر تحتسيان القهوة.

على قارعة أوجاعي، ولا تسددان الحساب كالعادة..

يطاردني النادل السمين في الأزقة الضيقة، بين الأشجار وخلف الأعمدة المهترءة تيجانها.

قال إنّه شاهد صورتي منعكسة في ألق عينيكما..

كنتُ مستلقياً على الماء. وكلاكما تداعبان تفاصيل قدري بفرح الأطفال، وحرفية ضاربات الودع.

تصنعان مني شخصاً آخر، له خصائص البشر ولون أحلامهم، لكنه لا يشبههم.

ها هو النادل السمين يطارد ذاكرتي، يبحث المدينة والحبيبة الساكن في طياتي، يطاردني بين الحارات، في الأزقة والساحات.. أصعد الأدراج القصيرة المرصوفة بقطع جسدي، يرتفع وجيبي. أتنقل بين الحارت، تعرفني وأعرفها، فأنا ابنها المشتاق. والغائب العائد في فترات الصمت بين حربين.

أبحث عن مخبأ أسترد فيه عافيتي واستقامتي. عن حجر من الصوّان أوسد به رأسي المثقل بالصور.

أهرب من ذاكرتي، أهرب من تسديد الحساب.

أهرب من النادل السمين، ومنكما.

فلكلاكما رائحة دمي.

ولكليكما طعمٌ مر تحت لساني.

ولكليكما عادات سيئة كثيرة. ومواعيد خاصة للسهر، والزيارة والرغبة في القتل لأدنى سبب.

رائحة الشاي المعتق بعذوبة عينيك تزكم أنفي..

تنبعث من النوافذ الواطئة، أشتَمُّك فيها، وأتلصص الضحكات الصغيرة المنبعثة من بين الزوايا وخلف الأزقة. وكلها وتذكرني بك.

فرائحتك مني.

أعرفها كما أعرف رائحة الصباح في صيف الوطن، واقرأ رائحتكما على بعد المسافات..

فلكل المدن روائحها المثيرة الخاصة بمناسباتها. تضعها عند اللقاء. وبين المسافات الفاصلة، وعند أطراف الولادة.

رائحة خاصة تنتقيها دوماً دون جهد وعلى عجل.

أحتار أيكما الكتابة وأيكما الصورة.

ولنومكما وصحوكما أيضاً طقوس خاصة.

من المدن من يصحوا على النور. وأخرى على رائحة الشاي، وأخرى على رائحة خطاياها.

أما أنت فرائحتك، مزيج معقد.

مزجه قدرك الموسوم بالذكريات العابقة، ومرور الزمن. وأقدام العابرين، وأفعال الغزاة، وسماحة الفاتحين، وانتقام الأجيال، وذل الخروج.

مدينة لها رائحة فم الصائمين، وجفاف شفاههم..

ولها، التقوى والإيمان ونقاء السريرة..

مدينة تعودت أن تمارس الوطن كما تمارس الحب؛ على طريقتها الخاصة، أو تمارس الحب كما تمارسين الوطن على سجيتك أنتِ.

مدينة لها ليل شعرك، وخضرة عينيك وصفاؤك ونقاؤك الساكن في صفحة وجهك، هي أنتِ، وأنتِ منها.

وأنا يا سيدتي، منكِ..

يخامرك الشك؛ تتعثرين في ترددك، وفي تعقُّب الساعات. تترددين عقب كل خطوة، تتسكعين خلف الأبواب الموربة.

إلى الأمام تهربين كعادتك.

تهاجمين قبل الأوان. وتنسحبين قبل انتهاء المعركة.

نرنو اليكِ بالرغبة ونخشى غضبك فينا.

نخشى وعيدكِ.

والعيون الحيرى تمعن في الهروب إليكِ ولكن، في غير إتجاهك أنتِ.

وعقب كل عيد –وما أكثر أعيادك– تطربين على ايقاعات الآلات الحادة، ترقصين على الدماء المسفوحة فيك.

تعشقين اللّون الأحمر الساكن في دمكِ.

تصرخ النساء ويتعالى العويل. وتودع العذارى الرجال في قبلة طويلة حارة.

ويُهرق الدم على المذابح وبين الطرقات، على الأدراج وفي الساحات، عند الظهر ووقت الصبح، قَبل المغيب وبعد صلاة العشاء.

تمتلأ الطرقات بروائح البخور، والعطور الشرقية. ويعبق الوقت برائحة العود المحترق على جنباتنا.

وتطربين كعاداتك كلها، وما أكثر عاداتك.

تطربين..

وعندما تأخذك النشوة، تشربين من دمنا الساخن، حتى الثمالة.

تشربين وتنتشين، وتبدئين بالرقص على مداخل الحروف ونوافذ الكلمات. في الطرقات والمفارق، وعند إشارات المرور.

وأصوات تصفق من بعيد. تصفق ويعلو صوتها، يبدأ الضجيج وينظم إليك وقتها. أسراب الحمام، وقطعان الطيور العائدة في المساء إلى بيوتها. ويرافق الإحتفال الرسمي هذا، ممثلين مرموقين، يشاركون النشوة والصخب. وسير العابثين وقت المساء، وفي أثناء تعبئة وقود السيارات، وبعد تناول الدواء، وقبل النوم وبعد الخروج المُهين.

مدينتي.. حبيبتي..

تجمعكما قواسم كثيرة، وأنا أولها.

أنا المذبوح، وأنا القاتل والمقتول.

وتجمعكما التناقضات وبعض المشاعر الصامتة، ويجمعكما عشقكن للدم والدموع، الصمت والصخب، ورغبة محمومة غائرة في القتل والرقص على الأطلال.

وها أنتِ وفي عمرك القصير وقلة خبرتك تعلمت منها الكثير..

تبدلين عشقاقك في اليوم مرتين..

كِلاكما، تُغيِّران فصيلة الدم عقب صلاة الجمعة، وقبل مدفع الإفطار بساعتين. وترقصان وتطربان للطوابير الطويلة المصطفة، محملة بالقرابين، بالحليب والمكسرات. ترجو الرضى وتطلب الصفح والغفران على أخطائها اليومية، وعلى الأعمال التي لم تقترفها بعد..

تضحكين منهم، وتبدو أسنانك البيضاء المصطفة وعليها آثار دمي، تضحكين مني ومن غبائهم.

تبتسمين في سِرّك راضيةً مرضية، ليس عنهم بل عن نفس.

تمتلئين بالرضى. وتزدادين وزناً وعجرفة.

تزدادين بعداً، ويزدادون تقرباً.

لا أفهمها

(3)

نظرتُ من خلف الزجاج السابق للحيرة. المتبقي بعد الهزيمة الأولى.

كانت لأول مرة أمامي، منذ السنوات العشرين التي فصلتني عن الوطن، وعن المخيم المغرق في ظلُمه وظَلامه وبؤس سكانه وقتامة ألوانهم، وعنها.

ها هي..

ها هي، بِكُلِّها.. بأشيائها الغافلة والبقايا الساكنة.

ها هي تجلس خلف المكتب، تغمس وجهها في بحر الذكرى، تقرأ الجريدة.

كنتُ أنا أرجع الخطو، تسير بي قدماي إلى حتفي، وأحس القدمين مجدافين يبحران في الظلمة ورطوبة الوقت.

تتلهى بقراءة الأبراج. وتصغي إلى وقع أقدام القدر.

كعادتها القديمة نفسها في قراءة الأبرج والبخت وسوء الطالع. إذ يصعب على امرأة أن تغير عاداتها الأثيرة في العمر مرة.

أو وربما كانت تنتظر أثر سُمِّها على جسدي.

مشربة الوجه بحمرة الساعات، تدَّعي الإنشغال، تقلب الصفحات، أراها ولا تراني، أو ربما ترى وجهي في صفحة الجريدة بين الأموات.

أرقبها من خلف الزجاج الأسود لمدخل قلبها، أجَدِّف في الإتجاه المعاكس، وأعلم أن قدري المحتوم قتلني مرة بها، وها هو يمعن مرة أخري في قتلها.

على عكسها تماما، كُنتْ.

ترقفت عظامي شوقاً إليها. فكَّرت في تقديم موعظة تمتد لساعات عن الأخلاق والوقت والنسيان والعادات السيئة التي تعلمتها بعد أن سرقتها الغربة مني.

بالأمس. رسمت الخطط، ووضعت يدي على الصور، تدربتُ على مخارج الحروف، كي أقول لها، أصرخ في وجهها، أصفعها. وأترك بصمات أصابعي محفورة على سيرتها الشخصية التي تزهو بها.

تقلبت في فراش الأمس المبلل بها. أتحسس أنفها الأسطوري، أمسد الليل المسكون في شعرها، وأعد أصابع يديها وقدميها.

أُعِدُّ على شرفها، وليمة من العتاب، وطبقاً من الشوق المحشو بعندها وغبائي، وقلة خبرتنا معاً.

وها أنا أتخلى فجأة عن خططي كلها.

كانت من خلف الزجاج المصبوغ بظلمة شعرها تبدو أكثر نضجاً وصمتاً. كفاكهة استوائية؛ حمصتها الشمس ورَطَّبَها ماء السمّاء ودلّلها ضوء القمر.

ربما شاخت أفكارها، رغم الإنتظار الطويل للموعد المعقود تحت زخات المطر.

أقول، ربما شاخت أفكارها عنها. وانقطع طمث غرائزها ومشاعرها الباقية بعدنا.

ودخلت مرحلة أخرى لأداء العزف المنفرد بها.

كانت أكبر من عمرها. تحاكي الأرض في العمر، وشرب الخمر.

دلفت الباب دون استأذان، كما فعلت هي ذات مرة. وأنا الذي خَبرت أنَّ عِشقها يُحِّبُ الإقدام والإقتحام. ويكره الإستئذان. وطقوس الإتيكيت في اللبس والشرب والطعام.

لي عندها رصيد بنكي، فتحته قبل ألف عام. وهاي هي الأيام تكافىء ادخاري خيبة فوق خيبة، وتكافؤها هي على حسابي.

ها أنا أجتر أحلامي أمامها، أخطب ودها، أقف مرة أخرى على الضِّفة الأخرى، على مرمى قدر منها. أنتظر وقت الزحام، لأسمع وقع خطوها على صدري.

سرتُ على أطراف قلبي. أسرق وقت المكان، وأشباح نساء تحملق في خطوي المجنون.

لا أفهمها. وتفهم خطوي المسكون بالترقب قبلها.

إشاراتي الغامضة لهن وأصوات الهمس بينا. كانت توحي بالرهبة والرغبة الساكنة منذ الأزل، لمداهمة الوقت قبل الموعد بساعات.

-*"لا أريدها أن تشعر بي.."*

همست في أذن السيدة التي قادتني إلى غرفتها.

كما الملكات. كما حرارة الشمس كانت، وكان لها حضور المكان. ولها رهبة ملكة النحل. ولها أسطورية الإغريق وغموض سير القديسين.

وأنا الذي كعاداته كلِّها؛ يتعثر في خجله، وسقوطه، وخطيئة الخروج الأولى.

وتراكم الهزائم في دمي.

انتصبت أمامها. عددت شعرها، ومسامات جلدها، والساعات والوقت، ودوران العجلات. وعددت التاريخ الذي مضى منذ زمن السومريين والفراعنة والإغريق وأباطرة الصين، ولم أشاركهم صناعة الحضارة. وأستلهم من عينيها فناً خالداً. يبقيني حياً لعقود أخرى قادمة.

وقفت أمامها، أحصي جثث الأيام التي ماتت دونها. اتأمل دمها، وغرقها، ونزعها. واتأمل تاريخي كُلّه قَبلها.

وها هي تجلس أمامي ساهمة مرة أخرى تصنع تاريخي. تبني مدناً وقلاعاً. وسوراً عظيما يحمي مواطنيها مني.

تنحت أصناماً من عِظام الجماجم، لآلهة غامضة.

ترسم فناً أزلياً على جدراني الداخلية بألوان ممزوجة بالقطران لا يمحوها غبار السنين.

ها هي تكتب الصفحات السوداء كلها، تكتب تاريخي وتاريخ العالم كله على هواها.

" فالمنتصرون وحدهم يكتبون التاريخ..". على مقاس أحذيتهم واستدارة صدور نسائهم.

وأنا المشتاق، المهزوم بشوقي. أصغي وأبكي، وأدَوّن في مفكرتي الأحداث الصغيرة العابرة.

أدَوّن في مفكرتي الصغيرة أحداثك كلها، مواعيد نومك وصحوك، أدّون تفاصيل قدومك ورواحك، مواعيد حيضك. مقاس حذائك، ألوانك المفضلة. وأشياء أخرى كثيرة من غرابة عينيك.

تأريخك يا سيدتي مزور كله. ومليء بالصفحات الصفراء وصخب المكان.

أنظري. ستجدي آثار دمي، وتاريخ ميلادي، وشهادة وفاتي. انظري، دون أن تضعي نظارتك الطبية، فلتاريخي رائحة الزعتر، وحموضة الخل ولون الزعفران.

سيهديك إلى ظلمكِ. وانكساري ووحشة انفعالي.

انتظري يا سيدتي. انتظري قليلاً، فلربما تُغَيِر الأرض من إتجاهها، وسرعة دورانها. وسيعود المجد التليد، والدم الأزرق إلى زرقة عينيك.

دلفت الفراغ المتشكل من عتمة الماضي، وانتصبت أمامها بصمت شجرة قديمة. ما عادت تزورها عادتها الشهرية.

انتصبتُ أمامها. أعد قتلاها، والدم المسفوح على جبينها المرصوف بذكرياتي كلِّها.

كان الوقت أكثر مما احتجت. للوقوف أمام محراب قلبها، لأمارس وثنيتي بها.

عندما أحست بحرارة وصولي. رفعتْ رأسها بحركة كرتونية. وأعادته إلى الجريدة. طوتها ببرودة العجائز في أواخر الشتاء كما اعتادت أن تطوي صحائف قتلاها.

تصافحنا؛ بسرعة البرق. بحيادية الإسمنت.. ببرودة الحديد في الصباح.

كانت يدها باردة. ولها رائحة السمك الطازج.

ومني كانت تنبعث رائحتها القديمة. وذكريات الدفء القديم.

وجلسنا..

جلسنا متناقضين، غير متقابلين هذه المرة، على عكس المرات كلها.

بدت الطاولة الزجاجية حصناً خرافياً، يفصلها عني ويبعدني آلاف الأميال عنها.

كانت تشغل مساحات الوقت المتبقي من ذاكرتي المذبوحة على مسطبة معبدها بترتيب أوراقها. وأصابعها الموتورة تلهو ببعض الأقلام الملونة، التي أخذت تجتهد في ترتيبها لكسب الوقت، لتعيد ترتيب الأسرّة، وتغيِّير ملآتها. أو ربما لتطهو فطائر التفاح التي تتقنها، للحفل الساهر هذه الليلة على شرف الجرح القديم.

تؤثث المكان للقادم الجديد..

تلهو بوقتها. تَدَّعي الصبر، والثقة، والبقاء، والكذب.

تؤطر الوقت الباقي للمواجهة الحتمية، بصبر الساعات المقيت..

تحزم حقائب العهد القديم الممتلئة بالذكريات وألبومات الصور والهدايا التذكارية، والأغاني وقصاصات الورق. وبعض الأزهار المجففة.

تستخرج من قعر ذاكرتها الحقائب القديمة والكتب القديمة التي لم يسعفها المكان ولا الوقت لقراءتها، واكتفت بتصفح عناوينها العريضة.

وصور صغيرة الحجم، بالأسود والأبيض كنا قد تبادلناها. تعانقها، تشمها، تداعبها بأمومة افتقدتها، تتحسس أطرافها، ترمم تشققاتها وغياب ألقها وألوانها.

تلقي ببعضها في سلة المهملات، دون أن تمزقه. كأنها تنوي العودة إليها عقب مغادرتي.

ترتبها حسب الحاجة. وتمسح عنها الغبار، والرطوبة، وعفونة أفكارها..

لا أفهمها..

وأنا أرقص في صمت آخر رقصاتي قبل أن أُسلّم نفسي، فراهب المعبد يترصدني، وبيده سكين مسنونة. له طلعة رجل مارس الذبح في المواسم والأعياد.

وكان في صوتها رجفة الفراش. وعلى محياها مكر العصافير.

كُنتُ.. وكانَتْ..

(4)

في آخر مرة التقينا، كانت عيوني تتفحصها بشغف مجبول بالخيبة..

مضيت في سفر غربتي دون أن أقولَ شيئاً، وآثرتُ صمتي عليها كعادتي تماما. وكعادتها، مضت بعناد امرأة فقدت عذرية الوقت.

مضت برجاحة عقلها، بطول قامتها أمام الوقت، غير آبهة بأمّة ملّت من تكرار التواريخ في فترات الحيض المتكررة.

وعندما أنجبت صغارها، أسلمت الروح. وخلّفت ورائها أيتاماً وأراملَ وساعات بلا عقارب، وطرقات متقلة بالنعاس. وقذى يثقل العيون ويبعث على الحيرة.

أضحك في سري الآن منّي.

كنتُ أفاوض إمرأة تَعتَدُّ بطول قامتها، ولا تفهم من السماء سوى هذا العطاء، وتمارس الركون إلى ملمس ساقيها. مستخدمة كل الطرق القديمة في البقاء والنقاء، والإغراء وإراقة الدماء.

كنتُ وقتها أمارس حقي في الحماقة، وتمارس هي حقها القديم في استعباد البشر.

كنتُ أظنكِ ستعودين، عودة الطيور إلى أعشاشها..

كُنتُ.. وكانَتْ..

كانتْ هي تمارس حقها المجبول بطول ساقيها، ونقائهما من الشعر الزائد.

تعبر الوقت الباقي من مواعيدها المتأخرة عبر الأزقه دون تردد أو حيرة تراهن على غرائزي البدائية القديمة فيها.

كنتُ أمارس عاداتي الرديئة في انتظار الموتى كي يعودوا، ليخبروا العابرين عبر الطرقات الموحلة، بسر واحد من أسرار الحياة التي كشفت لهم، بعد أن عبروا أستار المجهول.

كنتُ أمارس غبائي باحتراف. لا الأموات عادوا، ولا عاداتي القديمة بدّلها طول الإنتظار.

لكن الأفعى التي تسكنها غادرت جحرها بلا عودة. ووقعت في حب ذكر أعمى، أضلها وأصمّها وألقت فيه غرائزها وأشواق قلبها كلها.

كانت تمارس طقوسها البعيدة في عبادة الذات.

والتعاليم الوثنيه البالية في الغيرة والحقد والإنتقام.

أما أنا. فكنت مثلها تماما أمارس وثنيتي بطريقتي الخاصة، لكن مع إله آخر صنعته بيدي هاتين.

لم أفهمها، واخترت لها عقداً يطوق قلبها صنعته من الياسمين، فخنقتها رائحة الياسمين ووحولة الطريق.

أما هي، فلم تسبر عقدة نقصي، التي لا أراها سوى في مرآتي. وقد رعاها يتمي المبكر وانكسار جدي الأزلي أمام نفسه وأمام القدر.

أصَرَّ عليها بغباء من ينكر الشمس.

تراني في مرآتها. صورة ملونة بألوان قزحية، رسمتها أحلامها لها، ودلال السنين.

وأنا ما زلت أمارسي عاداتي السرية في الحمق والبعد والجفاء وتكرار الأخطاء نفسها. والسهر على ضوء القمر لأطالع صفحة وجهها المترع بالخجل.

واحتفظت لنفسي بكل الحقوق.

في الثأر والقتل والحمق والحقد والبعد والقهر والجبن والخون، وأشياء كثيرة ورثتها منذ عقود. ورضعتها مع الحليب الفاسد.

لي عندها حقد غائر في الثنايا، لا يزيله حدب الليل وهدهدة السماء.

فمرآتي أكل الصدأ أطرافها البعيدة. وشَقَّقَها طول التحديق في قادم طالت عودته.

وهي لا تأتي فتمسح مرآتي، وتذيب زحمة الوقت.

" الدموع هي أول طريق للبحث عن حلول وآخر وسيلة للتفاهم"

سمعتها منك على حافة بكائك ذات مرة.

دموعك كانت أكثر أسلحتك تدميراً. طورتها النساء عبر الأجيال، وفترات عبور الزمن أعالي الجبال، في الغرف المغلقة وفي لحظات العري، ومساءات البكاء الجماعي.

وورثتها أنت بجدارة الغواية كابراً عن كابر. لا ينازعك فيها سوى ذوات العيون الواسعة، ولا أوسع من عينيك.

دموعك تحرجني، وابتسامتك الساحرة، تأتي على أشيائي العزيزة كما تأتي النار على الهشيم.

" أصدق دموع المرأة تلك التي تنهمر في مواسم تقطيع البصل"

لك مهارات خاصة في استحضار الدمع، وفي تقطيع جسدي.
وأنا بين دمعك الكاذب، وابتسامتك الماكرة أنقل خطوي بهديهما فيخونني تاريخي، وتخونك غرائزك الممتدة في الفضاء القليل الباقي بيننا.

تبقين أنت الثابت المتجذر، وأنا المتحول والباقي بلا هوية ولا عنوان.

تفلحين في كل مرة، وكل مرة لك فيها عادة جديدة تمارسين غواياتك كلها على جسدي.

أمك الأولى فعلتها مر، وأغوت سيد البيت بالتفاح، وبقيت تمارسينِ الغواية منذ الأزل.

كُنتِ ثمرتي الأولى التي اقترفتها، كان لكِ طعم الطيب ولون العشق، ورائحة النسيان.

كان لك رائحة نيسان القديم. وأشياؤك الداخلية لها طعم النرجس، وشهية الأقمار الساهرة تحرس الوطن من حسد العصافير ولؤم الحمام.

ترى، أكنتِ تمارسين العشق أم القتل ؟

أتذَكر تفاصيل الساعات، وأرقب مخارج الحروف كأنَها أحجارة كبيرة متدحرجة من علو هامة الوطن، أتلقاها بصدر العاري ودمي الساخن. الدم ليس دمي واللَّون ليس لوني لكنه يحمل صفاته، وجرائمه، ولزوجته وعاداته.

كنا نناطح صخر الصوان برؤوسنا العارية. وأفكار مثالية صغيرة عن العدالة والمساواة وحقوق المرأة، عن الإشتراكية والعدالة الإجتماعية، عن حق الشعوب في التحرر والمقاومة، عن عدالة القضية، وإخفاقات الساسة والسياسة.

كلمات... كلمات، انتهبتها رؤوسنا من بين الصفحات الصفراء في الرفوف الجامعية، وكانت لا تساوى في ميزان جدك وامبراطوريته " قمع سيجارة "...

واهمين كنا في ذلك الزمان ولم نزل.

لكنّ الحب طيف سماوي لا يعرف رائحة الأرض ولا طعم أديمها، وها هو الطيف طيف العشق الأول، يعود إليّ ولا أدري إنْ عاد إليك أنتِ.

فأحلام الحب لها أجنحة ملائكية بلون سماوي، ولها طعم عينيك ترى هل آن وقت استعادة الحب ولم نزل نخوض عباب الوحل.

هل آن الآوان، لفتح أبواب عينيك وطرد المستعمرين منها وتعقب الغزاة القادمين.

وكعادتي، لم أعَدّ العدّة. داهمني خوفي القديم منكِ. لم أتدرب على استعمال السلاح الجديد، وبقيت مواهبي في حمل السيف والمبارزه ولبس الخوذة والإنتظار على قارعة الكلمات منقوصة.

تعبر كلمات جدك الأخيرة مسامعي، يعود طنينها إلى أذني، تملأ الفراغ المتشكل بعد الخروج في ذاكرتي المزدحمة بالصور، جثث أفكارنا، كلماتنا الميتة، أحلامنا المهشمة، ومواعيد بقيت عارية عند الزقاق المترب بالخجل، وجثث لآلات شهدت المعركة الأخيرة

دون أن تصاب بعطب البقاء، بقيت هناك دون خجل من عريها لنصف قرن ويزيد.

جثث الشهداء لا تصاب بعطب الأحياء ولا.

قال وهو يمسح شاربه الغليظ الأبيض.

-" كلّك على بعضك، بلحمك ودمك ابتسواش قمع سيجارة".

وأشار بيده إلى المنفضة، الممتلئة بأعقاب السجائر الفاخرة وكرر.

"... قمع سيجارة"

جدك يا أميرتي النائمة في أحضان الوجع، علّمني الإحتراق على الأرصفة، وعلى يديكِ أنتِ إحترقت شفتاي وتفحم لساني كلما رددت اسمك النبيل، أو هزتني ذكرى عابرة.

تعلمت من " قمع السيجارة" ذاك، أفكاراً جديدة طرقت ذهني لأول مرة. وأن " قمع السيجارة" في عُرفِ جدّك الشمالي وامبراطوريته المترامية الأطراف أكبر مني ومنكِ، ومن طيف الحب الجميل الذي كلّل علاقتنا نحن.

"قمع السيجارة" ذاك شربته أنا حتى الثمالة واحترقت شفتاي به ورؤوس أصابعي. واحترقت معه مساحات شاسعة أخرى لا تقارن بدونمات جدك الذي سمسرها في صفقات مشبوهة. ومساحات شاسعة من الذاكرة، احترقت كلها وأصبحت قفار لا حياة فيها.

وها أنا المجنون بعد مرور هذا الزمن الموتور أعود لذاكرتي الحيرى مرة أخرى.

ها أنا المجنون، أعود لجرحي القديم مرة أخرى أرعاه كالأطفال أقلم أظافره، وأسهر على البقايا القليلة من شعره الأشيب، أمسح رأسه بالزيت. وأدلِّك أطرافه بالماء الساخن والصابون.

ها أنا أعود لأكتشف ذاكرتي من جديد وأكشف عوراتي كلها.

ها أنا المجنون، أعود لوجعي. أرشه بالملح والخل، وأنفذُ من جديد إلى المسام الملتئمة. اقرأ ألمها القديم كما يقرأ الأطفال دروسهم.

ها أنا المتيم، أعود إلى مهنتي القديمة في نبش القبور وإخراج الجثث من رقادها القديم. لأطرحَ عليها أسئلتي الساذجة عن الموت والحياة وعذاب القبر عن الجنة والنار، عن ناكر ونكير، وأصحاب الأخدود.

أطرح الأسئلة ولا أجد سوى أسئلة أخرى تتشب في رأسي المصدوع كأعمدة الظلام الحالك، تصطف إلى جوار بعضها بايقاع رتيب، تلح في اصطفافها.. ويمعن الجرح في سفره حاملا مزيداً من الهدايا المعتقة برائحة البخور.

أعود إلى ذاكرتي أعود إليكِ. إلى الوطن لأكشف عن مناطق شاسعة أخرى من الذاكرة ما زالت قابلة للحياة، عدت لأزرع فيه نباتات أخرى نباتات برية لها ألقُ عينيك القديم الذي أطفأته الغربة.

فأنا يا سيدتي تعلمت في غربتي عن عينيك أشياء كثيرة.

بُعدك، علَّمني العَزف والقراءة، والنظر في السماء.

وتعلمت الزراعة دون ماء، والحصاد في الشتاء.

وأشياء أخرى من غرابة عينيك.

وتعلمت منها، أن الوقت الذي يمضي بعيداً عن عينيك هو وقت مستقطع، بلا حياة.

وأن الوطن يا سيدتي تماما كالأشجار.

لا يموت – إن مات – إلا واقفاً.

تعلمت أن أزرع المساحات الشاسعة من ذاكرتنا المشتركة بالنباتات البرية، كتلك التي تقوى على العيش دون ماء. تجترح مائها وخضرتها بذاتها.

تثقب الأرض وترنو إلى والسماء. تمتد جذورها إلى المكان والزمان وتترعرع في الأرض البور التي خلفها جدك وكثير من أمثاله ممن عاشوا على جراحات الوطن. وتربوا على نضح جِلده العتيق.

أملك الخسران كله لأعترف الآن. لكِ ولنجوم السماء التي ساهرتني، للأرض التي دستها بقدمي العاريتيْن هاتين. أعترف لجسدك الممدد أمامي كالبلور، كموج البحر الزاخر بالغموض، لعينيك القديمتين، أعترف !!

أن تحفظّي وانسحابي وترفعي، كان خطأً اقترفه جنوني وعنجهيتي وغرور قلبي، وسذاجة الوقت التي عشته قبلك.

أعترف الآن، أن أخطائي في الحياة كانت كلها تنبع من رأس واحد، وخلال مواقف كثيرة متعددة لم أنجزها في وقتها، تركتها للزمن لينجزها في تسليم العاجزين.

وها هو الزمن قد أكل أشيائي كلّها ولم يشبع بعد، وترك على روحي آثار أسنانه، على جسدي ستشاهدين آثار خطواته، وعلامات أخرى يهتدي بها العابرون.

بُعدكِ علمني عادات سيئة أخرى.

علمني الأكل والنوم بلا انتظام.

علمتني غربتي عنك، أن آتي الطعام والفراش دون رغبة واذا أكلت أسرفت، واذا أحببت أسرفت، وإذا كرهت، لا أبقي ولا أذر.

علمني حبك بقايا العادات. والسير في الليل كبنات الهوى ألتمس في صمته جوابا واحداً.

من أنتِ ؟؟

كيف ومتى.. ؟؟

ولماذا عبرتِ حياتي مرة. أو صادف عبورك السريع ظل شجرتي الوارفة. فاستظليت بها، شممت عطرك ورائحة عرقك، وعرفت مقاس قدميك.

ربما لو استطال الحب قليلاً، لبرئت منك إلى الأبد.

ومضيتِ في عناد امرأة تعرف تأثير الوقت على الدواء، وأثر الغياب على الصحة والمرض.

ولأنك تعلمين أبجدية الرجال قبلي. وتتقنين العزف على رؤوس أصابعهم الخشنة، تستطيعين البقاء أطول منى في غرف التحقيق، وتباغتين الوقت باجاباتك الجاهزة. وابتسامتك العجولة.

وأنا الجاهل الأبدي.

عبرتُ نساءَ الأرض كلها، ولم أصل إليك. لأنكِ نوع نادر من النساء، تتجنبُه الأرض في مواسم الزلازل والبراكين. ولا زلازل ولا براكين حدثتْ، منذ ولادتك.

أملك قلبي لأعترف بجهلي المطبق بكِ.

بمواعيدكِ، ومواسم حصادك، ومواعيد عاداتك.

بنظرات عينيك القديمتين. من عمر الأرض وربما من عمر الزهرة.

فرجال الأرض كلّهم، لا يستطيعون منع امرأة عقدت عزمها على موعد عشق تحت القمر.

معك لا تنفع الحراسة، ولا الكياسة..

معك يموت المنطق غيظاً، فلا منطق يؤطر جمال عينيك وتنتحر الحكمة لجهلها بمواطن الجمال، برغم بلوغها سن الرشد وحضورها للعديد من محاضرات المختصة في علم الجمال، وتقدير قيمة الوقت جلوساً عند الأعتاب.

لا أفهمك.. ولن أفهمك..

امنحيني بعض الوقت..

ربما سأحتاج إلى أربعة آلاف سنة أخرى كي أفهم امرأة واحدة عاشت في القديم "كنفرتيتي"، وبالتأكيد سأحتاج إلى أربعة آلاف اضافية لفهم امرأة لها شموخ قامتك. تلبس الكعب العالي، تسلم جسدها لخبراء نزع الشعر بالليزر. وتحتفظ في حقيبة يدها الداكنة مكياجها وعطرها ورسائلها وحزنها وفرحها وهاتفها الخليوي.

أعترف بجهلي في الجغرافيا كلها.

وما أعقد جغرافيتك، وما أوعرها.

أستطيع ربما، تقدير الجهد اللازم لايصالك إلى غرائزك، وأستطيع ربما أن أقيس سماكة وطول القرط الذي تحتاجينه كي تغويني به..

ولا أبعد من ذلك..

وربما إن أخذني الذكاء قليلاً، أستطيع أن أعرف مقاس حذائك..

فالنساء يا سيدتي أكثر احتمالاً للوجع ولوقع القدر.

وهي حقيقة يعرفها بائعو الأحذية فقط.

وأعرف عنك أحمر الشفاه الذي تفضّلين، وكثافة الطلاء الذي يتناسب مع ثقافة شفتيك.

وأدّعي المعرفة بمواسم الكحل التي تقترفينها بين الأوقات، وخلف المناسبات، وفي اللّيالي التي تسبق عاداتك الشهرية القديمة. وسرعان ما ينفذ صبرك من تعداد الأشياء التي أعرفها عنك، وقد تغادرين المكان على عجل، كي لا أكشف أسرارك الساذجة التي أعرفها وتملّينها.

لا تذهبي إلى موعدك المضروب، وانتظري قليلاً، فقد بقيت واحدة يجب أن أقرأها على مسامعك. فأنا أعرف حبك للتفاح، وقطع الأرزاق. وحبك لإتلاف المزروعات الصيفية.

وأن غيرتك يا سيدتي هي أعظم عادتك كلها وأجملها.

ما سوى ذلك، لا أعرفه...

متى تحبين ومتى تغضبين..؟؟

متى تضربين المواعيد.

وكيف تختارين الأماكن المناسبة؟

كيف تنتقين ألوانك.

وتختارين عشاقك..؟؟

وكيف تبدّلينهم كما تبدلين احذيتكِ.

كيف تسرقين الوقت بالساعات. وتجدين أجوبة جاهزة في كل مرة. على مقاسك؟ كيف تتنقلين في الأمكنة وفي أزقة المدينة دون وجل أو خجل.

وكيف تختارين ملابسك ؟

تارة تضعين المعطف السميك ليخفي التضاريس والبرد، وتارة تتعرين إلى الحد الذي يُخجِلْ الأشجار.

تركبين السَّيارات العمومية دون وجل، تدفعين الأجرة أحياناً، وتُبقين الأبواب مفتوحة في المرات الكثيرة التي لا تدفعين فيه الحساب.

تسيرين في الأماكن التي لا تعرفينها. وعلى يقين أنتِ أن الطرقات كلها تعرفك.

لا تحتاجين أنتِ للسؤال. فكل شيء من حولك يشير بيده لتحديد الإتجاهات التي تريدينها. لا تطلبين العون، ويكفي أن تَرتسم على محياكِ طيف ابتسامة كي تفصح الأشياء والأماكن عن أسمائها.

تعرفك السماء من ألوانك. وتميز الأرض وقع خطواتك، وتتحدث الأشجار عن طول قامتك عندما تسير إلى جوارك.

يسير الليل إلى جوارك كي يهديك في طريق العودة. لا يبادر هو السؤال، خشية أن تملين المقال. ويبقى يتعقب الخطوات خلفك بأدب جم. وتمارسين أنت معه عهر الدلال، فينكفىء على نفسه ويبدأ بالبكاء.

هناك أسئلة كثيرة. وأجوبة تحتاج إلى أسئلة أكثر، ولا جديد يا سيدتي سوى، حيرة الإنتقاء بين الأجوبة التي لا أسئلة لها، وبين الأسئلة التي غمضت أجوبتها واستحالت إلى شكل من أشكال الغموض الملازمة للغز الموت.

أسئلة وجودية لا أعرفها، وأجهلها كجهلي بوجودي، واستدارة رأسي..

من أنا وإلى أين المسير..

ومتى وأين الرحيل ؟؟

وتشتركين أنت بغموضك.

بشيفرة عينيك..

بمواعيدك، بأحلامك..

بحبك للألوان وللفَراشْ.

بانتقامك، بحقدك.

بغزارة شعرك. بحدبك المفاجيء.

بطاعتك العمياء، بنكرانك.

بمقدرتك الفائقه على ابتكار الوقت، والقفز بين الأماكن والأشخاص دون تعب.

بحلكة قهوتك.

بطول قامتك التي تحاكي النخيل.

بمواعيدك الخاصة في الغرف المغلقة، لإزالة شوائب الزمن، بجلدك اللامع الرقيق، بكثافة شفتيك المرسومتين بخبث وسابق إصرار على القتل والمكر والخون.

بمساماتك السميكة القادرة على امتصاص التغيير. وتبديل العُشّاق والأزواج.

وأعظم دهشتي. في بطنك التي سرعان ما تعلو وتنفتق عقب اللقاء الأول.

أرقب دهشتي فيها .

أرقب خوفي منها.

أداعبها، أعتليها أحياناً.

ولا أفهم سر الخلق ولا استدارة الوقت فيها.

أرقب الساعات فيها. وعندما يحين الوقت الذي تريدين وتختارين.

تتلوّين كذباً. تتألمين، تصرخين وتكذبين كما تتنفسين.

أمثالك تنتج الألم ولا تستهلكه. وتضحك من وجعها.

ولا أملك سوى انتظار الوقت في أدب جَمّ.

أنتظر إشارتك أو همس عينيك من خلف جفونك الظالمة.

وعندما يحين موعد ولادتي فيك.

أقف صامتاً، أبلهاً، أبكماً..

لا أعرف الأشياء، ويمر الوقت الحديدي وأنا مكتوف اليدين معقود الإراده. وأنت تمثّلين الدور على تمامه. أحرق الساعات

بالسجائر، أسير على غير هدى وأنت تمزقين الوقت والصمت. وأنا أُصدِّق وجعك.

تنجبين الأبناء والبنات. وأبقى أنا بعدك عقيماً سوى من رغباتي الهابطة المتجددة. أصارع قلة حيلتي وارتباكي، وشوقي وجبني، ومرارة البقاء وحيداً في مواسم الولادة.

فالأفراح كلها لك. والأسماء تعرفينها دون مواربة.

يأخذ الأولاد اسمي وتنتصر ذكورتي.

وعندما تبرئين من دمك، نتقرب إليك، نستحلفك أن تسامحين خوفنا، وكعادتك دائماً تسامحين، وتضحكين في سرك من ضعف الرجال، وسذاجة أحلامهم..

تعلمين في سرك، ماذا يريدون.

ولا أسهل ما يريدون.

ولك أدواتك الخاصة في قياس سذاجتهم المتوارثة.

وتدركين أنَّهم واهمون.

يأتونك لإطفاء غرائزهم الساذجة. وتغيب عنهم الكليات التي لا يعرفها أحد سواك. لكنك تعرفين أن سر الرجال كامن في خشونة ذقونهم.

وأنك لم تطورين من البداية، أدوات للقتل والضرب والصفع، كتلك التي طورها الرجال في السنوات القليلة التي عاشوها، لا هدف لهم سوى العبث بأجسادهم.

وقتها كنتِ أنتِ قد بدأتِ الخلقَ باكراً.

وصعدتِ إلى القمر. وابتكرت أعظم أجهزة الإتصال اللاسلكية. وصنعت منتجات خاصة لاستنهاض الذكورة النائمة وأخرى لطهو الرغبات المتجددة.

وفي فترات بلاهتم كنتِ قد دخلت التاريخ غازية منتصرة على رجولتهم.

فأنتِ سابقة في الخلق على الرجال بمليون عام.

لا أفهمك.

وأحتاج ربما إلى مليون عامٍ من السهر والدرس والسفر، لفهم امرأة واحدة.

وكلما فشلتُ مرّة، ابدأ في محاولات فهمي من جديد. أحتاج إلى المليون الأولى كي أعرف السر في خلقك. ولأعرف سر الإنجاب، وسر الحيض، وسر ميلي وفقداني لأسلحتي كلها عندما تقابل عيني، عينيك.

لأعرف، كيف تحبين ومتى تكرهين.

لأعرف، كيف تنامين على جنبك الأيسر. وتأمنين الشياطين.

متى تضحكين، ومتى تكشفين عن أسنانك اللامعة وكيف تستحضرين دمعك في ثواني قليلة، ويذهب في أقل من رمشة عين.

لأعرف كيف تغيرين مزاجك في الليلة الواحدة ألف مرة. لأعرف سر براعتك في الشراء وفي مجادلة الباعة. وسر إبداعك في طهو الطعام، وانتاج الحليب. وسر معرفتك للكمية اللازمة لملح الطعام. وسر الإختلاف في لون البسمة وطعمها التي تقدمينها مع

حليب الصباح، أو ممزوجة برائحة القهوة المسائية، أو تلك التي تسبق وربما تلي الأبواب المشرعة على الشهوة، وإحراز النصر تلو النصر.

ولا أعرف سر عدائك للنساء..

فأنت لا بد تعرفين، أين يبدأ الخوف ومتى ينتهي الرجاء.

ولهذا يا سيدتي..

وقعت في الإثم معك مرتين.

مرة عندما عرفت حلاوة عينيك.

ومرة عندما افترقنا. وأصررت أنا بغباء الأطفال وعنادهم، أن أتزوج فيك امرأة أخرى. تملك جرأة العطر الذي تملكين.

فعندما عبرت أول امرأة تشبهك.

تزوجت فيها عطركِ أنتِ.

خدعني غبائي وطيشي وقلة خبرتي في كيمياء النساء.

وخدعني أكثر عطرها.

وفيما بعد، عرفت أن العطر يا سيدتي يعيد إنتاج نفسه في كل مرة بشكل ورائحة وطعم جديد، عندما يمتزج بمسام الجلد وأنفاس حامله. وعرفت بعد فوات الأوان، أن للعطر معادلات كيميائية معقدة. لها حياد العناصر في الطبيعة، لكن لإجتماعها بالبشر وأمزجتهم وعاداتهم احتمالات لا حصر لها، لا يؤمن مكرها ومحفوفة بالمفاجآت.

وعطرك الذي خانني مرتين، كان ممزوجاً بك.

بعرق الجسد، بفصيلة الدم ولون الوجع وحرارة الدموع.

عرفت ذلك يا سيدتي فيما بعد، وعرفت أكثر أن عطرها هي لم يكن من اختيارها. وأن تركيبة عطرها الممتزج بمسامها، كان له طعم ثمرة البابايا. ولا رائحة له.

أما أنتِ فعطرك كان له طعم دمي، ورائحة أحلامي.

أشاهدكِ من خلف جفوني. تجلسين في مختبر الكيمياء. تضعين نظارة سميكة من الوجع، تمزجين الألوان والسوائل. وتضعين مشاعرك بينها، لتعدين عطرك الخاص لخلطتك السحرية القاتلة.

عطرك أنتِ كان له لون السماء ورائحة الأرض عقب مواسم المطر.

عطرك المشتبه به، كان له تنوع الفصول. وتلُّون الأسماك، وكان له في كل موسم رائحة تحاكي الثمار والأعياد، وتنوع الظلال. وكان لعطرك عندي تاريخ ممتزج بالتضاريس، محفوف بالترقب والخوف من الإنتصارات الصغيرة، عطرك يا سيدة النساء، أضاف لعمري وقتها بعداً افتراضياً. يعشعش في مسام عقلي، أطير به ومن خلاله إلى فضاءات لا نهائية تسابق الوجع وتمتطي حصان أشهب يعدو خلف القدر.

خانني عطرك مرتين.

وأنا المجبول بالخيبة والخروج.

المحكوم بإعادة الوقت. والوقوع مرات ومرات في خون الساعات، المخنوق بالإنتظار، وإحياء جلسات البكاء المنظم.

أنهض من أفراحي، أترجَّلُ خارج أحزاني، مُبلل الأطراف، منقوص الفرح، ولا أذكر عناويني القديمة.

وبقيت تحت شجرة اللوز القديمة، منزوعة الحلاوة، ألملِمُ بقايا الأيام الأخيرة المكتنزة بذكريات العذاب السابق لفراقنا.

أبدّل ملابسي الرثّة خلف الزقاق، وأنتظر جفاف الوقت الباقي، أعتصرك بين يدي المعروقتين، وأتفقد تفاصيل الموعد القادم، ولا تأتين كعادتك، فأعود مرة أخرى إلى القوقعة الأولى، أحتسي أحلامي مع الفتات الباقي منا.

فالوقت الآخر الباقي بعدنا ما عاد يؤرقني رحيله أو بقاؤه فعندي منه الكثير، ولأحلامي المتبقية بعدك وقت بطيء لتحقيقها.

خانني عطرك مرتين.

مرة عندما عرفتكِ، وعرفتُ بعض أسرارك الموغلة في قدمها والأخرى عندما عرفتها.

منتصرة أنت دوماً.

ومسكينة هي أبداً.

وأنا بينكما، مسكين حتى الخجل.

كانت تمارس الزواج كما تمارس الطعام والوقوف على شرفة الوقت.

وعندما اكتشفت خيانتها لعطرك. وعرفت أن كيمياء جسدها، لا يناسبني زهدت فيها وفيك وفي النساء. ودفنت رأسي كالنعام، في غابة النساء المشرعة في العراء تراني ولا أراها.

أقتل الساعات في العمل، وأُقطع الوقت إلى أجزاء متماثلة في اللون والحجم.

إذن، هي معادلة العطر التي خانتني هذه المرة.

ها هي لعنتك القديمة. تطاردني في الأزقة والحارات وبين صفحات الكتب. بين السطور، وخلف علامات التعجب والإستفهام، وخلف العناوين العريضة في صحف الصباح.

أنكرك، ولا ابرأ منك.

وجهك ينتصب في وجهي، يطوقني بذراعيه. يمنعني من العشق، يفرد جناحين اسطوريين يغطي بهما الشمس. وضوء القمر ودلال النساء.

تنتصب قامتك كمارد بين السماء والأرض، تمنعني من مشاهدة الزهرة للتمتع بها، وتحسس جسدها الأسطوري الممتلىء بالأنوثة.

وأنت الأنانية الحقودة. الممتلئة بالخبث.

غيرتك المتورمة تختبأ في الزوايا وخلف المواعيد وفي الطبقات السفلى لمشاعري، غيرتك وأنت البعيدة القريبة مني وعني، تُبقيني مقيدَّ اليَّدين والعافية إلى شجرة اللوز القديمة بثمارها المرة وأوراقها المتساقطة قبل حلول الخريف.

كنا قد عقدنا تحت ظلها آخر لقاء لنا. رحلتِ أنتِ إلى مثواك الجديد، وبقيتُ أنا موقوفاً، مركوناً إلى جذع الشجرة هناك، أحاكي ليلها، أتوسد تاريخها، وأنتظر المساء الذي سيليه صباح آخر، تأتين أنتِ كي توقظينني من غفوتي القديمة بعدك.

وبقيت هناك قرابة عشرين عاماً، عام يتلوه أعوام، موثوق الساقين مشرع النافذة. أحاكي اللّوز وأسامر زهره الموسمي في آذار، أنتظر إنقضاء دورتك السنوية في الغيرة، فربما تعقلين ذات صباح،

أو تتناسين طول ساقيك البلوريتين الصافيتين، وتتحلين بالحكمة اللأزمة لفك وثاقي وتركي لبعض الوقت كي أقضي حاجاتي القديمة.

لكن السماء التي منحتك هذه الهبة، لم تشأ بعد، كي تتحلين بالنضج اللاّزم لتألفين هذا العطاء الجزيل.

وروجدت في الختام أن تاريخ الحضارة يا سيدتي، ليس سوى تاريخ النساء.

(5)

تغيبين غيباتك الطويلة. وتتوقعين مني انتظارك على الشرفة والإبتسام في وجهك بعد عودتك في منتصف الليل.

تمضغين لحمي المملح وتتلذذين. ويسافر جسدك الجميل في جغرافيته ليعيد تشكيل ذاته قبل تجدد الفصول.

لا أعرف آلهة غيرك. ولا أتعبد جمال امرأة سواك. ويبقى صوت وقع أقدامك الواثقة وأنت تهبطين في الصباح. تهبطين في كل مرة على درجة من السلم الواطئ لقلبي. وتهرسين بكعبك العالي وعلو ساقيك البلوريتين، تهرسين عظامي الباقية بعدك.

تغيبين غيباتك الطويلة، ولا تتركين قصاصة ورق صغيرة تخبرين الأهل أو الجيران، عن مواعيد عودتك إلى البيت، لأبقى أنتظر انتظاري بك، دون مواعيد مرتقبة كي أُعدّ العدّة لإستقبالك، أو أشرع في طهو الطعام أو تسخين المطهو منه على موعد عودتك.

وأمارس الموت البطيء مرة أخرى عندما تعودين، أصغي إلى رتابة أحلامي في وقع أقدامك وأنت تقتربين من الباب، أتابعها بشغف طفولتي فيك. ويبقى وقع أقدامك لحناً غرائبياً؛ ايقاعاً جنائزياً، أتلذذ بوجعه. وأرقب قُبح قلبي الجالس قرب الباب كي يجدد خفقانه الموتور فيك.

تريدينني أن أمارس معك "زوج السّت" كرغبة كل النساء. أن أقعد إلى جوارك بأدب المشتاقين. أسألك عن نهارك، عن مسراتك، عن تفاصيل علاقاتك، أتفحص عينيك وقدميك. وأنا الأبله الذي يعسر عليه الفهم والنقل، ومعرفة الحظ وقراءة الكف.

أرزح مزهواً بجهلي وعناد حبي.
وأمعن في شوقي.
وفي أوقات الفراغ أتلهى بإزالة القشور الميتة على سطح جراحي فأمنعها من العافية.
وأكمل ملحمة المساء معك..
أرقص لك رقصة الطائر المذبوح قُبَيْل المغيب..
أسري عنك. أغني لك بصوتي القميء..
ولا تتذمرين.
أطرب لطربك المجبول بالخمول والتعب.
وعندما أذهب لإعداد العشاء الأخير.
تتمطين في دعة الأطفال، وتشترطين أن أطهوه الطعام على حرارة مشاعري وأشواق قلبي.
أطيع جهلي الممزوج بك. وأصابرالنفس وأتحلى بايماني القديم.
أعِدُ عشاءً ليلياً له طعم عينيك. دسماً حاراً مقطراً، ممزوجاً متبلاً مهروساً مزيناً. مثلي تماماً.
وأجلس إلى جوارك..
تأكلين وتتلذذين. وأنا أسافر مع كل قضمة أو قطعة خبز وأشتهيكِ بعدها.
أتأمل شبعك وجوعي.
لا تسألين عن الأولاد..
فهم ليسوا أولادك. وانْ كُنتِ قد أعطيتهم السكر اللأّزم للحياة في أحشاءك. وأعطيتني الشقاء الكافي للبقاء إلى جوارهم.

أسألك عن أشياء صغيرة، تَطرق ذهني ولا تجيبين.

وعقب انتهائك من التهامي، لا تغسلين يديك. تتمطين كالقطط في آذار، أحضر لك المناديل المبللة الأطراف. وأمسح بقايا الطعام على فمي.

أخلخل المنديل المبلل بين أصابعك وتحت أضافرك. وأجففها بالطرف الآخر لتاريخي المريض بك.

لا أطالبك بواجباتك الليلة. فأنت مشبعة، متعبة، متربة. ولا تحتاجين سوى إلى وجبة من التدليك لمواطنك الحيادية.

أطرطق أصابعك الوسخة. أغسلها بماء عيوني. أهدد تعبك وشقاء قدميك المصبوغتين بتاريخ غامض التفاصيل.

أقرأ لك القصص الأسطورية، المحفوفة بالخيال، عن الملكات، عن الجنيات وربات الجمال. عنك وعني. عن شهرزاد الجبانة شهرياء الخؤون.

ولصباحاتك طقوس خاصة أيضاً. أحضر لك حمامك الدافيء. ولا تستحمين سوى بالماء المقطر، الممزوج بحليب الأطفال..

أمرر أصابعي الجافتين على مواطنك كلها.

ظهرك الشاسع، قدميك العاريتين من دمي، صدرك المشرب بالدم والقتل واستباحة الأرواح. نَحرك المستطيل كنخلة، ساقاك البلوريتان المشبعتان بالتواريخ، وتفاصيل الأمكنة والذكريات العزيزة البعيدة.

أدّلك ظهرك الشاسع مرة أخرى. أمرر أصابعي على كتفيك العاريتيْن مني. ولا أشتهي سوى ممارسة مهنة التدليك والترطيب. وقراءة الحظ.

وأقرأ في ثنياته القليلة الباقية، حظي وتعاريج بختي القديم. مجبول أنا بالخيبة مصنوع منها. ولي عندها سيرة ذاتية حافلة بالتفاصيل.

أستشعر الرغبة أحياناً. فتنتفضين كعصفور بلّله الخوف، تطالبينني بإغماض عيني عن تاريخك.

فتاريخ النساء مكتوب في أكثر من قطعة جغرافية على أجسادهن وبلغات عدة، ولتاريخهن المتجدد ملخصٌ مكتوب بماء العيون.

أغمض عيني كي لا تخونني ذاكرتي. أقلب بصري بين الفينة والأخرى، أختلس النظر. وأشاهد صفحات لا عداد لها كتبت عليها قصة الحضارة.

قصة الإنسان، انجازاته واخفاقاته، حروبه ومعاهداته، عاداته القديمة في أكل لحوم البشر، واضطهاد النساء.

على ظهرك المشرب بحمرة الخجل، شاهدت فصول ملحمة جلجامش، وصراع جلجامش وانكيدو الظاهري على الإمارة. وصراعهم الحقيقي على قلب امرأة.

جلجامش، يصرع الأسود، يهصرها بذراعيه وتصرعه امرأة. يعدو بين الأشجار، تهابه وحوش الغاب. وعندما شاهد عينيك ذاب كالسكر، وأمضى ثلاثة أيام بلياليها يضاجع تاريخة الكاذب.

شاهدت انتحار سقراط وحوار أفلاطون، وشاهدت الإسكندر يعلو صهوة جواده لغزو الشرق. شاهدت أباطرة الصين، ونساك الهند الغارقين في التراتيل.

شاهدت تاريخ اليونان، والرومان، والمصريين، السومريين، والكنعانيين، والأكاديين، والبابلين، والآشوريين. وشاهدت الآريين باختلاف فروعهم، وقرأت التاريخ دون ترتيب حتى التفاصيل.

ووجدت في الختام أن تاريخ الحضارة يا سيدتي، ليس سوى تاريخ النساء.

شاهدت الأماكن والأشخاص بصورهم وقاماتهم وانتصاراتهم وهزائمهم، شاهدتهم جالسين على مداخل مسامات جلدك المعتق بصخب التاريخ.

وأنتِ لم أشاهدك البتة. كنتِ من خلف الستار تحركين المشهد على هواك، تماما كعرائس الأطفال.

فانا أعرف زهدك الأزلي في الظهور على منصة الحكم. وفي أخذ الصور، وتعليق النياشين، واحتفظت لنفسك بتحريك الدفة من الخلف. واكتفيت ظاهراً بالإعتناء بتصفيف شعرك ولون أحمر الشفاه الذي يتناسب مع حرارة اللقاء، وتقدير مساحة العري اللازمة للإغراء. ولكل مناسبة لها مساحات من العري تحسنين أنت تقديرها كل مرة.

وتكتفين كعادتك، في إغراء الرجل والكذب عليه بزهدك الماكر في الرئاسة، تمنحينه بعض الألقاب يتلهى بها، وتستأثرين أنت بالحكم من خلف الستار.

وتضحكين بملء جوارحك في الخفاء من سذاجة الرجال وضيق عقولهم، تمارسين غوايتك اللازمة. وتضحكين بكل قلبك من غرورهم، وعنجهيتهم. وتعلمين بدقة، كم يحتاج الرجال من مساحات العري اللازمة، لذوبان ثلوجهم من قممها العالية.

وتؤمنين، أن الفرق بين العابد والكافر، فقط مساحة العري اللاّزمة. وتعلمين أن الفرق بين العالم والجاهل، مساحة ترخيم الصوت واستطالة الأحرف التي تخرج من شفتيك.

خدعني استسلامك الكاذب.

كنتِ فقط تقدمين الطُعمَ اللازم للسقوط، وبعدها. طوقتني أنت بيديك. وذهب الشوق أدراج الرياح.

مرة أخرى، أنت مثل "هولاكو" تماما.. – "هولاكو" أيضا صرعته امرأة –.. أنتِ مثله، لا تأخذك رحمة، ولا تستثيرك شفقة، تقتلين، وتجلسين بعدها لإحتساء الشاي الأخضر لتخفيف الوزن الزائد، دون ندم أو عذاب ضمير.

تمارسين حساب الذات عندما يتهدل صدرك وتتقادم أسلحتك. عندما يشيب الشعر ويغزو جلدك البقع. وقتها تهادنين قليلاً، لكنك لا تهادنين طويلاً. تبدأين الرحلة من جديد. تعطين بنات جنسك دروساً خصوصية في الإغراء، وقتل الرجال، والتحكم بمصائرهم، ومواعيد دخولهم وخروجهم في رائحة عطرهم، ونوع سجائرهم، وثمن

ملابسهم، وتمنحنه هامشاً من الحرية، كاختيار كمية السكر اللازمة لفنجان الشاي، أو كمية الطعام اللاّزمة لإطعام العصافير..

أتحسس جيدك، فأحس بالخدر ينمو بأطرافي.

فلجيدك تاريخ قديم. مليء بالتهم والخطايا. وتتقنين كعادتك تزيينه بالحلي والمجوهرات، فجمالها منك.

وتمارسن لعبة تطويقه بالزينة حتى تكتمل الصورة ويبدأ مسلسل الإغراء، والقتل، وعذاب الذاكرة.

أتحسس قدميك العاريتين. أعد الأصابع ألف مرة. وأتلمس تاريخها. أقرأ خرائط الطرق التي سارتها. وأي الأعتاب التي داستها. والقلوب التي وطأتها برفق ولين، وفيما بعد هرستها.

أقرأ صحتك ومرضي عليها. أقرأ عذرية الوقت، وخون المكان. وأقرأ فيها، تواريخ ميلاد الأباطرة والقادة، وتواريخ وفاتهم. أشَرّح جثثهم، وأقع على أسباب الوفاة.

صدرك المصنوع من البلور المضمخ بالذكرى، لا ألمسه بأطراف أصابعي. ففي قممه نار مستعرة تحرق، ومن عليائهم جبابرة كثيرون احترقت أصابعهم وتيجانهم.

وأعلم أن لكل تاريخ مرحلة هامة وأكثر مراحلك أهمية، ابتدأت من على قممه النافرة.

من على قممه أعلنت الحروب. وأطلقت صفارات الإنذار. ومن تلك النقطة انطلق جحافل الغزاة، وفيالق النصر. ولا هزائم له إلا عندما تتحدر القمم. عندها تعلنين انسحابك من الحياة السياسية.

وتتولين المناصب الإستشارية، وتتركي بحكمة يعوزها الرجال. تتركي كرسي الحكم للدماء الجديدة صاحبة القمم العالية والصدور الشامخة، ولا نتعلم منك.

أتلمس منابت الشعر على ساقيك. واقرأ تاريخ الفن والأدب. والمراحل التي احتاجها الفن البصري كي يصل إلى ما وصلت اليه أنتِ بالوراثة، والحقَ الفطري في الجمال والإثارة والغواية.

ففي مداخل الشعر تبدأ مدارس الفن وتنتهي، وعلى أدراجها الواطئة يجلس الفنانون. من فناني مصر القديمة. واليونان والرومان إلى عصر النهضة وما بعد الحداثة.

أُشاهد "زوكسيس "حائراً متردداً في اختيار ألوانه، ويحملق "فيدياس" في سماء رأسه، باحثاً عن الحل الأمثل لمعضلة معمارية.

أقابل "دالي" ممسكاً بشاربه المعقوف يبكي، و"بيكاسو" يدخن الغليون ويتأمل تاريخه الحافل بالأخفاقات العاطفية مع النساء.

"فان جوج" – الحزين أبداً– يهدي أذنه لإمراة، لا يقل وجهها دمامة عن وجهه. فقط، لأنها أطرت أذنه ذات يوم.

أحادث "كاندنسكي"، و"مونك"، و" مانيه" وأطبب حيرتهم ودهشتهم من الوقت ومنك.

.. ها هو "بلزاك" الحزين يتعثر في البحث عن اسم لإحدى بطلات قصصه التي عشقها بعد أن خلقها.

و"دوستويفسكي" المعلول مخموراً في شوارع "بيترسبيرغ " يبحث عن حبيبته التي تصغره بنصف عمره، وقد سلبته محفظته ومذكرته المحشوة بالأفكار ومشاريع الروايات.

أرى "همنجوي". يطلق النار على رأسه. احتفاءاً بموعد ضربته له الممرضة التي أحبها في روايته "وداعاً للسلاح".

أقرأ تاريخ المعذبين في الأرض كلهم. وأرى انعكاس صورتك في دمع عيونهم.

يطالعني فرويد بمكر عينيه. يلوح باشارة "لا" فلم تنفع معك أبحاثه في الشعور واللاشعور.

أنت لا تفلح البحوث كلها في صياغة معادلة واحدة عن تبدل لون عينيك في المواسم والحفلات، قبل النوم وفي أعقاب انقضاء الشهوة وبعد فوات موعد الحيض.

قابلتهم كلهم. يشتاقون إليك، ويلعنونك في سرهم..

أواصل التدليك في الأماكن الأخرى العزيزة. وأغمض عيني عن تاريخها، أتأمل شقائي. وسرّ خلق الله لكِ.

يتكرر مشهد حمام الصباح كل يوم. وفي كل يوم، أقرأ التاريخ مرة أخرى. يزداد جهلي في النساء كلما أمعنت في الفهم.

"ألا تخجلين من ذاكرتك المحشوة عن آخرها بالصور ؟"

(7)

_" ***تبدو أكبر من سنِك*** "

قالت، وهي تلتهم وجهي وطرفها المؤطر بنظارة ثرية يسافر في مساحات رأسي الأجرد.

كانت تعلم عدد السنين والحساب، وتعلم أثر السم على جسدي، وفي طيات جبيني. تتخلي عني وعن مسؤولياتها كلها لتمضي بعناد قامتها، كأن شيئاً لم يكن.

لم أعِر كلماتها الأخيرة أي اهتمام، فوحدي يعلم عدد الأيام ولونها الكالح. وصرير الساعات الكثيرة وهي تحز عظمي.

كان كلانا يقرأ السنوات العشرين التي ماتت منا. فكلانا تعثرت حياته، وانتهينا من حيث بدأ الآخرون.

كان حوارنا بطيئاً مقتضباً وساذجاً مقارنةً بما يعتمل في الذاكرة، كنا كمن يلملم أجزاءَه المبعثرة ببطء متعمد.

في لقاء صدفة لم يقصدها، وإن تمناها.

فهذا اللقاء، تمنيته في سريرتي لعشرين سنةً مضت، وتحاشيته لعشرين سنة أخرى، لكنه هذه المرة كان عفوياً وصاخباً.

بالأمس، جاء صوتها عبر الهاتف، بنبرة محايدة لها لمعان المعادن في الشمس.

– ***"أستاذ... ممكن اتشرفنا في الغد الساعة العاشرة صباحاً"***

وأملت عجلى، عنوانها..

ها هو اللقاء يأتي فجأه دون سابق بعث ولا حساب..

وها أنا أمام نفسي مرة أخرى.

كنتُ معها كمن يمشي على نصل سكين.

لم نتواعد، لم نتحدث عن أشيائنا، لكن شيئاً ما، عاد لينمو في قلبي. شيء أعرفه تماماً، كنت قد دفنته هناك لكنه عاد فجأة كسيل صحراوي مفاجيء.

تجرجر الأيام أذيالها بتثاقل. تمر سنوات بطولها، دون أن تترك في ذاكرتك أيَّة أثر لها. تمر ساعة عمر، وتعيش فيها عمراً مكتمل الرجولة.

يعتصرك الوقت، كأنك مسحوق سرّي أعدته اللآلهة للقاء عاشقين تواعدا اللُّقيا في السماء.

كان المكان يتفصد وجعاً في كل لحظة يعبر بها. وتتصدع جدران الذاكرة عن صور وأرقام وألوان تشبهها، نامت قريرة العين، تقهقه مني وتسخر بها. كنت أخشى إنهيارها الفجائي، جارفةً كل شيء معها. كنتُ أعلم أن انهيارها قادم، فأنا اعتدت الإنهيارت الثلجية، وشهدت تبديل الأرض لجلدها دون خجل. أما التفاصيل الهامة الصغيرة تبقى من اختصاص القدر.

تصهرنا أحزاننا وأشواقنا القديمة.

يأتي الشوق، يزحف على قلبه، يبرأ من نفسه، تجادله الأحلام.
يُمعنُ في النكران ويمضي، يمضي ممعناً في إسرافه وعناده القديم.

وللزمن معنا أشواق أخرى وعتاب قديم. وثأر مضى عليه ألفاً ويزيد من السنين.

يصهرنا زماننا وزمان الأخرين..

صهرتنا معاً، دون أن يأتي اللقاء القديم، صهرتنا معاً، وأصبح كلانا وجهاً آخراً للوطن.

ترى هل كان ذلك من فعلنا، من وقتنا، من عيش أبداننا.

من ساعات نومنا وسهاد أجفاننا.

ترى، هل سيخضب الوطن، جبينه بنا ويحنّي قدميه وأطرافَ أصابع يديه، بالتراب المجبول بحبات العرق المهروقة منا..

كان قدراً أحمراً، كان خبزاً أبيضاً لاكته أفواهنا وعجناه بماء العيون..

وأشياء أخرى بلون النرجس وطعم الزعتر، وهشاشه زهر اللّوز في آذار.

بهشاشة حبنا. وترقق عظام الوّد فيما بيننا، ووعد عشناه لسبب لا نعرفه نحن، بعبث الصغار وصمت العجائز الماكر.

مضت سنوات كثيرة كالمطر، بعدد الشموس والأقمار التي أشرقت وغابت. بعدد الرمل والحصى، وطعم التراب المجبول بقطرات الجبين.

ها هو الوطن يأتي، فجأة بكله. بشطره الباقي مني، برائحته القديمة، وعبقه المتأصل في تفاصيلنا.

أتلمس أطراف شوارعه، حاراته الموغلة في صمتها، ومن على أرصفته البعيدة. أتحسس الأصوات التي عبرت والصور التي مرت، وذكريات الزمن الذي مات مني، وأبقاها حية يجرحها هواء المكان، ويعذبها نداء الصلاة في اليوم والليلة خمس مرات.

وها هي تأتي بكلها، برائحتها، وعبق حضورها، بصمتها، بأنفها الأمبراطوري الجميل، بصفائها بنقائها، بألوانها، بشوقها. تأتي كما يأتي ريح الصباح محمل بالياسمين وتواطىء الليل على عذريته.

تأتي في غير موعدها، مضمخة بي وباللحظات القليلة التي بقيت منها، وبقيتُ أجترها كالجمال في الصحراء الشاسعة الممتدة بيننا.

لعشرين سنة مضت مني، وعشرين أخرى مضت منها.

أعتاش خلالها على أهدابها الكسلى، على أطرافها السفلى، على بقايا الدم واللحم المتعفن مني ومن ذاكرتها.

أغمضُ عيني وألتهم البقايا. وفي الصباح أتقيؤها مرة أخرى. ألبسُ قناعي الصناعي التي صاغته لي من اللحم والتراب وبقايا فتاتها.

ألبسُ قناعي السري وألبسُ معه باروكة الشعر المستعار اللامع. أطلي جسدي بالقار، وشفتاي بألوانها التي تحبها ولا تشبهني، أسَرِّح شعري المستعار، وأمضي نهاري أرسم الإبتسامات.

أتسكع على المساحات المقفرة من ذاكرتي.

أجهد في أوقات فراغي برسم صورة زيتية لك.

تحاكي قسوتك. في نشر الثورة التي ستغير وجه الأرض وفي تقديم البراهين تلو البراهين على صلاح النظرية.

في الخفاء تختلف الصورة وتستحيل الأفعال إلى مشاهد كرتونية هابطة. ففي الخفاء لك عالمك الغامض الذي لا يعرفه أحد سواك، وأفعال تقترفها جوارحك في حضرة العتمة.

أمعن في نكران ذاكرتي من أفعالك. وأواصل رسم الصورة في مخيلتي، أتنقل بين أدوات الرسم.

أجرِّب حرفية الخطوات التي تعلمتها في لحظات الصمت وأوقات الإنتظار الطويل. وأنا أجلس أمامك وأنت ترسمينني عاري الساقين والذاكرة.

أجرب معك تقنيات التعبير كلها.

أرسمك بالألوان المائية الشفافة كشفافية عذريتك الباقية في ذاكرتي الحية.

أرسم تضاريسك الموغلة في قدمها بألوان الفحم، ولشفتيك القرمزيتين أذبت على حرارة قلبي ألوان الشمع.

أحفر لك صورة بالزجاج المعشق، المتيم بتفاصيلك كلها.
أصنع لك صورة نصفية بحجم الجدار بالأسود والأبيض،
تبدين فيها أكثر جمالاً وقـــتلاً.
وأبدو أنا إلى جوار حزني صغيراً وبلا إرادة.

أحاول أن أصنع لك لوحة بألوان التمبرا، ولا أجد الماء في حظيرتك لمزجها، فأمزجها بماء عيوني.

وفي أوقات الفراغ الباقي، أرسمك بألوان الفحم، أرسم وأهرس مساحات الظلال الداكنة الساكنة فيك بإبهامي. أنَقّلُ بصري بينك وبين مساحات البياض، أعيش الفوارق كلها. أتوه بين أحلامي وأقاوم نسيان ذاكرتي.

أنت الذاكرة التي ماتت مرة، وجهدت لأكثر من عشرين عاماً في استردادها.

ذات مرة، هزّني شوقي. استفقت في الصباح، تناولت قهوتي على شرفة وجعي، وشوقي القديم إلى تفاصيلك كلها.

أحسست لأول مرة أنني بقامة أنجلو.. أستطيع أن أصنع لك تمثالاً من المرمر الأبيض. كتمثال " داوود".

ولأزيد من عناد قلبي لقلبي، بدأت بتعريتك من جلدك. اكتريت الأدوات كلها، وفي باخرة عابرة أحضرت الرخام الأسود كسواد قلبك أنتِ، وبدأت العمل والهجران..

استقلت على إثر ذلك من وظيفتي المملة في تدريس الأولاد قواعد السلوك وغيرت مهنتي في جواز السفر، من "مدرس" الي "عاشق" يعاند البقاء، ويحمل في دمه أسئلة أبدية لا تنتهي.

عن الموت والحياة، وسفر الطيور ولقاء الجبال.

عن الزرع والنضج، عن القتل والغدر. عن أحلامنا اللَّيلة التي تطرق رؤوسنا برغمنا ولا نجد لها تفسيراً يقنعنا.

عن أعمارنا وأقواتنا، عن عدد أصابع أقدامنا واستدارة رؤوسنا..

عن الليل والنهار، والبقاء والهجران.

عن الحب، عن القتل البطيء الذي لا نعلم متى يأتي ومتى يتغير لونه.

عن ألوان بشرتنا، عن أطفالنا ونسائنا. عن أوطاننا ولغاتنا، عن خروجنا المهين. وعن جدي الحزين.

عن الإنتظار وقتل الوقت، عن الصباحات التي تخلَّفتِ أنتِ فيها عن مواعيدك والمساءآت التي لم تأت بها. وجاء زائر غريب عوضاً عنك.

بصلف، طَرقَ الباب المُصنح بذكرياتنا، دون أن يأبه لرقاد قيلولة العصر أو الفجر المضرج بأنفاس النائمين.

في الحالات كلها لم نكن مستعدين للطارق الجديد.

أشياء البيت في فوضى، وتتطلب بعض الوقت كي تعيد إلى أرجاء البيت بعض النضارة، وربما لتضفي على المنزل خصوصيته.

يمضي بموضوعيته الإسمنتية في تعداد غرف البيت، الكتب وأدوات المطبخ. ويبدأ في تقديم تقريره العمري لك ولأفعالك كلها.

تسأله أنْ يَمنحكَ بعضَ الوقتِ كيْ تُزيل القذارة. أو تحلق ذقنك لإستقبال الحفلة الليلية.

لا يلتفت إليك. يداهمك كما أنت، بديونك، بخلافاتك الصغيرة مع الأولاد والزوجة على عدد الأطباق وترتيب الطاولة وربما فرشاة الأسنان الخاصة، والعطر الذي اعتدت أن تقتل رائحتك فيه..

اسأله مجدداً عن المصادفات القاتلة، واللقاءات العابرة..

عن سِرّ خلق الجمال، عن القبحِ والنُصحِ والإيمان والكفر وقبلاً، عنكِ انتِ.

وأسئلة أخرى لها وجودية عينيك.

استقلت من وظيفتي التقليدية، وامتهنتُ التّسول في الطرقات، وعند إشارات المرور. وبين الأشجار الطويلة غير المثمرة، وخلف الزوايا المظللة بالحيرة.

أُسائِل العابرين والسائرين بأزيائهم المختلفة، وأعمارهم التي تجرجر من خلفهم.

أُسائِل المجانين والكفار والمنافقين.

استقلت من المهن كلّها وبدأت سيري في فهمك انتِ..

لا أرجو المزيد..

بعد أنِ حلقت شاربي، متخلصاً من آخر مظاهر الرجولة الباقية، عدتُ وأطلقتُ لحيتي وشاربي، فلم أعد أحتمل طقوس المواجهة الذاتية في كل صباح. أجلس إلى المرآة لأقرأ العناوين العريضة لذاكرتي القديمة المتجددة، لأُزيل ما أنتجه وجهي من الشعر، وأرقب التحول بين اللونين الأبيض والأسود في شعري.

وبدأت سيري الأبدي نحو النهاية.

أنام في الشوارع الممتدة بين أزقة أوطاننا المتربة.

أستحم بماء المطر. أتعاطي الدخان الرخيص، وآكل من فتات المارة ثلاثين وجبة في اليوم.

ألبسُ أثواباً غير مخيطة.

أستوقف المارة، وأنادي بأعلى صوتي.

يحوقل المارة، وأحيانا يلقون لي ببعض متاعهم.

أرسمُ على صفحة وجهي التعابير اللازمة لإستنطاق المارة، فلربما أصل يوماً إلى السّر في خلق البشر.

دربتُ نفسي على اليقظة، على الصبر والجوع. وتعلمت منها، أن التسكع على أرصفة الوجود يزيدني ألقاً وفهماً. وكلما استكنت لفهم معضلة زادني فهمي جهلاً.

علمتني أرصفتك المرصوفة بمربعات شطرنجية تتبادل الألوان كما يتبادل الأزواج القبل والسباب والضرب، وشراء الهدايا الرخيصة في الأعياد وعقب كل مضاجعة أو ولادة. علمتني أن حياتي كموتي. لا يحتاج إلى شهادة ميلاد توثق خساراته المتراكمة.

أنا لا اشتاق إلى حياتي القديمة. وأرمق الوقت الذي تسرب من بين أصابعي بأطراف عيوني.

أين تأخذني أحلامي.

كنت أتشدق بالوعظ وتقديم الهدايا الذهنية على موائد الياسمين.

أتسائل عن عثرات قلبي وزهده القديم.

ترى هل استحالت الدنيا بعدك إلى ضجيج. إلى ركام طائرة هشمها الشوق، وضلت الطريق.

سيأتي الموت، وتبدأ أسئلتي من جديد. عنك وعن الخروج المهين. عن خلق الأنسان، عن الموت والحياة والبعث والغفران، عن ناكر ونكير وعذاب القبر، عن النار والجنة وبقايا الأعمال الصالحة المُدَخرة إلى يوم القيامة.

اتسكع على المساحات المتاحة كلها، أرسم الإبتسامات، وأضحك من كل قلبي عليها.

وتمارس هي البعد والهجران. وأقتات أنا على الصور.

كلما بهتت صورة، استخرجت أخرى، من النسخة الأصلية التي احتفضت بها في ذاكرتي الإفتراضية.

أمّا الآن وقد عدت إلى ذاكرتي الأولى. وأطلقتُ الرصاص على رأس الغربة الممزوجة بالخبز والجبن. بإمكاني أن أفتخر بجهلي الجميل وقبحي الرائع. بإمكاني أن ابدأ مرةً أخرى حياة أخرى بدم جديد، وأتعلم الأبجدية مرة أخرى من جديد.

سأجالس الأطفال. وأتعلم منهم صبرهم علينا، وعنادهم الجميل. سأتعلم من جديد، كيف يصيغون أسئلتهم غير الجاهزة عن الرب والحب والموت. وسأتعلم شوقهم ولهفتهم في كل مرة يدخلون تجربة عشق جديدة مع حرف جديد.

سأتعلم الألف والياء.

سأتعلم، أن الألف يا سيدتي تأتي على أشكال عدة، لها عرف عاداتك المتغيرة، لها شكل في بداية الحب وآخر في وسطه، ولآخره

أعددتِ نهايات على قياس غوايتك. أمّا الياء فليس لها سوى شكل واحد مستقل عن سطوة عينيك.

سأتعمل أساليب الحساب كلها من البداية، بإستثناء الضرب والقسمة والطرح...

وأتقن العزف على الأرقام السرية لقلبك.

برغم يقيني أنني المخبول الأبدي، الذي يعيد السقوط مرات ومرات في الأخطاء نفسها. لن أُتقنَ العَروض، ولا الحساب ولا تأثير النجوم على مواسم الفرح .

أعلم أنني فقدت عذريتي فيك. وأنكِ فقدتِ عذرية الوقت القديم. لا يَهمك حسابُ السنين. والسير في الطرقات على مهل دون أن تلتفتي إلى الوراء.

أصبحتِ أكثرَ التزاماً مني، ومن عقارب الساعة.

وأعلم أنني لن أغيرك فجأة. وأنني لن أجدك كما تركتك هناك، تحت شجرة اللّوز المُر مربوطة اليدين معرية الساقين، مكشوفة الوجة. يتنقل الذبات على سطوح جراحك الطفيفة يلعق حلاوة دمك، ويشتم فيه رائحتي.

ذات يوم، جئت للقاء أعده القدر بيننا، كنتِ ترتجفين على الطرفِ الآخر لمعادلة الوقت الغريبة.

كنتِ أنتِ ولستِ أنتِ..

كان صوتك له لون بنفسجي لوثه مطر الصيف. ولوجهك مسامات شاهدتها عبر سماعة الهاتف، شققها الجفاف والغياب المتكرر عن لقاء القمر.

تواعدنا.

ولم تأتي .

جاء بدلاً منك قدر غريب يحمل في ذاكرته اضطهاد النساء منذ الآف السنين.

وفي يده، مطرقة أسطورية، لها رؤوس مدببة ممتلئة بالقروح الجلدية.

أطاح بها على صدري، فانفجر البكاء. تقرَّحت ذاكرتي، غبتُ في الذكرى وكان الآخر يقهقه بملىء فيه ويشربُ نخبَ دمي. ازددتُ حكمة وقتها. وبدأتُ أعالج آثار القروح الباقية على جسدي.

كنتِ أنتَ حينئذن. تجترين الذكرى.

تمسحين مرآتك في كل صباح، بسائل سحري يمنع الذاكرة من عبور المناطق العسكرية المغلقة. فأنتِ تملكين مقدرة غريبة في تأثيث الذاكرة من جديد، كلَّما تداعت جدرانها وبهتت لونها..

ولك ذوق خاص في انتقاء الألوان والأشكال لا تقتله الرتابة. وفي كل مرة تملكين المواهب كلها لتغيير ألوانك من الألف إلى الياء، دون أن تقعي في التكرار..

أما أنا.

فأنا قصة أخرى، ورمز آخر من رموز الحياة المعقدة التركيب والتشكيل والفهم والبقاء..

سأحتاج إلى سنة ضوئية ربما من الحضارة والعند وحب الذات. كي أعيد تأثيث ذاكرتي التي صرخت صرختها الأولى وكانت ممتلئة بالخروج والبثور والقروح. يعلوها صديد الحرب وصليل

السيوف، وبطاقة لجوئي، وثيابي المتربة وأثار قديمة لجرح غائر في صفحة وجهي، من أثر معركة قديمة لا معنى لها. الجرح الغائر يا سيدتي كان "علامتي الفارقة" كما كنتِ ترددين دائماً.

تمسحين بأطراف أناملك الساخنة علي سطحه الجاف، تقبّلينه بأطراف شفتيك في الفضاء دون أن تلمسينه، خشية أن يتفتق الدم القديم وتفوح الرائحة.

هذا الجرح كان قبلاً مثار فخري، وهو اليوم عنوان لعار قديم.

أقف وقفة العسكر في الصف الطويل كليل شتوي، ممسكاً باللّعنة في يدي، أرتجف من نَزق الموظف مترب الوجه منزوع الرحمة مهصور الحياء، يطلق رذاذ فمه في الأتجاهات كلها، ويلعن الجميع دون سبب.

خرجتُ بورقة ممهورة بأسماء غير الأموات الباقين، تعترف بهم وأنا منهم، كلاجيء عبر حدود الوقت قبل أن يحين الوقت اللازم للعبور.

تقّطعت بهم السبل، يقفزون بين الساعات والحقول. يتأملون الحيرة في التفاصيل، يبحثون ربما عن بقايا قليلة من الخبز الأسمر، لاكته أفواههم، ولم تتقيئه أجسادهم بعد.

أحمل في قلبي لعنة، وفي يدي بطاقة تذكرني في خواتيم المواسم وابتداء الشهور، في الأصباح والأماسي، أنني أنا من عبر الحدود ولكن بالأتجاه الخاطيء تماماً، وأنني أنا من اختار البقاء بين الهياكل، هرباً من مواجهة نفسه ومن الوطن.

سأحتاج إلى مليون عام من الحضارة، كي أتقن فن إنتقاء الألوان وتغيير صبغة شعرك كما تتقنين. التقلب بين الساعات دون وجل، والسير بالإتجاهات المعاكسة كلها. للبحث في ثنايا الذاكرة عن وعد قديم تجترين تفاصيله لقتل الوقت المتبقي للموعد القادم ..

أنا عكسكِ تماماً. لا أتقن فن تأثيث الذاكرة بالألوان الجديدة، ولا أعرف يا سيدتي كيف تملكين هذه الجرأة في اقتحام مملكة الألوان. وفي اختيار اللون المناسب للوقت المناسب، ولا أعرف كيف حصلتِ على المهارات اللازمة لإعادة إنتاج ألوانك من جديد كل مرة، دون أن تصابي بالأرق.

أنا عكسك تماما. أحتار إذا قابلني أكثر من لون في اليوم الواحد، وأتردد بينهما ولا أُحسن الإختيار. أُصاب بالحيرة المزمنة إذا قابلتني ساعة انتظار عابرة بين الأيام. أرتبك من عبورها بين ثنايا الزمن. أتردد، أرتعش، وأصاب أحياناً بالزكام.

فأنا يا سيدتي أنتظر هنا منذ قديم الزمان، وربما قبل حساب السنين. مللت انعتاق الأيام، وكرهت الشروق والعبور والمغيب، مللت انتصاف النهار، ويوم الجمعة يصيبني بالكآبة المزمنة. أما الأعياد فهي يا سيدتي مناسبات للقتل الرحيم. وأواخر الأشهر القمرية أوقات للحزن المتزامن مع المد والجزر وحساب النجوم. أما الأشهر الميلادية فهي مناسبات لإنتظار الأرزاق التي تأتي من شتى أنحاء الأرض لتطعم الأفواه المشرعة بأسنانها الخربة.

أبحث في مخيلتي عن المهارات اللازمة في قتل الوقت. فلا أجد سوى إرتباكي، وصمتي الذي يزيدني وجلاً وخجلاً في مواطن الزحام.

"هولاكو" القديم، سار في الدرب عينه الذي سار فيه الغزاة، وأشهر سيف الغزو في وجه السلطان العباسي.

وبدأتْ بغداد، كعادتها، تستحم بدماء أبنائها.

ونائحة في قلب كل من يسكن أوطاننا المتربة بالحزن، المشبعة بالأنتظار، فمدننا كلها بغداد؛ في دمها ونوحها ووجعها ساعة توديع الشهداء.

ولكلٍّ زمان، "هولاكو" جديد، ولكل مكان رمز وشهيد.. يأتي مشهراً سيفه وكسل عينيه، ليعيد تأثيث خارطة الزمان بالوان جديدة، تحمل الأحمر في ثناياها.

عقب كل انتصار، وفي كل مدينة يدوسها بقدميه الثقيلتين يعيد تأثيث الخارطة من جديد. ويملك ما تملكين الألوان الحارة والرغبة في التجديد. والبدأ في كل مرة، من جديد.

أنت لك من "هولاكو" الكثير من المزايا. ويجمعك فيه كسل عينيه قبل الإستحمام، وفي أثر كل معركة، يسقط فيها ضحاياك، مضرجين متيمين. ترتسم على وجهك مثله تماماً ابتسامة صفراء مات ألقها قبل الولادة.

ولك من الورد شوكه، ورائحته. ومن لا يعرف الورد لا يعرفك. ولا يميز بين حمرة الدم وتضرج خديك.

أطمئني، ولا تخافي انتقامي.

ها أنا عدت الآن، وقد عبرتُ الأربعين.

لا تخافي مني، وحق لك أن لا تخافي.

غجرية عذراء، أبقت على بكارتها لفارس يطرق الأرض يفتح الحصون الباقية من آثار حروب الفرنجة. له استقامة عمر وقامة صلاح الدين، وله زهد وتقوى الصالحين.

الغجرية صافية الذهن، فائقة الحزن. سألت أمها عن سِرّ الرجال، وخون الرجال وصدق الرجال.

تضحك أمها. ويرتسم في عينيها صور من عبروا جسدها إلى الضفة الأخرى.

تهز رأسها بتثاقل، وتزهد في الأجابة.

فللرجال دين واحد، وشيخ واحد، ولون دمهم ليس أحمراً.

ينامون كالأطفال على صدر الوقت، يشربون الشاي المخفف بالحليب، يعشقون الحلوى والسهر على جسد الذكرى، ينامون ممتلئي البطون والأوداج، يحلمون بلقاء الغد القريب، لا يحبون الموسيقى، وتقتلهم أشواقهم إلى دله النساء السخيف، إذا ماتوا تدفن جثثهم بين الآلات الموسيقية المعطوبة.

.. لم تجبها أمها.

ألحّت فائقة الحسن صافية الذهن. وقد ظنّت أنّ للرجال أسراراً تخفيها أمها بين السنين. أو أنْ فَم الرجولة يفوحُ بزهر الحب المخبوء في باطن الأرض. وقد ظنّت أن الرجال كل الرجال بقامة صلاح الدين.

قالت الأم لأبنتها، وقد علت وجهها إبتسامة ممزوجة برائحة عرق الرجال كل الرجال، الذين قابلتهم في الأرض وفوق السرير.

قالت :

_"لا تأمني الرجال دون الأربعين وفوق الخامسة والعشرين، فهم بعد الأربعين يخافون الله، وفوق الخامسة والعشرين يخافون زوجاتهم..."

وأنا يا سيدتي تجاوزت الأربعين بأربعين. خط الشيب ظهري وبدأت أنام مبكراً وأصحو على نداء الصباح للصلاة.

ما خفت زوجتي لا قبل الأربعين ولا أقل من ذلك ولا أكثر، وبقيت أضاجع الوقت فيها. أنام على جنبي الأيمن وأمارس المكان والزمن الذي لا يعبرها.

أنجبت مني ولم أنجب منها، افترقنا وحسن فراقنا.

كانت صورتك ساكنةً فيها.

أجالسك فيها. نحتسي القهوة معاً.

نشرب الشاي المعتق بالتفاصيل الغائبة.

يقتلني غيابك. ويقتلها حضورك.

ونمارس الحب والأكل والغدو والمشي دون رغبه. تنام الأحزان فينا متدثرة بأحلام رؤوسنا. نصحوا على أصوات ثقيلة، تطرق جباهنا. صخب المكان وحركة السيارات في الشوارع الصغيرة تنعش ذاكرة البعد والهجر والحنين إلى الأوطان، ولا أوطان إلا التي يسكنها عطرك النفّاذ.

كانت هي، من ذوات الرؤوس المفلطحة الخالية من ذاكرة المكان. تجدد عشاقها دون أن تجهد عضلات عواطفها المصابة بكسل دهري.

تكره الموسيقى، وتحب أن تبيت ممتلئة المعدة. ولها عادات أهل الكهوف في النوم والصحو وطهو الطعام، وإعداد نفسها للحمام. وكان لها شعر الخراف.

أنا لا أقارنك بها...

لا تخافي من تلصصي على الأثر الذي تركه الزمان على جسدك المترب، المسكون بالتعب والعتب من الرحلة القديمة.

فالفوارق بيننا يا سيدتي أكبر من الزمن وأبعد من النجوم.

كنتِ تعدين نفسك لوجبة العشاء التي يتلوها التقاء الذكر بالأنثى لأنجاب الحنين.

لكنك تنسين كعاداتك القديمة، إلحاح ذاكرتك، وتتركينها على قارعة الطريق تستجدي المارة كي يرشدوها إلى المنزل التي درجت فيه أولى خطواتها.

تنقصك المهارات اللاّزمة لمسح سطح الذاكرة الهرمة بالمطهر، وملأ جروحها بالأحداث الصغيرة العابرة.

وتتقنين استخدام كريمات الأساس لترميم غرائزك وأحاسيك الملطخة بماضيها القديم.

تُخفين سواد قلبك بعينيك المؤطرتين بالثراء. تخافين ان تُكسف الإبتسامة، أو يخسف الألق الساكن في البعد الثالث لعينيك.

عينيكِ أنت ؟؟..

بهما استوطنتِ الديار ولأجلهما قتل الأخ أخاه.

بهديهما سار السائرون إلى مواطن الخوف المجبول بالرغبة. ولأجلهما، قامت الدنيا، وأعددنا العدَّة لغزو الجوار وإذلال العشيرة وجلب السبايا.

بهما، أُطلقت صافرة الإنذار لبدء الحروب كلِّها. وبهما اثيرت غرائز الرجال، للإقتحام والإقدام، كي يظفر المنتصرون بالبسمة، والمهزومون بالدمعة..

بهما يا سيدتي. اشتعلت الحروب كلها، وابتدأ الخلاف بين قابيل وهابيل، وبهديهما سافر الإسكندر إلى بلاد فارس غازياً، وقاتل إحمس الهكسوس. وبهما ولأجلهما أنا أُقاتل.

في المفاوضات القاسية المملة، عندما لا يملك الخصم المعتدي، الحجج الكافية لتحقيق النصر، تأتي حجتك الدامغة، فتذهل الحضور. وتسيل أقلام المهزومين بك.

وهما العينان، عينهما. تحملقان في الظلمة تسائلان الوجود عن سر التعب، وسر الألم، وهجر الأحباب.

وها أنت تؤطرين نوافذ الروح القديمة، بإطار أسود يمنعهما من التنفس بعمق، وتؤطرين وجهك بالغموض والحيرة.

وتترنحين على الوجع كسلى، ولك إحساس المغيب.

كنت أكثر بياضاً مني ومن الثلج. وبعتِ قلبكِ فجأة للعابرين.

كم كان الثمن ؟؟

كان مهرك دمي المسفوح.

وأعددت أنتِ المائدة وجلستِ تحتسينَ الشاي الأخضر بدون سكر كعادتك، وتمعنين في قتل بصيلات شعر ساقيك البلوريتين.

أمثالك لها طقوس خاصه في شرب الشاي الخالي من الحلاوة.

أنت لا تحتاجين إلى حياء النساء، وذاكرتك كالمرآة يا سيدتي، لا تحمل الصور، تعكسها ولا تحملها.

ترى.. كم سأحتاج من السنوات الضوئية في السير حافي القدمين، أحملق في خارطك الجينية لأصل إليك.

كي أفهم سِرّ غبطتك الغامضة في الجلوس إلى خبراء نزع الشعر بالليزر مُشرعة الروح والساقين.

أنتِ امرأة اعتادت ترميم الجدران والردهات القديمة لقلبها في كل سنة مرتين، وترمم بشرتها في فصل الخريف، قبل مواعيد لقائها وولادتها، في الأعياد والمناسبات كلها، وتزيل شيب شعرها وشذرات ذاكرتها بالمراهم والأصباغ.

وأنا المريض بأخلاقك هذه. المتيم بتفاصيلك الشاذة. ألهوبالعابي الصغيرة، ويفصلني عن حضارتك سنوات ضوئية.

مريض أنا بك. ومسكين حتى الثمالة.

سأحتاج ربما إلى السنين كلها من الحضارة، كي أفهم جزئية صغيرة تمارسينها بدعابة الأطفال. وبرائة سقوط أوراق الشجر في تشرين.

مليون عام من القسوة والأعمال الشاقة والحبس الإنفرادي أحتاجها ربما، كي أفهم جزئياتك الصغيرة وما أكثرها.

أعيش تاريخك، وعلومك. وأدرس الطبقات السفلى لعقلك الباطن المؤثث بالرغبة، والتمنع، والدهشة، والضحك والإبتسام في المناسبات كلها. لأقرأ التضاريس والأحوال الجوية المتغيرة في كل لحظة، لجسدك المُمد كتمثال أسطوري تتسع جغرافيته لتتجاوز حدود التاريخ المكتوب.

سأحتاج لأنقضاء عصر جيولوجي آخر كي اقرأ التضاريس الجيولوجية لمواطن الرغبة ومواطن الألم، ومواطنك التي تمتزج فيها الرغبة بالألم.

وأنا الجاهل الأبدي بك، كلما اطمأنت نفسي إلى فهم جديد. تغيرت الأحوال الجوية لديك، وتغيرت قسماتك المحببة إلى قلبي، ورسمت تضاريس جديدة تبتكرينها في كل مرة تتناسب مع جهلي بك. فأبدو أبلهاً، باهتا لا أعرف شيئاً من تضاريس النساء، ولا المعالم الأثرية القديمة لأجسادهن، على إختلاف الأعمار والأسماء والأطوال. وإمتلاء الصدور ودقة الحواجب.

أنا يا سيدتي، كلما فرحت بفهمي المتواضع، وبأنني طويت صفحة جديدة من تاريخ النساء. تنبت لي حادثة عجيبة، فكرة غريبة، ابتسامة لماحة، تجبرني على إعادة القراءة والتسميع. ومراجعة الأبجدية وقواعد البيان، وبقيت لأجل ذلك متأخراً عن حضارتك قرابة مليون عام..

أنا الآن في العصر "النيوليتيكي" وأنت يا لحسرتي تنعمين في التكنولوجيا المتطورة، تتحدث بالهاتف النقال كيفما تريدين، ووقتما

تشائين. وبقيت أنا، بثيابي البدائية الرثة المصنوعة من جلد النساء القديم، ألهث وراءك حاملاً عصا الصيد، ومفتاح البيت، ومرآتك الصغيرة الأثيرة لديك.

الهثُ خلفكِ، أتسقط فتات حديثك، ونبرة صوتك ولون ضحكاتك، أقرأ موعداً تضربينه في السوق أو عند الطبيب أو خلف شجرة السرو في الحديقة المقابلة لجرحي. الَمْلِمُ أطراف الحديث، أتسقَّط بعض الرموز القديمة، أُحاول توظيف مهاراتي كلها في التورية اللفظية، أو لغة الأشارة ولغة الجسد في التعبير والتعتيم وضرب المواعيد من خلف الزجاج الأسود.

أُحاول أن أتسقط بعض الحروف والكلمات الخاصة التي تنطقينها، ولا أتعلمها البته، فأنت تُغيِّرين حروفك وأبجديتك ولغتك وإشاراتك بتغير الفصول، وأبقى أنا اتلعثم بحروفي الأولى وأرفل في جهلي القديم بك.

أتعثر ببدائيتي مقابل أسباب الحضارة التي تدَّعين..

تضربين المواعيد الكاذبة، تواعدين أكثر من مكان في الزمان الواحد. ولا تذهبين، أو تذهبين إلى حيث لا يتوقع منطق الأشياء منك، تنتشين وتزهين. ويقبى الطرف الآخر للموعد المضروب ينتظر عبورك بين أزقة الساعات. ينتظر ساعة ويواعد ساعة أخرى ولا تأتين، لا تأبهين للوجوه القاتمة ولا لأصحاب التيجان المنهارة عند أطراف أصابع قدميك العاريتين من الحياء..

شتان بيني وبينك..

ومنحتِ نفسك لغيري..

... ووهبت عذرية الجغرافيا النائمة لسلطان كسول، ورث الأمارة والمُلك عن أبيه، دون أن يخوضَ حرباً، أو مبارزة تثبت الجدارة.

كان يجب أن أحضرُ حفل العشاء السابق للّقاء. أن نقف متقابلين كي نختبرك فينا، تعتلين صدر المقتول، وتغتسلين بدمه لليلة العمر الفارغة من الشوق.

كان يجب أن تمنحيني الرغبة الأخيرة في إثبات جدارتي بك. أن أبارزه بالسيف أو الشِعر. والسير حافي القديمن على النار المتقدة بالنشوة والشوق، بالإستعداد الكامل للموت على فواصل الوقت التي تسبق العصيان. بالسهر على ساعات الليل الملونة بالشوق، التي تتلو عودة الشهداء بالنصر.

أن تمنحينني فرصة واحدة، لأقول كلماتي الأخيرة. لألفظ أنفاسي القليلة، لأبحر للمرة الأخيرة في المياه المقابلة لليل الغربة والمخيم. وبقايا ذكريات تخثرت منذ زمن بعيد مصفحة بصور الخروج اللعين، وصور أخرى لانتظار الوقت كي يمضي حتى يحين المغيب. أو ربما شروق يوم آخر جديد، دون أن يأتي هذا العصر الجليدي القديم السابق لرغباتنا الغامضة.

أن تمنحينني هامشاً للذكرى. سكينا تنكأ الجراح، تراباً من ملح الأرض. قبل أن يمضي كلاً بخيبته وقدره إلى مساره الأخير.

أن تمنحينني فرصة لإثبات فروسيتي الضائعة بعدك.

وجاءت لحظة الحسم الأخيرة.

انتظرت شوقك أنتِ. وانتظرت اختبار الوقت لأثبت الجدارة او أحصل على الإمارة. لكن أشيائك يا سيدتي معدّة مسبقاً، ورثتِ أنت تفاصيلها منذ عصر الإقطاع والبرجوازيات الصغيرة.

كلماتك القليلة كانت معدّة مسبقاً، ومعلبة كالسردين، تستخرجينها وقت الحاجة. تكفئينها في اللحظات العصيبة وتختبئين كعادتك خلفها، تتوارين بحركات الفتح. تتلفعين بصمتك المجبول بالخسران المؤقت. ولا يهمك تراثك المسحوق كالتراب تحت الأقدام.

بكارتك لا معنى لها في ثقافتك السابقة للميلاد بألف ميلاد.

ولا تعرفين بكارة الأماكن قبل الغزو وبعد الفتح.

بكارتك لا تُهمك. ولا تهم القادم الجديد، لكنها لعنتي المتبقية فيك عقب لقائنا الأخير.

وبقي لي منك بكارة الكلمات القديمة قبل اللقاء. وبكارة الأماكن التي قالت كلماتها ومضت، وبقيت روائحها تعشعش في ذاكرتنا المشتركة.

نحلم بها في عتمة ليلنا، ولا تأتينا في أحلام يقظتنا خشية أن تفضحنا صورها المرسومة على صفحات عيوننا، وفي منابت الحروف التي تتسرب بين المكلمات الثقيلة، ولا يراها سوى من أدمنوا قتل الوقت في التحديق من شرفة القمر.

.. وتحدثُ الأيام فيما بيننا، بعيداً عنا.

تُشرق شمس ويغيب نهار. وأحداث طهاها قدر غامض يسكن الجبال ويعيد ترتيب أثاثه في الصباح. وتغيير مواعيده المسبقة دون سابق انذار.

وكعادتنا، لا نحسن اختيار الأشياء التي تتناسب مع كرّ أيامنا، ولغة أجسادنا.

ولحكمة بالغة لا نعلمها. اخترتِ أنتِ البقاء في سرير غرائزك تلك الليلة. وبقيت أنا انتظر شروق الشمس، وانتصف النهار، وشارفت بعدها علة المغيب على الرحيل.

كان طعامك جاهزاً كعادته هذه المرة. نفس الطعام ونفس الأواني المصبوغة بالشَحار القديم..

تناولته على عجل.

وتناولت إلى جواره دواء رخيص الثمن، تعاطته أجيال الخيبة، دون إستشارة طبيب. هو انتظار جديد وخروج آخر، ووعد غامض بأن ينصفني كَرُّها.

خرجت من ثيابي القديمة. غيرت جلدي، استبدلت ذاكرتي بأخرى تزيد سرعتها في القفز بين الكلمات والعزف على الحروف الساخنة للرغبة. ووقعت في شركها، وها أنا أعود مرة أخرى لك ولذاكرتي القديمة. وأجدد طلاء جدرانها الملتهبة بالرطوبة والعتمة وقلة الخبرة وسوء الإستعمال.

..ومنحت نفسك لغيري، دون مبارزة أو مواجهة شعرية.

وبقيت أتعثر بالشوق. أعُدُّ الساعات، وليس لي مهنة أتوارثها سوى عد الساعات. والجلوس على أعتاب الدقائق لرسم أثر الأيام على الجدران الداخلية لقلبي.

الأيام كرَّت أشهراً بالوان الفصول. ومن بعدها كرَّت السنون بطولها، واستطال وجعها. ومنحت شوقك المجبول بساعاتي، منحته، كلِّه لغيري...

ألا تخجلين من ذاكرتك المحشوة عن آخرها بالصور..

ألا تعاتبك الأيام في لحظات الصمت..

تنامين أنت بملىء الجفون، دون ألم يؤرق حنجرتك المخملية، وكعادتك تغلقين نوافذك الزجاجية الملونة دون صوتي المخنوق، كي لا تشاهدين وتسمعين نزيز الدم المتدفق من الصور المذبوحة أمامك، قرباناً لألهة وثنية لا تميز بين لون الدم الأحمر وبين أصباغك المسائية السابقة للمتعة.

وبقيت أجزاء من ذاكرتنا المشتركة، لم تطأها أقدام العابرين. تؤرقق في صمت الليل، عقب انقضاء الساعات، تعدِّين الزّمن بعد انقضاء فصوله الهامة، يؤرقق سباتك، وتبدأين طقوس حرق البخور في عمق صمت الليل لألهة غامضة موغلة في ساديتها، لتشعلين الحرائق المتعمدة في مساحات الذاكرة المشتركة كي تمحي آثار الغزاة وسارقي الماشية في الليل.

..منحت فصول ذاكرتنا المشتركة لعابري السبيل، وتركتني في وحدتي أتوسلك. بصري القديم معلق ببلاهته في سقف الليل، يحملق سهاد جفونك الكسلى، يرجو غائباً لا يعود.

وضحكتِ من انتظاري. ومن وعورة مشاعري القديمة ومفاهيمي الرديئة عن طاعة الزوجة لزوجها، ورضى الوالدين والنوم مبكراً، والصلاة في موعدها.

ومنحت أسنانك البيضاء وضحكتك الساحرة لغيري..

"من يضحك أخيراً يضحك طويلاً.."

بلاهة الحكماء.. وشعرهم الأبيض في سواد ليلي، كان يضيء المصابيح الملونة لي في الطرقات التي سرتها متعبا، دامع العينين، ساهراً، مملوءاً بكِ.

لجرحي الغض رائحتك ولون عينيكِ. وله منكِ تفاصيلك الصغيرة كلها.

في كل مرحلة من مراحلك الملونة، كانت لك لعبة جديدة، وكنتُ أنا لعبتكَ الجديدة وقتها.

ومنحتِ ذاكرتَك للنسيان. وبقيت أنا انتظر صوت نداء الفجر التالي للخيبة، وفراق الوقت المجبول بك.

كنتِ تمارسين النسيان كما تمارسين عاداتك في تقشير السطوح الميتة لبشرتك. وأمارس أنا بقائي بين السطور الباقية من رسائلك القليلة المجبولة بوحل الليل وعتمة ضوء الصباح الخالي منك.

أكنتِ تمارسن التمثيل حينها ؟؟

وفي أي معهد للغات تدربت حواسك على قتلي.

وأتقنتِ الدَّور حتى الثمالة.

أضحك في سِرّي الآن من شغفي القديم وبلاهة أشواقي. أضحك في الغرف المظلمة حتى لا يراني الضوء، ويبدأ لعبته في فضح أشواقي.

عندما كنت أعود من أسفاري، محملاً ببخور الهند وسحر الصين.

أعود إلى الأماكن القديمة. أبحث بينها عن دفيء المكان وقلق الصمت الباقي منك. أبحث عن آثار العطر المضمخ بشهيق الدقائق السابقة لآخر لقاء بيننا.

أرتجف مع العقارب. أصحوا وأغفوا على وقع أقدام ثقيلة. كأنها أقدام العسكر. وكنتِ أنتِ وقتها تمارسين اللعبة عينها، في تفاهم مضاد غريب، للمعادلة القديمة " الحب والعسكر".

تثيرك النياشين ككل النساء ويغريك بريقها، وتغرينها أنت بثغرك الباسم وسمُك الفتاك.

وبقيت أنا أراوح الزحمة وبريق الأوسمة.. وثغرك الباسم على مداخل الحجرات وخلف الأبواب.. حارساً على مدخل العمارة التي لم تسكنك، أو عاملاً ليلياً في فندق قديم يقف إلى جوار الباب الزجاجي، يزرع ابتسامته النائمة إحتراماً للقادمين.

ومنحتِ العابك والدمى كلُها، لغيري..

وأنا من أنتجها وصنعها في محراب عشقي.

وضحكت الساعات من انتظاره القديم، وشغفه بالتفاصيل، ورعشته أمام هبوب الريح الحاملة لبقايا عطرك القديم.

ومنحتِ نفسك لغيري..

قالت عبارتها الأخيرة بصيغة أقل صفعاً..

_ *" تغيرت كثيرا..."*

ووسعتْ من وُسْعِ عينيها...

تجاهد دقات الساعة في إخفاء دهشتها.

اجترأت عليها ببرود رجل، يخفي خوفه وعشقه تحت معطف شتوي سميك.

_ *" وأنتِ ازددتِ عذوبة "*

كنت أود لو أقول لها ازددت عذاباً. ازددت قتلاً.

أو ربما، ازددت ايلاماً. ازددت وحلاً، وحلّ فيك ألق المغيب.

_ ما زلت تكتب الشّعر؟ "

(8)

_" *ما زلت تكتب الشعر ؟؟"*

قالت خجلى.

كأنها لا تجد ما تقول، لشدة ما تود قوله.

ضحكت في سري، وبكت جوانحي.

وتذكرت أشيائي الملفعة بالعشق والموت، فقد مضت وبقيت عظامها. ورائحة عطرها الدهري المضمخ بنا.

كنتُ أجهد في نسيانها. وودت لو ماتت في ليل المخيم الصامت، لو ماتتْ كما مات جدي. وبقيتْ صورته بالأسود والأبيض معلقة على الجدران الكالحة لذاكرتي.

ماذا أقول لك؟

لا.. أم نعم ؟

الشعر... ؟

يا لحناً حزيناً لم يكتمل.

أقول لا، وأقول نعم.

فأنا يا سيدتي قد تصلبت أناملي منذ أواخر العهد البرونزي للشمس. عندما كنا نعتاش بالصيد، ونأكل لحم البشر.

أنا يا سيدتي. وعيت اختراع العجلة، واكتشاف النار، وأنا يا سيدتي، أول منِ رسم على جدار.

ومارستُ لهفة الصيد والعودة إلى المغارة. محملاً بالهدايا والخوف. أرقص رقصة الموت على مداخل الغابة. أعدو، أطارد

الثيران والغزلان وخوفي الساكن في دمي. عينيك وحدهما كانتا تنتصران على خوفي.

أعود إليكِ، وأنتِ تنتظرين على المدخل الغربي للجُحر الحجري الذي يسكننا ونسكنه، تسرحين شعرك، وتنشدين لحن البقاء، والحب والنصر على المخلوقات كلها.

أتذكرين. يوم كنا نأكل الطعام دون طهو. ننام في عراء الكون، نمارس الحب بين الأشجار ونغتسل قبل أن ننام في ضوء القمر.

نرقب سذاجة الإنسان في الخوف من الماء والنار، والموت والحياة، والولادة..

كنتُ أنا من بنى أول معبد لعبادة الأنثى. وأنا من صنع بيدي هاتين تمثال الربة الأم "فينوس ولانتروف".

أنا من اخترع الكتابة، والرسم على جدران الكهوف. انظري إلى آثار أصابعي وإبهامي. ستجدين بصماتي في "لوسكس" و "التيميرا".. وتجدينها في "هرابا " الهندوكية، وفي فيافي إفريقيا، وحارات بكين.

وسامرت "الهوموسبيز" وجالست "النياندرتال"..

وأنا من دفن بيديه هاتين، "إنسان بكين"، وأنا من علمه الصيد، واقتحام الخطر. أنا من زرع في نفسه حب النساء، وسطوة النساء وأنا، من علمه فن تدجين النساء، والخوف من مكرهن.

أنا يا سيدتي، جد الآريين الأول. وأنا من سيّر جيشاً أوله في الأناضول، وآخره في جنوب الهند لإستعباد "الدرافيديين"..

أنا من وَّحَد مصر القديمة في زمن الملك العقرب " مينا".

وأنا من أشار على الملك "زوسر " بناء الهرم المدرج.

وعاصرت "خوفو" وخفرع" ومنقرع" وأنا من بنى أهرامات الجيزة. وشهدت تاريخ مصر كله. فقط عندما غزا "الهكسوس" مصر. اختفيت عن الأنظار. وأدرت من الخلف، المقاومة الشعبية ضد الغزاة. حتى استطاع "احمس الأول" أن يطرد " الهكسوس " من مصر بمعونتي.

وساعدت "حامورابي" في صياغة قوانينه القديمة ونقشها على مسلة الشمس.

وسرت إلى جوار "نبوخذ نصر" عندما عاد بالمسبيين إلى بابل. ورافقتهم في طريق العودة مع "قورش" فيما بعد.

واحتسيت النبيذ المعتق بالسُّم مع "سقرط". حاورت "أفلاطون" واقترحت عليه بعض التعديلات في الجمهورية. وعندما كتب "ارسطو" كتابه "فن الشعر". كنت أنا من راجعه ودققه لغويا. وصمم غلافة، وأشرف على طباعته بالألوان الأساسية الأربعة.

وكنت حاضراً وقتها عندما عذبوا السيد المسيح. وشهدت قيامته. وصعوده إلى السماء.

وشهدت إنتصار الإسكندر. ودخول قسطنطين في الدين.

وسافرت لنشر الدين مجاهل إفريقيا.

وشهدت ولادة بوذا. ومغادرته الزوجة والولد والملك، للبحث عن الحقيقة..

وكنت إلى جوار زرادشت. عندما نطق بالشهادة.

أنا من دلَّك جسد نفرتيتي بالمراهم والكريمات الأزلية. وكنت من كتب عقد زواج كليوبترا..

وأعددت الخطط، وحكت الدسائس. وأنا ولا أحد سواي من قدم لها السم. ومضت معلولة بحب "انطونيو" المغدور.

وشاهدت انكسار "هنيبعل"، ورحيله عن "قرطاجنه".

وكانت قسوة الرومان. تجرح مشاعري، رغم أنني أنا من صمم وأشرف على بناء أقواس النصر في روما. وأنا من وضع رفات "تراجان" أسفل عموده الشهير.

أنا يا سيدتي من ساعد "مايكل انجلوا" في خلط الألوان وهو مستلقي على ظهره برسم سقف السستين.

وكنت وقتها واقفاً، وقد أصابني الوهن والتعب في حروب "نابليون"، وأشرت على "الفوهر" أن لا يغزو روسيا، فقد سبقه إلى الهزيمة فيها أقوام آخرون.

وكنت شاهد زور، في التوقيع على سايسبيكو.

وأنا من رسم الخرائط لتقسيم بلاد العرب والعجم، عقب الحرب الكونية الأولى. وفي سان ريمو، أنا من عبث بالحدود. فاقتطع الأراضي وضمها إلى البلاد المجاورة كي أبقي العداء والخراب والخلاف، وأبقي على الأحلاف والمؤامرات.

كنت أنام إلى جوار ناصر في حرب السويس. واحتسيت الشاي مع نور السعيد.

أنا يا سيدة الحزن، من أشعل الحرب في لبنان، وشارك في اغتيال الساسة، والكلمات.

أنا من توقع اغتيال رابين. وسقوط شارون في الكوما.

وعلى مستوى جرحنا، أنا وأنت.

فأنا من أشعل ثورة البراق. وشارك في ثورة ال 36..

أنا من باع السلاح للمقاومين..

وأنا من شهد الخروج المهين. أنا من شهد الخروج المهين. وشهد الذل والمهانة، والتعب وبيع الأجساد، ونسيان الرضع في الأسرة وقت الرحيل..

انا. قد لا تصدقين.

أول من اجتاز الحدود وشارك في أخذ الثأر لأهل فلسطين.

وشهدت فيما بعدها، ولادة الثوره، واغتيال الزعماء. وخون الأصدقاء.واتّجار الساسة وأصحاب المال بدمنا.

وأنا من منع قيام سور الصين العظيم، من أن يمتد إلى بلاد الغال وقتها. واستبدلوه فيما بعد بجدار للفصل بين أحفاد إبراهيم.

وشهدت النكبات كلها.

وعشت أحداثها. ما قبلها وما بعدها.

ومرضت بالنتائج كلها.

شهدت نزاع وموت القمر.

وأنا من غسّله وكفنه وطيبه، ولقنه..

وأنا من مشى في جنازته.

أنا من فعل هذا واكثر...

وعندما وصلت إليكِ أعلنت جهلي، وقلة حيلتي.

عندك، غيرت فصيلة دمي ثلاث مرات، وشهادة ميلادي مرتين، وطراز أحذيتي، وشفرات الحلاقة التي تناسب خشونة ذقني، وأنواع العطور التي أغطي بها رائحة العفن المنبعثة من هالة وقتي.

وها أنا وقد تجَّمد سائل الشعر الهلامي اللَزج في دمي.

لم أعد قادراً حتى على القيام بواجباتي الزوجية.

سأعود إلى الحضانة. وأقرأ التاريخ من جديد..

وسأبتكر لغة جديدة لا يفهما أحد سوانا...

لغة تجمع بين لغات العالم كلها.

تأخذ من الصينيه صورها. ومن الهيوغروفيه غموضها، ومن الروسية قسوتها، ومن العربية ضادها، ومن الإنجليزية عجرفته، ومن لغة الهنود الحمر لون دهشتها. ومنك أنت، سآخذ كل حركاتها والفتح والنصب، وقواعد الأعراب..

لغة لا يفهما سوانا، لغة مختصة فقط بمصطلحات العشق، مضمخة بأفعال الإغراء. يسبق بها المفعول فاعله، ويغيب الفعل وتتوقف حركة حروف الجر.

سأتوج الفاعل سيداً لا ينازعه السيادة مفعول، ولا حرف جر ولا كسر ولا أي صفة للحال.

أأقول نعم..!!

وقلبي لا ينفك يعزف ألحاناً غرائبية، على ورق الشجر وبين الأغصان. بين الجفن والعين. أشعاراً مني ومنكِ ومن ذاكرة الوطن.

نعم ما زلتُ أكتب أشعاراً غرائبية بحبر سري لا يعرفه أحد سواي، واكتب نثراً غير الذي تعرفين.

لا يؤرقه الفتح ولا الكسر، ولا حركات المنع أو الضم. لا الفاعل ولا المفعول. فأنا الفاعل والمفعول. وأنت الأمر والتمييز والـــتأكيد وفواصل الكلم، وعلامات الإستفهام والتعجب.

وأنت صفة الفعل والحال، وأشياء أخرى لم يعرفها "الخليل ابن احمد"..

أكتب أشعاراً لا يقرؤها غيري، وأخشى سلطة العروض والوزن والقافية على شفتي. فأنا أكره العروض وأبغض الوزن.. وأعتاش على فوضى الحركات، وأرقص كدوري ذبيح بين الكلمات.

أكتب شعراً لا يعترف بالسلم الموسيقي للمترفين. أكتب أشعاراً على بحور أخرى، غير تلك التي مَخرنا عُبابها ونحن بعمر الأقحوان.

أكتب أشعاري في المساء، وأمزقها في الصباح مع شروق الشمس.

ووحدها العصافير تشاركني الحاني، وترقص طرباً على ميزاني الشعري المعقد.

فالعصافير وحدها لها حدس الشعراء وغيرتهم، وغرامهم، وحقدهم، وطيبتهم. وعندما تموت، تموت وحدها في الغربة والظل والوحدة، تماما كما يموت شعراء العرب والفرس.

لكنها أيضا كالشعراء تقوم قيامتها الثانية. وتبدأ من جديد لحنا آخر، لم يمله الساهرون والعابرون وقطاع الطرق والأزواج الذين يمارسون العشق عقب صلاة العشاء. أو في أثر صلاة الفجر، وينامون متقلي الأجفان بغرائزهم وحدها.

هززت رأسي مجيباً في حركة لم أتبين أنا نفسي، ماذا أردت بها. وأظنها قد فهمت أكثر مني، حركة رأسي وأكتافي اللاشعورية، فنكست رأسها بعفوية وانكسار بحار قديم قدير، خانته الريح.

_ ***"كيف الصحة... و..... الأولاد.. و"***

كادت تقول الزوجة . لكن خانتها المعاني.

قالت، وهي ترقب أجفاني الكسلى، ولم تنتظر جوابي كعادتها القديمة .

– ***" متى عدت... إلى البلاد ؟؟ "***

لم تنتظر جوابي كعاداتها كلها التي أعرفها وتلك التي غيبها الفراق..

_ ***" وماذا تعمل الآن...؟؟ "***

كأنها نسيت السبب الذي جئت لأجله والذي فرضه هواء المكان وطعم قهوته...

وكعادتها تتذكر كل التفاصيل الخاصة بسمرة قهوتي، ومرارة طعمها. وتغيب عنها الكليات.

_ *" ما زلت تشرب القهوة بدون سكر.."*

أنتِ السُكر، وأنت النبيذ المعتق في دمي..

أنتَ المُذيبُ والمذاب، وأنا بينكما رواحت المكان. وعبرت الديار، وخانتني الساعات، والزمن المر الساكن في الأمكنة كلها.

فانا اعتدت المرارة الساكنة في حلاوة عينيك. أضمخ يدي وشفتي، أعبر بهما دون وجل.. على أعقاب السجائر، على أطراف الفناجين، ومماسك الأصابع. وأضحك في سري على سذاجة أفكاري القديمة.

لا أبوح بها، وتبقى لي. لا أشركك بها، لا أبوح بها للسكر، حتى لا تأخذه الغيرة منك.

كنت أرقبها من خلف أجفاني، ولا أفكر بأسئلتها السطحية الكثيرة التي تتوارى خلفها دون أن تنفجر.

كانت أصابعها التي أعلم عددها، ونعومتها وحرارة ملمسها، ترتجف وهي تطلب قهوة "السادة" مغلية مركزة ومحترقة حتى التفحم.

مثلي تماماً. كانت أصابعها ترتجف على الهاتف، كعصفور فقد بوصلة الوقت.

لم تنتظر إجاباتي على اسألتها. وأظنها لم تسأل لكي أجيبها. كانت تسأل وتجيب. كعادتها القديمة.

وتترك فراغ عينيها يلهو بنا.

يرنو طرفها إلى الساعة المعلقة في الحائط. ولا أفهمها.

كان الوقت يقف بيننا يُشهر سيفه الصدء في وجهنا.

تطاردها الدقائق في ردهات المتاحف. وتتعقبها الساعات في المعارض وخلف اللوحات، يتسرب سائل الزمن من بين أصابعها كدمها. تحاول أن توقف دوران الزمن فينا، أن تُطَّهِر المكان بصفاء عينيها، وتوقف نزيف الوقت، وانتحار الأحداث لكن. دون جدوى.

تبكي، وتعلم وحدها أن دمعها لن يعيد الزمن المهروق، وأن زماننا الغابر، المصفح بالخوف والشوق والرجاء لن يعود.

كلا، ولن يشفع له نزف الساعات أو وموت الكلمات.

ملأت أجفاني بكل شيء سواها، بتفاصيل المكان كله، بعبور الوقت. بالبوسترات والنشرات التي تتسلق على جنبات المكان بألوانها الأنثوية.

بخارطة فلسطين المطرزة بألوان دمي وخضرة أحلامي وسمرة قهوتي..

وصور أخرى، كثيرة لأسماء لا أعرفها، لها ملامح أكثر قسوة من هواء الغربة، وعبارات لها طعم اللّحم الفاسد، تملأ هواء المكان وتشغل الزوايا.

وحدها تفاصيل وجهها لم أعبر عليها، برغم لهفتي، وشوقي لمعرفة آثار الزمن الذي عبر منها إلى سواي.

.. كنتُ أخشى من نظرة عينيها. أخشى أن ينفجر التاجي وتتفتت الذاكرة ان قابلت عيني ذاكرتها..

كان وقت الصمت محرجاً لكلانا. يفتح في كل لحظة نافذة جديدة. والنافذة تعوي كمن استفاق من بين الأموات، لهول ما رأى. وعلى شرفة كل نافذة ذكرى ووجع، ومذاق طعم جائع. يزيدنا انكماشاً وتحفظاً واحراجاً.

والقهوة لا تأتي فتسكت عواء الذاكرة...

قلت..

_ *" منذ ستة أشهر .."*

ربما، لأصرف ذاكرتي عنها. وأصرفها عن البوح في الوقت الضائع.

ولا أعرف عن أي سؤال أجبت.

عن الصحة ..!!

عن الأولاد الذين لم يأتوا..

عز الزوجه التي ظننت أن لها رائحة عطرك..؟؟

عن الهروب الذي مارسته لعشرين عام مضى. ومارسه المخيم لستين عام أخرى، وأخرى ستأتي.

عن جدي المقهور بنخاعه.

عن العودة المغمسة بالقهر والذل والطرد والخسران.

أم عن العمل الذي استبدلتك به عاشقاً متيماً. أمارس الحب معه في المساء والصباح وبعد طعام الغداء.

نطرق كلانا، نعد على أصابع الكون أيامنا. يوماً يوماً، ونتحسس آثاره على أجسادنا. نقرأ استطالة أوجاعه. ووجوه من

عبروا من بين أسنانه وعلى جنباته، قادمون من بعثهم، ينتظرون أدوارهم، بتلهف الغافل وحيرة المشتاق..

كانت تُحاول ترميم بكارة الوقت المفقودة.
وتبحث في الزوايا عن عذرية المكان.

وسبقت القهوة رائحتها...
شربت قهوتي الساكنه فيها. أولاً.

عاودتني ذكريات الطعم المر لقهوة الجامعة، بين أشجار الكينا والسرو. بين شجيرات الورود الجوري والدفلى والأقحوان والنرجس وشقائق النعمان، والزنبق والسوسن والفلامنجو وعصفور الجنة.

كلها كانت تزخر بنا ونحتفي بها. نطالعها في الصباح وقبيل المساء، نعد أوراقها، ونمسد أجنّة الصباح الساكنة في أحشائها..

نرعاها تماماً بنفس إهتمام وحرص "ابو محمود" بثيابه الرثة وجبهته القاتمة وقامته المتهدلة بالزمن، المُكلّف بعناية الأشجار والأزهار وعشاق الحديقة.

كان يُظهر إهتماماً خاصاً بك. من دون سكان المملكة، وكعادتك. لا تكتفين، لا تمتلئين، يبقى السحر الساكن في إبتسامتك الملائكية الممزوجة بالسم. يفتك بالعابرين على طرفي الحياة. وأنا لست استثناءً.

تغار من ثغرك البَسام حوريات البحر..

يقترب "ابو محمود" ولا يجرأ عبور مجالك المحاط بهالة مغناطيسية جاذبة وأخرى طاردة.

ينسى خوفه ذات مرة ويخونه صمته، ويجاوز كل خبراته المريضة السابقة ليعود لفترة محدودة من الزمن إلى طفولته..

يقطف وردة، يشذبها، يقترب بفمه الخرب وابتسامته الخالية من الفرح.

تستشعرين أنت مراده، لا تأخذين الوردة.

وتطأطئين رأسك للورد، وأمثالك لا تطأطأ رأسها سوى لحمرة الورد.

يغرزها في قلبي أولاً، وتظهر على شعرك المجبول بالدلال..

يبتسم. ولا أراه البتة يملك فرحاً حقيقياً كتلك اللحظة..

كأن عذرية شعرك تغريه بالصبا.

تتسع ابتسامته باتساع خطوط العرض.

يتذكر شبابه ربما. ويصنع في خيال نفسه، صورة كولاجية تجريدية. تجلسين فيها إلى جواره. تحتسيان البارد ربما، ولم تكن ابتسامته قد ماتت بعد. يطوق خصرك، ويحلم بالأولاد.

يبتسم مرة أخرى. ولا ينطق بشيء، ويمتلأ المكان برائحة شبابه القديم..

يرمقك مرة أخرى دون شهوة.

تموت ابتسامته القصيرة فجأة، ويعود له وجهه المشرب بالتعب، يواصل حمل جسده المثقل بهياكل الرغبة الميتة. ويختفي فجأه...

أغار من عمره الذي اجترأ على شعرك، ليغرس فيه إسفيناً للفرح. وأغار من فرحك المسكون في الزوايا. وفي أعقاب الكلمات، وخلف أوراق الشجر.

كانت تنبت أفراحك من تحت أظافرك، كما تنبت الأزهار البرية، دون رعاية ودون ماء.

من أين تأتين بالسوائل والروائح، لتذيبي الفرح. وتضفي على رتابة الوقت دفئ اللقاء.

أغار من الورد، ومنكِ أغار أكثر.

أضحك من غيرتي.

فأنت لستِ لي وحدي. أعلم أن العصافير تشاركني الطبق وحده فيك. وتنام على نفس السرير الفردي الذي ننام عليه.

ونمارس كلانا طقوس عبادة الأنثى، في نفس المعبد الممتلىء بالمخلوقات كلها.

تزدادين جمالاً وبعداً، حباً وعشقاً، ونزداد كلنا جهلاً.

نضحك قليلاً، ونغيب في الذاكرة المثقلة بالصور.

فكلانا يا سيدتي يعلم خارطة طريقه التي خَطّها القدر. ويعلم أكثر عدد وجبات الدمع التي عليه أن يعيشها كي يبرأ من الآخر. لكننا ننكر علمنا، نمتص الزمن الساكن في وقتنا. ونداري حيرة الوقت الأعمى وهو يتلمس طريقه المستحيلة؛ نحونا..

كان استسلامك للزمن مثار دهشتي وحيرتي الأزلية. كاستسلام الفتيات الصغار لأمهاتهن في الصباح، يسرحن شعر رؤوسهم. ويمسحن الدلال من على ثغورهم الباكية قبل الذهاب إلى المدرسة.

ولم أستطع ذات يوم أن افهم استسلامك القدري للقدر.
أم تراها سطوة القدر على أخلاقنا ومشاعرنا..
نعلم كلانا الوقت المتبقى للوجع، وننكره.

يعود "أبومحمود" في اليوم التالي أو الذي يليه، وقد ارتدى بدلة عرسه الوحيدة القديمة على غير عادته، وسرّح شعره، وقدّم استقالته، وكتب وصيته، وودع أهله. وسأل الله المغفرة على ما ستقترفه يداه.

يقترب منا، يمسك بيمناه وردة، وبيسراه سكين.

نبتسم له مجاملة. نحيّه، ولا يكترث لنا.

يخفي الوردة والسكين خلف ظهره.

يحادثنا قليلاً عن سر الخلق، والحياة والموت. وما بعد الموت وقبل الولادة.

نعجب لثقافته التي هبطت عليه فجأه.

يسأل أسئلة كثيرة كبيرة. عن سر الشقاء والنصيب، عن السّر الذي يسكن عينيك. يرتفع صوته قليلاً، ويبدأ بالصراخ.

تتغير ملامحه ولا يعود الرجل الذي نعرفه.

نهدهد ثورته. نستدير حول أسئلته، نحاول تبريرها أو الإجابة عليها. لا يسمعنا، ويكرر أسئلته. يتأمل زرقة السماء في عينيك.

نظن أنه دخل مرحلة الخرف المبكر.

أو ربما عاد لتوه من خفلة تنكرية دعاه إليها القدر.

نعجب للباسه وتسريحة شعره. لأسنانه التي سقطت الواحد تلو الآخر. مع سقوط آخر إمارات الأندلس.

يقترب أكثر. يضحك ضحكته الأزلية الأخيرة.

تشرق الدنيا في وجهه مرة واحدة وأخيرة.

يخرج يديه من خلفه كساحر محترف، مارس سحر قتل الوقت في انتظار القادم الذي لا يعترف بمواعيد محددة للوصول. ليبقى على مواعيد وصوله غامضة كي يفاجأنا.

نشهق من شوقنا عندما يأتي، لكننًا غالبا ما نكون غير جاهزين. وربما نكون قد بدأنا مرحلة التنظيف الذي يسبق التوبة.

لا يأبه بنوايانا القديمة..

يأتي فجأة، يستخرج مزماره القديم..

يطلق صيحتة، ويمضي ببروده المعتاد..

تأخذنا الدهشه من مفاجآته غير السَّارة..

ومن الصور التي أخذها لنا ونحن لم نضع بعد أقنعتنا على وجوهنا..

يأتي فجأة.. ولا نكون قد استثمرنا الوقت فينا بعد..

يقترب "ابو محمود" بيده وردة وبالأخرى سكين..

وبكل الإيمان والثقة والرغبة والحزن والعَجب.

يغرس الوردة في شعرك بيمناه..

ويغرس السكين في قلبه..

ينطق بالشهادتين، ويطلب آخر أمنية له من الدنيا.

يقبل جبينك. ثلاث مرات..

وينطق بالحق قبل الموت، أنه لم يعش حياته كلها..

نبكي رحيله، نكفنه ولا نغسله. وندفنه في الحديقة مع جذور الدفلى، والأقحوان، والجوري والياسمين.

ندفنه دون غُسلٍ، كالشهيد أمام محراب حبك الأزلي.

نعاود حديثنا بعدها. وفي كل مرة يأتي "جنايني" جديد يعرف قيمة الورد، ولون الورد..

ويميز الغثَّ من السَّمين..

تُحدثه نفسه، أن يسير على خطى السابقين..

تمتلأ الحديقة بقبور الشهداء، يساكنون جذور الورد، ولهم أحلام عشاق الحدائق. ممن عرفوا أنَّ للورد تجليات كثيرة. وأنك كنت أسمى تجلياته كلها.

تضحكين عقب كل جنازة جديدة، وتعتبرينها بمثابة استفتاء على شرعيتك في امتلاك القلوب.

وفي كل مرة نودع شهيداً من شهداء حرمك المقدس. تتجدد غيرتي منك ومن حمرة الساعات الباقية لنا قبل الرحيل المحتوم.

أشعلتِ مع القهوة التي وصلت سيجارة في أثر سيجار.

أحترقُ معها، وتواصلين أنتِ الضَّحك..

" التدخين مسموح، يوم نعم، ويوم لا "

تلك العبارة قرأتها في وقت الدهشة.

وقرأت في كلماتك القليلة التي بادرتني بها، بحة امرأة أدمنت التدخين، في الحمامات، وفي عتمة غياب القمر.

"اليوم لا.. "

وغداً..؟؟

ما أكثر الخداع الذي تمارسة اللغة.

وتتقن اللعب بالكلمات. وتتكأ على براعتها في التقديم والتأخير، وفي استخدام التورية والمجاز، وقواعد البديع.

وأشعلتِ سيجارةً في أثر أخرى. واشتعل المكان بحضورك وغيابي.

للقهوة ذاكرة أكثر حضوراً من ذاكرتي.

مناسبات كثيرة، لها خصوصية الأحداث وطعمها.

وللقهوة في بيتها ومدينتي.. أطعام وألوان وأشكال كثيرة.

قهوة للصباح. وأخرى للمساء.

وأنا قهوة المساء..!!

القهوة المُعُدَّة للمساء، لها لون الكرز ورائحة التفاح المحترق. ولها عذاب عينيك المتقد بالشهوة والنشوة والرغبة في الحكم والصيد والقتل.

كان لقهوة الجامعة القاسية طعم حضورها ورائحة عرقها.. أعرف طعمها، وتغور ذكراها في الطبقات السفلى لذاكرتي. كان لها طعم الشوق واللّهفة. وارتجاف الأصابع عندما تتلمس طريقها نحو دفيء تتجاوز حرارته درجة انصهار الحديد..

أما قهوة اليوم، فلها طعم العزاء، والجبن المحترق على موائد الغربة. لها لون الشيب وقسوته، وقد تسلل إلى حلكة شعرها الغادر.

هذه المرة، كان لقهوتها رائحة المكان المترب بالوحدة والصمت، وألفة الإنتظار الطويل.

كانت رأسي مزدحمة بها، وطعم القهوة أفرغ الذاكرة من سباتها القديم. فعادت إليها التفاصيل الميتة.

كنت أرقبها. وقد بهت لونها وزال القها، ترتجف من زحمتها، ومن برودة عواطفها الريح.

كطرقات العيد ازدحمت ذاكرتنا فجأة، وامتلأت بالتفاصيل.

كنتُ وقتها في الحادية والعشرين، وهي تصغرني بربيع أو عشرين. لم أسأل وقتها، وعلمت فيما بعد أنها كانت تكبرني بسنين.

فأنا عندها، ما عددت أياماً ولا أتقنت حساب السنين.

لم يكن حبها عادياً، كان غنياً من غنى ثيابها وعطرها الذي يسبقها. وكنت أنا فقيراً، ويسكن جلدي ذّل ورائحة الخروج.

"يحب الرجل بعينيه والمرأة بأذنيها "

وأحببتك بأنفي على غير العادة..

قادني عطرك إلى حتفي، كما تقاد الخراف إلى موائد الإحتفاء بالأعياد والمواليد الجديدة، مسلوبة الإرادة يقودها بلهها الأزلي إلى المجهول.

لم يكن عاديا، كان شكلاً من أشكال الفناء. كان كموج هادر، سرعان ما تكسر على أعتاب فقري ويتمي، وأزقة المخيم، وهياكل عمي الميتة على مدخل الدار، وعلى جنبات قناة الصرف الصحي

المكشوفة، وصمت جدي الرهيب بعد أن بال الزمن على جراحه فأنساه عاداته القديمة.

كانت تتقن فن العزف على كل الأوتار، وتتقن فن الرقص على الجراح وبين حبات المطر، تعرف اللّغات، وتتقن رسم الكلمات. وتعلم أوقات السعادة كلها. وتهمل أوقات الصلاة بلا تقريع أو عذاب ضمير.

كانت تعلم متى تُعزف الألحان الجنائزية، وتلك التي يتلوها الفرح، متى يبدأ المطر وفي أية اتجاه تهب الريح، ومن أين تطل الشمس، عند قدميها يتفتح الزهر، ولطلتها يبدأ هدر الرعد ونزول المطر.

كانت موجاً. كانت سماءاً صافية، بلا عقد ولا ملاءآت تحجب الشمس عند الشروق.

كانت صبح ليل ساهر، يأتيها في الأوقات المناسبة لمواعيد نومها. كانت تضاهي فينوس النائمة. وعذارء المسيح، ووقت السمر.

كانت كل يوم تقتل عاشقاً أبلهاً يعلم أن الموت إن جاء، يأتي في العمر كالحب مرة.

كانت نخلة. مثقلة حتى الثمالة بالثمر.

كانت مصنوعة من الأرجوان، ولها رائحة الياسمين، ولون خديها سرق الورد منه حمرته، منذ الآف السنين.

أتت فجأة في قفار العمر، كما ذهبت فجأة، لحظة تواطىء الفجر على الأحلام.

لم تطرق الباب. اقتحمت المكان بعبق روحها. ولون بشرتها.

جاءت في الليل، وبرفقتها أربعون وصيفة من الحوريات وعدد لا يستهان به من الخصيان، دلفت الباب دون استئذان وأحضرت معها كل مستلزماتها.

ملابسها، مكياجها، اكسسواراتها، أدوات زينتها، وكحل عينيها..

نصب الخصيان سريرها، في الحجرة اليمنى لقلبي المُترب بالغربة، ووضعوا لها مكيفاً يعمل بالطاقة الذهنية في حجرة الطعام..

ورافقها. رجال لم أتبين ملامحهم.

واحد له وجه خنزير لتزيين شعرها في الصباح، وآخر مات لون وجهه، لنزع شعرها الزائد مع طلوع كل فجر. وآخرون لتدليكها بالطين والمستحضرات العجيبة، عقب كل صلاة. وأحضرت معها مائها وهوائها، وآنيتها، وحقيبة لم يتسع الباب لإدخالها فهدموا القاطع الفاصل بين الحجرات كي تعبر المكان.

في الواقع احتاج الأمر لنصب مقتنياتها مدة لا أذكرها الآن. ربما ثلاثة أعوام أو أقل من ذلك بقليل. وتلك هي المدة الفاصلة، بين العصرين، العصر الحجري لقلبي، والعصر الحديث لساقيها البلوريتين اللامعتين.

طوال هذه المدة، كنتُ أُشاهد عُمّالها وخَدمها، على عَجل يعبرون الردهات الداخلية لقلبي ويخرجون، دون أن أنبس بكلمة إحتجاج، ودون أن يقدموا واجبات الإحترام لصاحب البيت. وأنا صامت في وحشتي، أرقبها وأتنعّم في عذابي بها.

في الفترة التي سكنت فيها الحجرة اليمنى لقلبي، كان لها خدم يوقظونها في كل صباح بمراسيم إحتفالية، لم تعرفها "نفرتيتي" في صباحاتها الطويلة. يبدؤون بتلاوة تراتيل مظلمة لا أفهمها، يرشون أرض الحجرة بخل التفاح وطلع اللَّوز المُر وأزهار الياسمين.

يوقدون الشموع ويطلقون رائحة العود والبخور المحترق بنار قلبي.. ويبدأون بتلاوة التراتيل من كتب "فيدية" قديمة. تستمر تلاوتهم للتراتيل في خدر عجيب كأنها عبادة لآلهة مسرفة في غموضها، تتمطى هي في سريرها المنصوب في الحجرة اليمنى لقلبي المترب، ويبدأون بتلاوة الأشعار على رأسها. يرافقهم موسيقى جنائزية وقرع طبول حرب، ربما، كي ينصرف النعاس بسلام عن أجفانها.

عندما يبدأ النور بالتسلل إلى يقظتها. تتحول الموسيقى إلى صخب الحياة المجبول بالفرح، يُغَنِّي الناي، وتطرب الربابة. وتصدح آلاتٌ شرقية أسطورية في المكان، لتضفي على الجو رائحة العيد الذي يعود في العمر مرة.

ويتكرر كل صباح، إيقاع الحياة على نومها وصحوها. وفي كل مرة أشاهد الكرنفال السنوي لإيقاظها كأنني أسمعه وأراه لأول مرة.

تنهض من سريرها وتتكأ على الفراش الوثير. ويبدأ موسم آخر، له رتابة الشروق والغروب.

تصطف الكواكب على الباب بأدب جم. وتبدأ المراسم الصباحية اليومية في قبول الإعتراف، وتلقي التهاني في الصباح الجديد. تأتي الشمس بجلالها وحرارة لقياها، لتقبل جبينها. وتنصرف

قبل الجميع بأدب موغل في أصالته. يتلوها القمر، يُقَبِل يدها في خشوع الرجال قبيل إقامة صلاة الجنازة. تتدافع فيما بعد باقي الكواكب الباب، تأتي الزهرة تجلسها إلى جوارها تتبادلان الحديث، تقهقهان، تبكيان أحياناً، يغار المريخ كعادته، لكنه لا يملك سوى تكرار حركته الأثيرة في تقديم الولاء والطاعة فيبدأ بتلاوة مزامير داوود وتمسيد شعرها. ينصرف من غيضه على عجل، كي يواصل عمله اليومي وتنصرف الكواكب جميعاً في خجل ولوعة وشوق للقاء اليوم التالي..

تأخذ حمامها الصباحي الذي غالباً ما يتواصل حتى انتصاف النهار، تتناول افطارها قُبيل العصر، ويبدأ النهار عندها بعد صلاة المغرب، لتبدأ باستقبال زوارها. ولها في كل يوم ألف زائر يأتون لإلقاء السلام.

ولها في كل يوم ألف قتيل. وأنا المقتول المهزوم المأزوم بشوقي وخروجي.

تتدله هي بطقوسها الغريبة، وتباهي بي نساكها وحراس معبدها.

أتساءل عن السر العظيم الذي جبلني به الله كي أنال حبها. أنا المترب، منكوش الذهن والذاكرة، المتسكع على أرصفة الوقت، الضائع بين الأموات من أهل العذاب وأهل الرحمة..

أرقب أشياءها من بعيد. بعد أن استقلتُ من وظائفي كلها، اكتريتُ كرسياً قديماً مصنوعاً من القش لا ظهر له، وجلست في أحد الأزقة كجدي تماماً. أرقبها وأرقب طقوس العبادة والكفر والرفادة

التي تحظى بها. وأدخن السجائر الثمينة التي أحضرتها لي في سفرها. أعدها في الصباح وأرقب الأيام الباقية للنفاذ.

أعلم أنها لن تدوم طويلاً. وأنها ربما مرهونة بإحتراقي بسجائرها.

أحيانا، أدخن في اليوم ألف لفافة. أستيقظ في اليوم التالي لأعدها. فأصاب بالهلع والخوف وأعكف عن التدخين للشهر القادم، لأستديم مكوثها اللذيذ.

يتجاذبني الخوف والشوق والرغبة في الإنعتاق من ضوء القمر الذي يرقب حركاتي وسكناتي. وأخاف أكثر، تحديق القدر في صفحة وجهي. يرقب مواعيد نومي وجلوسي. طعامي وصمتي. وأعلم بوعي كله، أن الأيام لم تكتفي معي بلعبتها القديمة بعد الخروج. وأنها عادت لتعيد الكرّة في اللعب على الأوتار المهترءة مراهنةً على تقادم الذاكرة.

أعلم أن رحيلها حتمٌ مهما استطال بقاؤها. وأنه مرهون بالفناء، وتنتظره الخيبة، وأن الوقت هو دميتها المفضلة.

أراقب المشهد اليومي. يهزني الشوق، يمزقني الحنين. أتنعم بامتيازاتي الجديدة فاغراً فمي ببلاهة سكان الدنيا، دون أن أصيب فهماً لما يجري. أحملق في مسيرة العابثين السائرين إلى اللُّقيا. آكل من طعامها، أشرب من رحيق عينيها، وفي أوقات فراغها أجلس كطفل مدلل، لا أكترث بالطقوس الخاصة، فلي عندها قدسية الأطفال. ومساحة ألهو بها في الحديقة الخلفية لقلبها.

كعادتي أسرفت في الشراب وفي تقدير الحساب، وتجاوزت حدود الأدب في حضرة الملكات. ولم أستطع تقدير أرتفاع الصوت اللازم للضحك أو البكاء في حضرتها. والمسافة التي يجب أن أقترب منها.

فجأة؛ غضبت غضبتها الأولى، وقررت أن تطردني من قلبها، وبدل أن تقتلني، أو تضعني في قائمة المطلوبين للعدالة، وهي التي تسكن قلبي، قرّرت إخلاء المكان فجأة.

رحلت فجأة.

ذهبت فجأة، دون استئذان، أو غياب يسبق الحنين. وتركتني هناك على ضفاف الخوف أجتر الصباحات دون ماء أو قهوة صباح.

أصدرت أوامرها باخلاء المكان. وتركت مقتنياتها كلها، غادرت فجأة دون أن تأخذ حمامها الصباحي، أو تُعَدّل مكياجها. أو تحمل زجاجات عطرها.

لم أفهم وقتها، إصرار امرأة على الإحتفاظ بهذا العدد من زجاجات العطر. من نفس النوع والحجم واللون، وأنا المخبول الأزلي بإصرار على فهم التفاصيل الخاصة بالنساء.

ذهبت وتركت متاعها كله.

أمشاطها، بقايا شعرها المتساقط عقب النوم، أحمر الشفاه المخصص لمبسمها الجميل، طلاء أظافرها الشفاف. مسكارتها الأسطورية الخاصة لتعديل انعطاف رموش عينيها.

ألوانها الخاصة في تقويم التاريخ وتعديل مسيرة الحضارة المستخدمة في تعديل مكياجها، وبالضرورة. مرآتها الصغيرة،

وعليها صورها كلها متداخلة متراكبة تزيدني تشويشاً، ورغبة في البكاء كلما طالع وجهي وجهها. فمرآتها لها ذاكرة حادة. لا تتمحي صورها. لا تفتأ تستدعي تاريخها القديم بلمسة سحرية من يدها، في حركات تتسم بالغموض والغرابة.

وتركت ملابسها الداخلية، منشورة بين التاجي والأورطي.

ولدى ذهابها. تركتْ صدى أصوات عديدة، لأسماء وألوان وأشخاص لا حصر لهم، وذكريات أحداث لها، منذ مطلع التاريخ. وتركتْ صدى ضحكاتها الممتلئة عن آخرها بأحداث قلبي.

تركت صورها الكثيرة، بعضها مكبر بأحجام خرافية تنتشر في الردهات وفي الممرات وقاعات الإستقبال الرئيسية. تركتها بكلها.

أعجب لهذا العدد المذهل للصور الملونة التي يمكن لشخص واحد أن يأخذها في عمر واحد.

كانت بالنسبة لها ليست سوى مرحلة قصيرة عبرت فيها مكانا مظلماً موحشاً كقلبي. أصرّت فيه أن تأخذ بعض الصور.

كنت أعجب لهذا العدد من الصور الشخصية التي يمكن لفرد من أفراد فصيلتنا أن يأخذها. وتذكرت الصورة الحزينة اليتيمة الوحيدة بالأسود والأبيض لجدي الحزين، بفمه الخالي من الأسنان والفرح. وقد حملق وقتها– عندما أخذ الصورة – في الفارغ الخالي تماما من الجمال والوطن. كانت صورته الوحيدة الحزينة باللونين الأسود والأسود، ترقد في زقاق معتم بعيد عن الأنظار لغرفة الأموات الباقين أبداً.

كنت مفعولاً به. مكسوراً، على عكس ما جاء به دهاقنة الرفع والنصف والكسر والتنوين. تُرى هل يُكسرُ المفعول في دين أو شعر سوى في دينها المجبول بعبادة الأوثان والأموات، والرموز؟

عندها الفاعل يَجُر، بضم الجيم، ويفتح القلاع والحصون، والمفعول وحده مكسور مثلي تماماً.

كنتُ مستسلماً لإجتياح عينيها.

أمسيت عندها أسيراً، مكبل اليدين والقدمين، معصوب الأحلام.

عندها فقط كانت أسلحتي بكلها، تستحيل إلى ورق شفاف مُلَون، يذوب يبهت لونه لأقل مواجهة مع لون عينيها.

كانت أولى معاركي مع الألوان، وعداد السنين.

كانت نقطة ضعفي ألوانها. لون عينيها، بياض بشرتها، سواد ليل شعرها، وشامة سمراء تستقر أسفل عينها لتحرسها.

كانت إلى جوار ألواني، تشكل تنوعاً ملحوظاً. يقرؤه المارة، والساهرون على شرفات الوطن يعدون الوقت والمال والبشر.

عاد صمت اللقاء يكرر نفسه، يقطعه في إيقاع عشوائي، بين الفينة والأخرى قرقعة الفناجين السوداء الكبيرة يوحي بالوجل. ففترات الصمت، كانت تعني إزدحام ردهات الذاكرة بالجثث المتربة للكلمات القديمة البلهاء والأفكار المحنطة.

تجاهد ربما في البحث عن عذر أو سبب، عن جذوة حقد عن شعلة حب. اتقدت كثيراً وأطفأها طول البعاد، وها هي تعود كأنها لم

تفارق اشراقات الشمس الكثيرة ولم تتبلل بقطرات المطر التي أغرقت الأرض لسنوات قبلها.

ها هي تعود كأنها حبة قمح ماتت ودفنت تحت الركام، فعادت مرة أخرى تنمو لا بالمطر وبقطرات الماء ولكن بالعرق والدموع.

عادت تجترح حواراً لا معنى له. فيما كان كلانا يسبح في لجج الماضي الذي أخذ معه الأشياء العزيزة كلها.

عادت لأسئلتها السطحية، لتخفي وجلها، وحيرتي. وموضع الذبح وأثر السكين ..

_" كيف العائلة.. ؟ "

_" متى عدت..؟ " وتكرر

_"متى عدت ؟؟ "

وعبارات صغيرة، لا تعنيها.

_" السرطان والجوزاء لا يلتقيان "

(9)

كان ذلك منذ خريف تكرر عشرين مرة ويزيد، طوتها الأيام وطوتني معها، تماماً مثلما طوت رسائل العشق الأولى، ومكاتيب الغرام المعطرة، وأوراق الورد المجففة، والمغلفات الملونة، وأيقونات أبراجنا، وكروت المعايدة، وصورنا وماءنا وهواءنا، وأشعار " نزار" التي أحببناها وتبادلناها.

كانت تردد بحرقة عرافة إغريقية، تؤمن بالأبراج والكواكب وحسن الطالع ونبوءات القديسين.

_"السرطان والجوزاء لا يلتقيان".

كنتُ أكنُّ لها العداء، وأراها مشعوذا هندياً فاغراً فاه لإلتهام حبنا، والساعات الباقية منا.

كان إيمانها بالأبراج ترفاً اجتماعياً تسلّي به وقتها، تقتل تاريخها، تؤثث مستقبل أيامها، تمارسه بِدَعة الحوريات وهدءَت الأسماك في قعر الماء، تقهقه بملىء ثغرها فتضيء ابتسامتها المكان والأجزاء المظلمة في ذاكرتي.

تعلم، بكل لحظات الحب الذي عشته وعاشتها، أن معجزة أو قدراً غامضاً وحده قادر على تبديل الصور السوداء التي يواصل عقلها الواعي وغير الواعي رسمها للعاصفة القادمة.

صدى الكلمات تعبر كأنها حلمٌ ليلي في ليلة مقمرة، سراب ورجع الصدى، يصم عين قلبها، تتصارع الكلمات. لا تألو على شيء، ويتردد رجع الصدى في الجو المشحون برائحة النزع للعشق

المستحيل، يملك في جوفه أسباب الحياة، وكل أسباب الفناء. صدى كلمات كثيرة، وصخب الحروف التي لا تغني ولا تسمن من حب.

تردد في سرّ قلبها أشعار" قباني" الذي كان يطرزها لها بصوته المبحوح ومشاعره المتوقدة.. فتتقد جذوة الموت والنار في القلب الغض. وترتسم عذابات الغد بكل ألوانها.

يرتجف قلبي وأنا أقلب صفحة الجريدة، كل مرة بنفس الطريقة، أعبرها ولا أتذكرها.

أقرأ برجها قبلاً وأطوف بطرف العين دون أن اقرأ برجي.
أتذكر كلامها الغامض، ويقينها المشوب بظلمة القدر.
"السرطان والجوزاء لا يلتقيان "

ترتجف الكلمات من غموض القدر، وأنا أطالع صفحة وجهها بين الأسطر وفي أعقاب الكلمات.
النجوم هي التي ساقتك إلى الجسر حيث التقينا. وهي الآن تقتص مني ومنك في سادية، تعلمتها النجوم في فترات غياب القمر.
تعلم أن " السرطان والجوزاء لا يلتقيان " وفيما بعد أصرت بعنادها وساديتها على عقد اللقاء.
هي سخرية القدر بأبنائه، وسادية النجوم الأزلية في تعذيب أسرى الجمال وسبايا الحب والتنكيل بهم.

أوجم دائماً من طالعي، ولا توجم هي من غدها المنقوع بالدلال.

عندما توجم هي، توجم الدنيا. ونبدأ نتلمس بين الثنايا عن معنى شارد يطامن خوفها، أو فكرة عابرة تنقظها من رعب القدر.

كان إيماني بأبراجها يقيناً غافلاً لا يرتكز على دعابات النجوم المشرعة على الإحتمالات كلها. كان إيماني اليقيني، يثقل أقدامي عن السير إلى ما بعد الضفة الأخرى لقلبها. وبقيت مكبلاً بالوقت والمكان، محدود الأحلام، أكتفي بذكرياتي العزيزة على قلبي بتفاصيلها التي لا تنتهي ولا أستطيع اجترارها أمامها.

كان إيماني بأبراجها يقيناً، يثقله الواقع، ويدميه التاريخ المتشح بدرجات الأسود كلها. يمعن الخروج في حز رأسه بالسكين، عين السكين التي حزّ القدر بها، رؤوس الخارجين.

وكانت الجغرافيا، وجعي الأكبر وقدري المحتوم.

برم شاربه الأبيض المصفرة أطرافه من التدخين بالغ الثمن، وقال بلهجة نابلسيه مبللة الأطراف لرجل في مثل سنه..

_ " من عيلة مين انت ؟ "

العائلة في مدينتي المتلونة بالوجع، تُفرز التاريخ والجغرافيا وفصيلة الدم، والأمراض الوراثية: تعطيك لون العينين ونسبة الملح وأمراض الضغط واستدارة الوجع.

وكانت الجغرافيا أكبر جراحي في مدينة علمتها جبالها المشطورة على طرفيها أن تشطر الأحلام. تبعاً للجغرافيا وتاريخ الخروج.

أعود لإختلاس النظر بزاوية قلبي إلى الجريدة، علّني أرى وميضاً، بريق سعد، أعلم بكل جوارحي أنه غير موجود، أفسر العبارات الجاهزة على مقاس وجعي، ولا أرى سوى ظلمة الليل الساكن في مسامات الجلد، بين السطور وخلف أصص الزهر المصنوع من البلاستيك المصطفّ على شرفات أوقات المخيم.

كان يقينها لهواً، ترفاً تداعب فيه عقارب الوقت، قبل أن يأتي اللّقاء الحافل بروائح طازجة تتجدد مع كل صباح. وعقب عودة القمر من إجازته الشهرية.

كان الأمر بالنسبة لها سيان..

كلانا كان له أسبابه للإيمان والكفر بها.

من غير الحب الذي يتسلق أضاد الكلام والمشاهد، دون أن يتردد في الخطو، أو يعتوره السقام. من غير الحب الذي يساوي بين الضد والضد فيستويان، من غير الحب الذي يأخذ ويأخذ، ولا ينتظر العطاء..

يا أيتها السماوات. أمطري. أرعدي. أبرقي..

ويا أيها المخيم، اتسع بفضائك، وتخلص من فضلاتك ومن أحلامك الصغيرة.

أفق يا جدي من نومك المتواصل، تخلى عن هواياتك المفضلة في قتل الوقت، أفق يا جدي حباً لله. أفق وشاهد معي زحف التاريخ، كف عن دخانك الرخيص، وتخلص من لعنتك القديمة والملابس التي قاتتها أجساد اليهود التي لا تعرف طهارة الصلاة.

كان صدى المكان يردد، الحزن خُلّاَق، وكانت ترمق حزني، كأنها تشاهد تحفة نادرة، تستدر البكاء.

مرَّ على ذلك عشرون خريفاً، وعشرون شتاءً فقط..

أمضيتها خارج الدائرة، وخون الساعات.

أنتظر نهايات الأيام وخواتيم الشهور.

أعد الساعات، أحتسي حسرتي بها.

وأعد نفسي لوجبة عشاء فاخر، لم أدعى إليها.

أرتدي في كل صباح قناعاً جديداً. أخفي فيه وجهي عن المارة. كي لا يقرأوا حضورك الصاخب في تقاسيمي.

أحتسيك مع الشاي الأخضر. وأذيبك في فنجاني بدلاً من السكر.

أملأ الوقت بالوقت. وأقطع الساعات بسكين أسطورية من الإنتظار لما بعد الوقت، قبلكِ وبعدكِ.

غابت ملامح وجهك التي اكتسيت بها بعد طول الرقاد، وقدُ امتلأت بالتفاصيل الكثيرة لحياة أخرى في الزمان والمكان. وبقيتُ أتمترس خلف آخر مرة تقابلت فيها عيوننا.

أبقيت على لونك الرمادي وأنت تنظرين من خلف زجاج عينيك القاسيتين المتشحتين بالنزوة، أبقيت على لونهما الرمادي، محفوراً في ذاكرتي، ربما كي أستعين بخونهما على رتابة الوقت المتبقي دونك.

كذبتِ وقتها أنتِ على القمر كذبتك الأولى. وفيما بعد تطورت عادة الكذب عندك، وتوالت فصول المسرحية القديمة بثوب جديد. وأهم فصولها أنني كنت أنا، ولا أحد سواي، ضحية العيد الذي ستؤثثين بها أفراحك وصخبك السابق للّقاء.

بمرو الوقت، وقسوة تقطيع الساعات إلى أنصاف وأرباع، أقنعت نفسي في غفلة منك ومنها، أن أقتلك بنفس الطريقة والطقوس التي قتلتني بها. واستعظتُ عنكِ بامرأة غيرك، واشترطت عليها أن تشاركك رائحة عطرك.

أشاطرها أشواقي اليكِ. وتشاطركِ جنونكِ الأزلي.

كنت أرغب في صناعة امرأة، لها مقاس حذائك واستدارة خصرك. ولها حركات اليدين، ولها انفعالاتك كلها. امرأة لها حضور ابتسامتك، لها مشيتك، ولها طعمك الصباحي وجلال صمتك.

عزمت على ادخالها مدرسة خاصة لتدريب النساء فنون الغدر والإغراء، والهجر بعد اللقاء، مهارات المناورة والمراوغة ومعرفة أبجدية العيون.

عزمت أن أعلمها بعض عاداتك في تسريح شعر الوقت أمام مرآة الزمن. أن أعطيها دروساً خصوصية في عصيان القلب للقلب. واهمال الوقت عند إعطاء المواعيد، تماما كما كنت تفعلين.

تزوجت بكِ، ودخلتُ بها.

كنتِ أنتِ حاضرةً في الزوايا. وبين ثنيات الثياب الجديدة التي اشترتها. فأنا من اختار ثيابها، واخترت لها ألوانك المفضلة.

أوقدت في ملابسها القديمة نار عظيمة من الجنون بك.

اشتريت لها بالمال الوفير الذي أملكه، ولا أملك سواه، كل ما تريد.

كانت مزهوة بي، وكنت أنا مزهواً بكِ. بحضورك المجنون في ألوانها ومقاساتها. بطريقتك الفريدة في إرسال شعرك على الكتفين.

ويوم اللقاء المرتقب، كانت خسارتي فيك هي الأكبر.

فقدت عذريتي القديمة على يديها.

عذريتي التي ادخرتها لكَ. عذرية القلب والشعور وعذرية النوم مع النساء على سرير أوقد القدر ناره، منذ الآف السنين.

ويا لخيبتي فيك مرة تلو المرة.

يا لحسرتي على فقدان الذي لا يرمم.

نسيتْ هيَ ترميم عذريتها المفقودة.

وفيما بعد علمت أنها أخذت موعداً مع طبيب متخصص في ترميم غشاء بكارة الوقت الساكن فيها.

لو كان جدي حاضراً وقتها. ولم يجد دم عذريتها على الساعات المتبقية، لغرز سيفه في قلبها، وذهب كعادته ليضع نفسه بتصرف الشرطة.

لكن يا لخيبتي، فأنا لا أملك حزنه، ولا فرحه، لا صوته ولا موهبته في هدر الوقت، قابعاً في الزقاق يَعُدُّ الساعات، يحصي المارة ويتفرس وجوههم، يقرأ حظهم وتعسهم. ويحصي النقود المتبقية في جيوبهم.

أنا لا املك سحر جدي. فأنا لم أشرب من ماء الوطن كما شرب، ولم تُسرّح السهول شعر طفولتي كما فعلت بشعره الأجعد.

تعلمتُ الكتابة في المخيم، وقرأت تاريخاً ملوثاً.

لم أعرف مغازلة الأرض مثله، ولم أتعلم الدبكة.

لم أمارس الحب يوماً مع وطن، كما فعل جدي..

قال لي يوماً، لكي تمارس الحب مع الوطن، عليك أنتَ أن تكون وطن، لم أفهم وقتها. وظننتها إحدى شطحاته الغريبة، حتى عشت خارج دوائر الوطن، وخارج هالات عينيك.

لكن الوقت قد فات، وأصبت بكسل الرجولة المبكر. أدمنت السهر على أقدام الموتى أحصى أصابعهم. وفي كل مرة كان العدد يخونني. وأبدأ من جديد.

ليس لي أخلاق جدي الحزين، ولا نور عينيه، أنا المهزوم بالهزيمة مرات عديدة. وعلى يدي فقدت النكبة أسنانها الأمامية.

مسكين أنا.. عشت ضياع جدي ولم أعش رجولته، كان لي قِصر القامة وكان له استطالتها. مارست الحب المؤقت. وتسرب الوقت من بين أصابعي، وليس لي معضلة اليوم سوى غياب الوقت، وخون الساعات، ورجع الصدى.

أنا لا أكترث بوقتي، فالأمر سيّان، لكن الجريح أوشك دمه على النفاذ، وأوشك الوقت فيه أن يمضي إلى الضفة الأخرى، دون أن تكتحل عيناه بلقيا الغياب.

ولهؤلاء المقعون على قارعة الوقت، يَعُدُّون اقدام المارة ويقسمون العدد على اثنين لإحصاء عدد الرؤوس. ينفقون من جيوب ساعاتهم أوقات ليست لهم، هي للأوطان فيهم.

أدار الجميع ظهورهم لي.

ومضوا إلى الشواطيء يسنحمون، يعرضون أجساد نسائهم للشمس، كي تُغير لونها وطعمها.

لكن للنكسة طعم يسكن مساماتهم، ووشم لا ينمحي على السطوح الجافة لجراحهم.

أنا لست كجدي المقهور في نخاعه.

قرَّرت الهروب من نكساتي المتتالية كلها.

كنتُ أعارض اتجاه الريح في كانون، وأمشى عاري الصدر في شباط. لم أعرف تقلب الفصول ولا اتجاه الريح..

وعندما يحين الوقت المناسب للعشاء، أغادر الموائد الممدودة وألهو بشبعي الصغير..

في " ليلة القَدَر" وعدني قدري بها، في السنة التي تلت قدوم القمر لزيارتنا في عقر الدار، مباشرة قبل مواسم قطف الزيتون التي تلت خيبتنا.

اطمأن قلبي لزيارة القمر الخاصة تلك، واطمأن أكثر لوعده المحتوم.

وكعادتي لم أفهم وعد القدر.

تركت الأمور تجري على أعِنتها، وبَقيت أُجالسُ الأطفال وانتظر قدوم الوقت. اسأت تقدير الزيارة وتجاوزت حدود الأدب في حضرة القمر.

ركنت عصاتي إلى جوار الباب، وأسلمتُ نفسي للنوم ولأصابعهن يداعبنني. يقهقهن من فوات الوقت، أكل دود الأرض منسأتي.

أنا لا أملك الرجولة كلها..

وأصبت بالفشل الجنسي في كل مرة دعتني النجوم إلى لقائها في أحدى الملاهي الليلية، أو الفنادق الفاخرة في كوكب الزهرة.

أنا فقط، أتقن الرقص على جراحي والغناء في أفراح الآخرين.

وأتقن أكثر خداع الإناث.

أملك الوقت كله للعبث بعقولهن.

أُفسد أنوثتهن وسذاجتهن الساكنة فيَّ، وأمضي.

وأأجل لقاءاتي حتى لا أصاب بالملل.

عندها أكشف سِرَّ عطبي الأزلي وأمضي دون رجولتي إلى اللّقاء المحتمل.

يَمتن من خيبتهن فيَّ، وتنتحر النجوم بإلقاء نفسها من سطح الزهرة، لتسقط في إحدى البرك الإصطناعية أو على سطح إحدى الفلل الفاخرة.

وتشرب الأخريات السم، حزنا على الوقت الذي أضعنه فيَّ، وعلى فوات مواسم الإنجاب لديهن ودخولهن بسببي سن اليأس.

في الواقع. كنتِ أنتِ الحاجز الماثل أمامي.

كنت أنتِ مانع الحمل الأبدي الذي أصابني بالعقم.

كانت صورك القديمة، بضحكتك المسرفة في فرحها، المسروقة من فم الحوريات. صورتك تلك برغم سوادها وبياضها، قد بقيت تقاول الزمن والبقاء. وتطفو على الساعات.

تتجاوز البقاء وتعبر النهر سباحة، والطرقات الممتدة حبواً، دون انتظار لإشارات العبور الخاصة بعبور الصور ومشاة الليل، على ضوء القمر.

كنتِ تنشرين شعرك العزيز الغزير الأسود الباقي عقب الإستحمام في بحر دموعي، كنتِ تنشرينه على الشرفة الغربية لقلبي. تأتي النجوم فرادا وجماعات، يُسرحن شعرك، وبنات الثريا يبدأن العد المثير، شعرة شعرة. وكلّما أصابهن الملل وتجاوز الرقم مخيلتهن الفلكية. بدأن من جديد دون كلل.

يستبدلن الأدوار والأماكن.

ها أنت تلقين برأسك على صدري، في صورة سريالية قديمة تكررت في قصة حب أحد أبطالها متورط طوعاً في إحراج كوكب الزهرة.

أراكما، ولا أنفكُ عن المقارنة بينكما.

أرقبها من بعيد، وأرقبك في الوقت كله وأنت القريبة البعيدة. نتحدث لماماً، تطهوا الطعام أحياناً. وتفسد الأطعام التي عرفتها قبلها، أُلقِمُ الفَم لأُسكتَ عواء الذاكرة والمعدة معاً.

لا أحبها، ولم أكرهها.

في الواقع، لم ترتقى أبداً إلى مستوى بغضي لها. ونزعت غطاء وجهها أمامها وعَرَّيت ذاكرتي أمامها، وبقينا طوال الوقت، نعيش ونتنقل ونمارس القتل والحياة عراة من الذاكرة.

في صباح اليوم التالي للفرح الأخرس بيننا، لم نتبادل تحية الصباح كعادة الأزواج في صباحاتهم الأولى. ولم نتبادل حتى القُبَلْ.

كان لها تاريخ قديم قرأته في سواد عينيها. في ظلمة قلبها، عندما تعرت فجأة أمام نفسها، وتعرى معها تاريخها.

قرأت تفاصيل الزوايا كلها، بعد أن غَسلتْ وجْهَهَا وأزالت أقنعتها وكحل عينيها.

قرأت التاريخ كله. وقرأت أهم فصوله السوداء عندما لم أجد عذريتها. كان لها تاريخ قديم ممتلىء عن آخره بأنصاف الرجال.

بحثت عن مقعد صغير في جسدها، أمارس رجولتي، أتبادل معه عذريتي، فلم أجد شيئاً. كانت المقاعد كلها مشغولة برجال مخمورين لهم رائحة اللّبن الفاسد.

ومن جسدي كانت تنبعث رائحة مشوشة، هي خليط من خيبتي وفحش أفكارها.

وأمام خيبتي الأزلية تساوت من جديد الأشياء كلها. تساوت عذريتي التي لا تستحقها. بعذرية الوقت الذي مضى ولم تدخر لي منه شيئاً.

وأتقنت هي تلفيق الكلام. وصياغة الأحداث على هواها. وشربت أنا الكأس حتى الثمالة.

ها هو التاريخ يعري نفسه مرة أخرى أمامنا.

كان جارحاً، فاضحاً، مشيناً لرجل مثلي.

عاش على الذكرى. واكترى للشوق شقة مفروشة، دفع ثمن الأقامة الجبرية فيها 60 سنة مسبقاً.

نظرت في عمق عينيها..

كانت صامتة كقبر "هولاكو"..

ولعينيها ريبة "جنكيز خان".

كان في عينيها العاريتين من سواد الكحل، جرأة بنات الهوى، ومن أدمن الرقص في الأعراس كلها، وتعرية الذاكرة للمارة.

لم أطل النظر. أو أنني صرفتُ نظري عن سوءتها.

دفنتُ رأسي في التاريخ الممزوج برملها المالح، وواصلت عملي الليلي.

كان الحيوان في داخلي يعوي، حينها.

وبدأت السنوات التي بقيت منك، واشتهيتك فيها كما يشتهي الرجال النساء، تلهوا في الفراغ الباقي والمتشكل بيننا.

ويا لحسرتي.

كانت تلك أول تجاربي مع النساء.

وددتُ أنْ أختبر فحولتي القديمة التي ورثتها كابراً عن كابر، ونسيتها مع ما نسيَ هناك في بيارات الليمون الحبلى بالثمر، وتحت أشجار البرتقال التي أجهض أجنتها بعدك، وبين ثنايا سبل القمح في أيار.

وبقيتِ آثرها تداهم فحولتي المنسية.

حملتُ منها. رغبة أبدية في البكاء، كلما شاهدت جسد امرأة تعرض حسنها المخبوء في العراء. وفي أحشائي نمت عقدة نقص جديدة، اتجاه النساء، ورغبة مخبوءة تحت القعر في القتل والوئد.

لم أملك الجرأة لأحترم سوءتها فأعاقبها بالهجران. وآثرت العصيان لنفسي ولتاريخي.

وعاودتني الخيبة مرة أخرى.

كان لها نفس طعم الخيبة القديم. ولها عفونة أزقة المخيم.

فأنا بين الخيبة والخيبة أختبر الوقت، وصمت الساعات.

يختبرني الوقت، في انتظار الخيبة القادمة، أمضي الوقت متسكعاً على الشرفة المطلة على الشمس.

يا حسرتي، ادخرت عذرية الوقت لك. وها هي الأيام تكافئ عهرها، وتحرمني منك.

وضاجعت فيها خيبتي وخروجي وانسحابي وعقدة نقصي التي لازمتني كظلي. ضاجعت فيها النساء كل النساء.

كنت أريد ان ابرأ من المكان ومنها ومن رغباتي المدفونة، أن أقتل الفطرة الساكنة في مسام جلدي وبصيلات شعري الذي بعدها بدأ بالتساقط، إعلاناً من القدر أنني فقدت عذرية الرجولة وشهامة المخيم الساكنة في تفاصيلي.

فقدتها كلها مرة واحدة، ودفعة واحدة.

بقيت على هذا الحال حتى الصباح.

حاولت أن تقول شيئاً، أن تُبرر، أن....

ترددتْ، تقلبتْ. وحملقت في سقف الفندق الفاخر، الذي شهد قبلنا عهر القوادة، وربما نبل السعادة.

أبقيتُ عليها صامتة، فما عاد يهمني عذريتها أو فحشها. ولأي زنديق منحت نفسها، وفي أي غرفة أشرعت ساقيها. كم مرة كذبت على نفسها، كم رجل خانت، وكم غرفة وكم فندق أو شقة مفروشة سكنت.

بعد شفائي منها. أشعلت سيجارتي الأولى لأشعل من عقبها الثانية. ووقتها بدأت أتعاطى الوقت دون رغبة، تعلّمت عاداتي السيئة كلها في الأكل والنوم والسهر والبكاء على صدر الذكرى.

وشربت النبيذ المعتق بالرتابة والقلق على يديها.

في صباح اليوم التالي لعرسنا. الذي لم يحضره أحد سوانا، وشهد عليه اثنان من المارة. في صباح اليوم التالي لشوقي إليك. كنتِ أنتِ الحاضرة وهي الغائبة.

في ذلك الصباح، جائتني وقد حملت مني من أثر لقاء الأمس. من رجل آخر له لون عيوني، المسكونة بك.

وبدأت أنا أتعثر أمام فحش قلبها.

أخشى فجور عينيها، قبل أن تغمسهما في الكحل، وبعد أن تغسل وجهها بالزيوت والعطور.

ننام في ظلمة قلبينا.

نتوسد وسادة واحدة، متقاربين. ولكل رأس منا أحلامه الخاصة، وأفكار قلبه المتخمة بخطاياه.

كنت أبلهاً، ليس بها. وإنما أبلهاً برائحة العطر المنبعث منها. كان الوقت كله لك، واحتجت منها رائحة العطر الذي تستعمله ويشبهك.

كان عطرها نزوة وقت. لا يمت لها بصلة..

وها أنا مرة أخرى يخونني عطرك. وأقع ضحيته للمرة الثانية.

جائتني بعد حين تحمل في أحشائها شيئاً تدعي أنه منى.

تذكرتك وقتها، وودت لو !!

وعددت الساعات كلها..

كنت أنتظر المولود لأرى شبهك فيه، أو فيها..

وعرفت أنها أنثى، وكانت تلك أولى علاماتي أنها منك..

وحضرت من تحمل إسمك، ولون شعرك..

كانت مني. ومن وقتي.

اعترفت بها. ولم أنكرحضورها المبكر، لا لشيء سوى أنها منك وتشبهك.

تشبهك في أشيائها كلها، وفي التفاصيل الصغيرة.

كان لها نفس الحركات، عين النظرات الخجلى من ماضيك البريء. ولها حركات يديك أنتِ، وإنْ كنتِ أنتِ أكثر نضجاً منها.

ولها، لون عينيك ونظرتهما الملومة دائماً، ولها أنفك الأسطوري المدبب. رسمه عين الرسام، قبل الخلق بمليون عام.

وكانت في كل عام تأتي بعادات جديدة، تشبهك إلى درجة البكاء.

وأشغلت وقتي كله بها، وفرحي أنني أنا من بدّل لها ثيابها وأنا من أرضعها وغسل أطرافها بالماء وقلم أضافرها، وأنا وحدي من جهد لساعات طويلة يبدل الحفاضات، ويغسل شعثها وعبثها، وأنا من على يديه درجت، ومشت أولى خطواتها، وأنا من أسمعته أولى كلماتها..

أُنفق الساعات أدرب عينيها على حفظ الأسماء وتذكر الألوان والأشكال والأرقام، وأدرب يدها على الملامس الجميلة كلها..

وأنا من جهد في تعليمها أسرار الأنوثة التي تعلمتها منك وتدريبها على معالي الهمم. على الوفاء والحنين للوطن الساكن فينا، المسكون بألواننا وطعامنا، بخبزنا وملحنا وشتاء أحلامنا.

أردتها نسخة مطابقة لكِ. ولها خصوصيتها وعذوبتها ولون شفاهها الخاص.

كانت كلما حاولت هي التدخل في حياتها. أوتغيير ثيابها أو ارضاعها، أصفعها بتاريخها الأسود..

وأتلو على مسامعها سوء عاداتها وظلام وجهها.

فتنتقل إلى الردة مرة تلو مرة...

تخونني في ذاكرتها ولا ذاكرة لها، وأخونها أنا في ذاكرتي الممتلئة بك.

هممت لمرات لا عداد لها، أن أمضي الى الضفة الأخرى للنهر الذي تسكن ضفته الأخرى. وكانت من تحمل إسمك تُبقي على إحتمالي، أصابر الوقت لأجلها.

كَبُرت صغيرتي التي تحمل اسمك وكبر شوقها.

عندما دخلت المدرسة، بدأت تتعلم النطق بالحروف تماما كما تنطقينها.

وتضحك في مواطن محددة، تماماً، كضحكتك التي تزرع الفرح في قفاري الشاسعة.

كانت تقف عند بعض الكلمات. تتنهد، تهز رأسها، تماماً كما تفعلين، وكنت أشتم رائحة عرقها الذي ينقصه عطرك. كي يحدث الأنفجار العظيم. وتبدأ مراسيم حرق الجثث.

كانت تنتابها فترات سوداوية، تعكف على البكاء الليلي المتقطع، وعن الكلام والطعام والحركة. تماماً كمواسم البكاء التي كانت تنتابك أنتِ. ولا يخرجها منها سوى رائحة البخور. أو أن تطأ جثة متيم نذر نفسه لعدّ خطواتها والسّهر على ايقاع أنفاسها.

وكلما دارت عجلة الزمن، كانت ثمرتي الصغيرة التي لها أسمكِ واستدارة عينيك، وشوقهما واستثارتهما ودهشتهما، تنضج شيئاً فشيئاً، وتفوح منها رائحة السفانا الإستوائية.

يستدير القمر إلى وُجهتِها كلما تحركت. وتُسرِّح النجوم شعرها في صفاء وَجهها.

كلما كبرت، يزداد خوفي منها، وعليها.

فامثالها أعلم يقيناً، ستشقى مثلكِ.

فكليكما، نباتات برية في مدينة لها وجه قديم. تخجل من اكتمال القمر في انتصاف الشهور.

ولأهلها عادات بالية في زيارة القبور، وإعداد مراسم الدفن، في ترتيب الأواني، وغسل نوافذ قلوبهم في الأعياد.

وتجهد نسائها في إزالة بقايا ذاكرتهن عقب كل فترة حيض. وتغير عاداتها كلها، كلما جاء زائر يطرق بابها.

مدينة تعيد تشكيل النساء بعد الزواج. وتعيد النظر في أشياء النِّساء بعد الترمُّل، وقبل دخول المدرسة. بعد الحيض، وقبل موعد الزفاف.

وكلما نضجت الثمرة، أخشى على عذرية وقتها من خون المكان. وأخشى أن يسرقني الزمان منها. وتضطر بعدي إلى بيع الحمام، أو تقديم خدمات البيت، السهر على الأولاد، وتتأنق في المساء لسيد البيت القادم من لهوه المسائي.

تهدهد ثورته وتتمنى رضاه. وتستخدم المبيدات الحشرية الحديثة لتنظيف وحل أفكاره من الذباب وحشرات الصيف الموسمية.

في الواقع كان يخامري أحيانا بعض الشَّك.

وتتجاذبني بعض الأفكار المظلمة من زمن الجاهلية الأولى في وأد البنات.

حدثت قلبي في وأدها والخلاص من العذاب الذي ينتظرني قبلكِ وبعدها.

ها أنا أحدثك عنها. وأحدثها عنك وعن نفسها.

ترى ستملكين حماسي ودهشتي لأحدثك عن نفسك. وأنا القاسم البائن بينكما، وأنتما الذاكرة العشوائية الباقية لي.

في الواقع كنا ثلاثتنا، أنا والمفجوعة بتاريخها ومن تحمل أسمك، نمارس هواية العدو أمام الوقت، في سباق مرثوني أشبه بعبث المسرح الوجودي.

نؤجج الأفراح الصغيرة، نرسم أدوارنا بعناية وبدون رغبة، وفيما بعد ندفنها في أصُصِ الزَّرع المرصوف على النوافذ المُطلة على الشَّارع العام.

ننتظر المواعيد الصغيرة لنجدد بقائنا، ولا بقاءَ بعيداً عن سطوة عينيك.

ننتظر نهايات الأيام، والمواعيد المضروبة للأعياد القادمة الخالية من الفرح الذي يجمعنا.

نعلم عدد الساعات اللازمة لقتل المساحة المشتركة المتشكلة فيما بيننا.

وكانت من تحمل إسمك ضحيتنا الأولى والدائمة.

تعدو أمام وقتها المفجوع بالصخب، الممتلىء عن آخره بالمواعيد والزيارات المؤجلة.

تهادن الوقت الباقي من ساعات أمها المفجوعة بتاريخها وجفائي، ولا تملك أمام اختياري سوى الصمت المؤرق، ورجاء مكتوم، يتجدد في كل يوم، للموعد المحتوم لرحيلنا معاً.

وجاء الموعد دون سابق رحمة..

تطور الموقف ربما فجأة.

أنظر بعين طائر عاد إلى عشه القديم، وأشعر بعار الطيور بعد غيابها القسري عن أعشاشها.

مزيج هو من المواجهة للعقارب الكسلى لساعة الحائط المهترئة، ومن جغرافية المكان وتضاريس تاريخ سكانه.

ها أنا عدت إلى المخيم وإلى طيفك الذي يرتسم في شبكية العين كغلالة أسطورية رسمت قدرها على قدري بحتمية غامضة. أأجل فقيء الدُمل الأزلي الذي يرقد كقدر غامض في جسدي المثقل بالهموم.

وها هو الموقف يرتسم لي الآن وفي كل آن، بصورته المضجرة، ولونه الرمادي ودقائقه القليلة المهينة لبشرية الأنسان، وعيشه الكريم.

انتصبتِ أنتِ أمامي إلى جوار جدي فجأة، في لوحة تجريدية رسمها الغضب والحزن وقهر السنين.

جدي يهز عصاه في وجهي في حركة وعيد وتهديد أعرفها تماماً. وفي عينيك الثابتتين المنتصبتين، قرأت قدري القديم.

أقف أمام المرآة، أعدُّ خيباتي، وفي سرعة الضوء أجري حساباتي كلها.

في أقل من لمح البصر أستحال كل شيء إلى رماد.

المال، الراتب المغري، الوظيفة المحترمة، الإقامة، الزوجة وأبنة العمر، وأشياء أخرى كثيرة أقل أهمية. إستحالت كلها إلى رذاذ، إلى أشياء زائدة، لا حاجة لها، لرجل يسير باتجاه حتفه.

إلى قطرات بغيضة من الذاكرة. إلى بقايا مهشمة، مهملة بلا معنى، وذلك في مقابل الموقف الذي فرضه المكان بأشخاصه وتعقيداته الكثيرة.

واستحلت أنا إلى بقايا رجل يقف أمام مرآة نفسه للمرة الأولى، يقرأ قبحه المتراكم منذ أن غادر الوطن والمخيم والحبيبة وغدر بهم جميعاً.

رجل مارس الهروب إلى الأمام، متذرعاً تارة بأزقة المخيم القائمة والخالية من الكهرباء والماء اللازم للشرب الكريم، أخرى بقصة الحب الفاشلة التي بقي يعتاش على بقاياها وصورها متآكلة الأطراف لإمرأة تفصله عنها مسافة فلكية من والحضارة والألوان. أبقى على ذكرياته كُلها، يجترها ويمارس عادات أهل المخيم في قتل الوقت بالوقت، مع اختلاف طفيف في هواء المكان.

رجل عائد بقاياه القديمة لعشرين سنة. وسار بعكس إتجاه الريح، فسحقته الريح.

إلى قَدر رجل أدمن سرقة الوقت من الساعات المتأخرة قبل إنتصاف الليل، وقُبَيل الشروق.

رجل لا يعرف قيمة الوقت. إلا في إحصاء ساعات العمل الأضافي.

وفشل في حبك مرتين.

تداهمك الساعات الباقية فجأة، تدوس سعادات امتلاء الحساب بالأصفار.

وها هي الساعات تخونني المرة تلو المرة.

أعود لأجر أذيال الخيبة في كل مرة.

أرى جراحي تتعفن من طول الرقاد.

وأرى قدراً من الخسران والهزيمة ينتصب بطول قامته وعرض أكتافه بين الأحداث وخلف المناسبات الصغيرة..

" من يتردد بين مقعدين يقع أرضاً.."

أنا المتردد الأبدي بين المقاعد كلها. أنا الصبور والخؤون وأنا رأس الحربة التي جاهد بها الأسكندر.

ها هي المواجهة التي أجلتها كل هذه السنوات، تنتصب كمارد جبار رأسهُ في السماء وأقدامُه في أعماق الأرض، كشجرة سروٍ تركها الله تنمو على قدر عِشقها وهَواها.

مواجهة تقول لك بكلماتٍ من الحديد المصهور، أنني أنا الفرصة الأخيرة لتثبت لي رجولتك المتبقية.

رجولة تستصرخ حتى آخر حبة فيها. أن تنقذها من السقوط المتواصل منذ الخروج الأول.

تقف في المواجهة سافرة مع الموت ومع رديفه الأزلي الحياة بكرامة. فالحياة ليست رديف الموت. الموت رديفه الحياة الكريمة، أو الموت كالأشجار وقوفاً.

يصرخ القدر في وجهك بصوت هو مزيج من عواء الذاكرة وهدير المحيطات التي تموج في أبدية ذاكرتك الموتورة.

يصرخ، هل تريد الهرب مرة أخرى. وتزيد إلى خيباتك خيبة أخرى.

تقف خيباتك كلها، كتماثيل الشمع الميتة من الحياة، بملابس قديمة متهدلة، تقهقه منك ومن قدرك الذي صنعته بيديك الخشبيتين.

يصرخ القدر في وجهك من جديد.

هل تريد الهرب، تجحظ عيناه ويقهقه بأعلى صوته.

تهرب من عار سيطاردك عند الموتة الأولى، وسؤال ناكر ونكير.

وها هو الجمع الغفير من الوجوه الصامتة في القاعة الوسيعة، يرمق جرحك، يختبر فحولتك، وفي يديه ووجهه كلام كثير.

"كان بإمكانك أن تنحني للعاصفة..؟"

".. نحن ضيوف على بلادهم.. والضيف..."

"كان بإمكانك أن تبتلع الأهانة الصغيرة. وتمضي "

" ماذا يعني أن سب أبوك، شو صار يعني.."

".. الشهيد شهيد عند ربه.. والله ايسامح قليل الأصل.."

" أنت لم تحسب حساب زوجتك.. وابنتك.؟"

" أنت أناني.. لم تفكر سوى في ردّ الإهانة.."

" الغضب والأنفعال مش شطارة، الشطارة لو مسكت أعصابك.."

" أنت مجنون، مش عارف وين مصلحتك، الإقامة طارت.."

"شو بدك اتروح تعمل هناك.. العاطلين عن العمل رايحين يزيدوا واحد.."

كلمات، سمعتها من غابة الأفواه المشرعة للأصدقاء وزملاء العمل، وكانت أكثرها قسوة من زوجتي التي انكشف غطاء قلبها.

فجأة. ودون سابق تفكير أو إعداد للمعركة القادمة، القيت في وجه الرجل كل ما وقعت عليه يداي، الكرسي، المنفضة المعدنية، أصص الزرع المصطفة على الجنبات.

تلونت ثيابه البيضاء، بلون أحمر كأنه صباغ خرافي لا يمت إلى الدم بصلة، أحمر مائل إلى السواد في تناقض صارخ مع ثوبه الأبيض.

وأفرغت في جسده الأحقاد كلها.

وأشياء أخرى ادخرها الخسران في دمي. وتوقفت على أثرها حساب السنين.

حدثت فيما بعد تداعيات كثيرة، عددتها أحداثاً صغيرة مقارنة بسيل الأفكار التي بدأت ولم تنتهي بعد.

كان القدر شاهداً على تتابع الأحداث، ورأيته يرسم طيف ابتسامة حقيقية تخلو من السخرية لأول مرة في حياتي.

كان الجميع يضربون أكفهم ويحوقلون، وأفكاري كلها عادت إلى الديار الأولى لتعيد تأثيث الغرفة الحزينة على سطح البيت القديم في المخيم، إعادة ترتيب الكتب والذكريات القديمة، بصورها الكالحة التي اقتات العث وعطب الفراق أطرافها.

أمضيت ثلاثة أيام في مخفر الشرطة، تدخل على أثر ذلك القريب والغريب، وانتهى بي الأمر على حدود الزمن والعودة، وفيما بعد لحقت بي من لها ألق عينيك.

الفصل الثاني

جدي سيرة ذاتيه

(10)

أتذكر الآن، والذكرى تجر الذكرى، عندما مات جدي. ولا أعلم بالتأكيد هل مات دوننا أو متنا دونه. ولا أعلم مسافة الوقت الذي فارق فيه حاراتنا المفجوعة بيوتها وأبوابها برائحة تاريخها.

أقول، ربما مات قبل النكبة بساعات. أو في أبعد تقدير بُعيدَ توقيع اتفاقات أوسلوا بقليل.

لا أظنه عاصر حصار عرفات.

كان غائباً عند زيارة السادات.

لم يشهد إنهيار سور برلين، وعاصر إعتلاء بوش الإبن مرتين.

رقص بعصاه وأسنانه المفقودة بكل قواه في أزقة المخيم، عقب إخلاء غَزّة من الغزاة.

لسوء حظه، لم يسمع خبر سقوط شارون في الكوما.

وكان حاضراً وقت إعتلاء "عباس" عرش الإمارة. وأظُنّه ممن صوتوا " لحماس" وبكى للخسارة.

بكى بعينيه، عندما أُعلن عن إلقاء القبض على "صدام" وامتنع عن زيارة الأموات والأحياء في صبيحة العيد الذي أُعدام فيه.

لم يكترث لصعود "أوباما" المفاجيء في أمريكا. ووزع الحلوى عقب وداع "بوش" بالأحذية، وأوصى بتركته المتواضعة للبطل "منتظر الزيدي" الذي أخجل رجولته الباقية.

جدّي هذا لا يُعرفُ له شهادة ميلاد ولا وثيقة زواج.

لم يدخل الإبتدائية، ولم يُستخْرَج له "جواز سفر".

فهو لم يغادر المخيم وإحداثياته منذ بزوغ فجر الهزيمة الأولى. أمّا شهادة وفاته، فقد رفضت الداخلية إصدارها، لعدم ثبوت وفاته، إذ لم يُعثَر على جثته بين الأموات في الصباح التالي لموته المفاجيء..

وحده "كرت المؤن" كان إثباته الشخصي الوحيد، يلوِّح به في المناسبات كلها، واعتبره شاهداً وحيداً على مصيبته، وصكاً ممهوراً بحقه الأزلي في العودة إلى أرض البرتقال، وبيوت الزعتر.

أوصى أن يضعوا "كرت المؤن" في كفنه عند وفاته، كي يكون شاهداً على عذاباته كلها أمام ناكر ونكير وزبانية جهنم.

ليقول لهم ربما، أن حقه بالعودة لا يفنى بفناء جسده، وليكون وثيقته الوحيدة الدالة على إسمه ورسمه عند ملائكة الحساب، يشهد على سنوات عمره الطويل الذي عاشه في المخيم يقتل الأيام بالأيام..

ليقول أن جنته تركها هناك، وأنه لا بد أن يعود إلى رحِمه الأول ليعيد زراعة الحاكورة بخضرة البيت، ويرش الكرمة بالمبيدات الحشرية. يستظل بالتوتة العجفاء. ويقطف ثمار البرتقال في مواسم الشتاء.

عجيب جدي. كان له إيمان الأنبياء، وصبر القديسين، وله أقوال تستعصي على فهم العصاة، وأفعال لا دخل لها بالتاريخ المكتوب.

من يتجه باتجاه الشرق، -ولا شرق في المخيم- سيجده هناك جالساً في كل الأوقات كخيمة مهترءة، يَعُد الأشياء، يُحملق في السماء، يسائلها، يمعن في السؤال ويدخن.

من ينظر في عينيه الصغيرتين، سيقرأ التاريخ كله، بالفصول المخبوءة، التاريخ الذي لم يكتبه المنتصرون كالعادة. تاريخ الهزائم والخيانة منذ قتل هابيل، إلى خون الجيران وفراق البيت والأهل والأصحاب. سيقرأ التواريخ كلها بأرقامها وفصولها المتداخلة.

سيقرأ تفاصيل الخروج، وعذابات الإنتظار على ضفاف الوجع، وسيشاهد هياكل الأحلام القديمة في العودة. أما المهزومون، فلهم تاريخ آخر، أكثر عدلاً وإنصافاً من التاريخ المزور بالتفاصيل.

من ينظر إليه قابعاً في عطفة الزقاق إلى جوار الباب الأزرق لمدرسة الوكالة، يحس أن الزمن قد تجمد هناك.

أعترف بكل جوارحي القديمة، أنني لم أفهمه طوال حياتي كلها.

في الواقع كان جدي مدرسة متعددة اللغات والعادات والسلوك، يخطأ من يظن أنّه استطاع أن يسبر الشخصية المعقدة التي كان يحويها بين حوانحه.

أحببته كما لم أحب أحد سواه لكنني لم أفهمه، كان يؤثرني بحبه وحنوه على سائر أفراد الأسرة لأسباب أيضاً لا أفهمها.

كان كل شيء فيه قد تشكل، طبع روحه وجسده، مُنذ وعيت الدنيا أتخيله كما هو، ما خلا الإنخفاضات المستمرة في قواه، لهاثه وسرعة أنفاسه وإحدداب ظهره.

كان وجهه الصغير لا ينسجم مع أنفه الكبير الذي يفضح حزنه، بجبهة عريضة لوحتها الشمس وفم يخلو تماماً من الأسنان، أذنان كبيرتان تظهران من خلف طاقيته المطرزة، أما محجرية فكان تدور فيهما عينان لامعتان قويتان. تضفيان على وجهه الصغير قوةً وعمقاً، أما شاربه الكث الأبيض مصفر الأطراف من أثر الدخان، فكان شغله الشاغل، يمضي الساعات في تشذيبه بالمقص الصغير، ولا يكاد رأسه الأصلع يخلو من طاقيته البيضاء المطرزة بالحيرة، حيث كانت تتولى أمي تطريزها له بين الفينة والأخرى عندما يطلبها بلسانه.

طوله بائن بينونة كبرى، مع إحديداب بدأ ينمو كما تقول جدتي في اليوم التالي لخروجه، وله يدان كبيرتان تتنافران ظاهرياً مع رأسه الخالي تماماً من الأمل.

الأهم من ذلك طيبته الممزوجة بالقسوة، فلا تستطيع أن تتبين الحدود الفاصلة بين طيبته وقسوته، متى تبدأ هذه، وتنتهي تلك.

ولعلني من جينات جسده وروحه التي تسري في دمي، ورثت بعض طباعه، وورثت سمرته وصلعته، ولون عينيه، وأسئلتهما الصامتة، وتحفزهما ويقظتهما الدائمة.

طباع الجسد وعادات الروح تلك، لم أستطع الخلاص منها برغم الكتب الكثيرة التي التهمتها في سني الدراسة الجامعية، كي أجسر الهوة بين الطبع الحاد الذي ورثته، والتصرف المتزن الذي أجهد في اكتسابه.. نمضي ساعات طويلة في مساءات المخيم الطويلة ببرد لياليه في الشتاء، وسمرها في الصيف..

نتحدث كعاشقين يجمعهما قاسم مشترك، نسحب من رصيد الذكريات ونمزجه بتفاصيل حياتنا، لنخفف من وحل المخيم، وبطء عبور أيامه ولياليه.

نتبادل الأفكار والآراء في السياسة والحب وأسعار الطحين البندورة، عن سعر صرف الدينار، عن اليهود والعرب، عن أبو عمار وحبش، عن أوسلو والشرطة الفلسطينية، عن النسوان، عن البلاد والبرتقال ورائحة الأرض في أعقاب المطر.

المخيم الذي لم يغادر جدي احداثياته منذ نصف قرن ويزيد.

"وين ياحسرة بدي أروح"

يردد ويشيح ببصره إلى الغرب، كان له إحساس مرهف بالإتجاهات..

ويغيب عن المشاهد كلها تقريباً.

عندما يحضر. يملأ حضوره المكان ويضفي على الجو رائحة خاصة.

هي مزيج من عرق الفِلاحة وتُربة الأرض. وعبق زهر البرتقال، مضافٌ إليها رائحة الياسمين المجفف.

كنا نسمع بحضوره المفجوع بالغياب من خلال الرائحة الخاصة التي تسبقه، رائحة هي مزيج معقد من التبغ والتراب وعرق البدن.

ولا تدري كيف كان يحتفظ بتلك الرائحة النفاذة برغم مرور السنين، وبرغم تقاعده المبكر من خدمة التراب ورعاية الأرض من الحشرات الصغيرة من أن تأكل أطراف أقدامها الطرية. وبرغم تقاعده القصري، إلا أنه كان يغيب في موجات مركبة من الحنين إلى مهنته القديمة يتخللها مشاهد بكاء غزيز يشبه المطر.

فيما بعد، أورثه تقاعده المبكر من الأرض وخدمة التراب، خبلاً وخدراً مزمناً واحديداباً في الجزء العلوي من همته وعزيمة صبره المفاجيء..

ترك أرضه فجة، وترك في باطنها كنوزه كلها. وترك كما كان يقول – دون خجل أو مواربة – فحولته بين السنابل. وفي البئر المهجورة، نسي حياء الرجولة ونشوة الوقت والحب القديم.

"قمباز" مقلم بأعمدة بيضاء وأخرى بزرقة السماء، القمباز عينه مع حطته البيضاء الوسخة ولباسه الأبيض احتفظ بها جميعا في رومنسية مصرة على الذبح من الوريد إلى الوريد في مواسم النكبة. ومواسم حصاد القمح وتشارين جني ثمار الزيتون، تصر في كل عام على نفسها، تُذكر نفسها بالأطعام والألوان والأشكال، وانشغال أفراد الدار بموسم الفرح ورائحة التراب وحرقة زيت الزيتون تجرح الحلق عقب مواسم الدَّرسْ.

تمُرّ مواسم غسل الذكريات من عفونة الرقاد، ويبقى في إصراره القديم على الإبقاء على عفونة الرائحة تغمر الأنوف بكل قدرها الموجوع.

ذكريات تصر على الخروج، احتفظ بها منذ النكبة ولم يغسلها البتة.

ذكريات المكان بصخبه، الرائحة بناسها، والفرح الملازم لهما معاً. بقيت بكلها تراوح زمان المكان في الملابس القديمة البالية سوى من الذكرى الغامضة العسيرة على الفهم والغياب.

لتبقى خزانته الخاصة تعبق برائحة الفَلّاح النظيف العائد من الحقل برائحة عرقه المجبولة بالتراب وزهر اللوز والبرتقال، تزينه بقع الزيت والتراب المجبول بكدمات صغيرة.

احتفظ إلى جوارها برائحة الخروج المهين، وذكريات الطرق التي عبر بها أقدامه العارية من الوطن.

يخرج تلك الباقايا العفنة من حين لآخر في طقوس غريبة هي أشبه منها بعبادة وثنية يصاحبها بكاء ساخن، ولطم للصدور.

يغلق الغرفة على نفسه، يتحسسها كأنما يتحسس جسد حورية من المرمر، يسقي منابت شعرها بدمع عينيه، يُقَبلها أحياناً، يتأملها. ويتدرج بفكره المتقد بين الحوادث التي شهدتها وغابت عنه، يَشْتَمُّها بملء رئتيه ويتذكر.

مسكين جدي، عاش حياته التي عاشها في المخيم بلا حياة، بعد أن ترك أشياءَه كلَّها هناك.

تأتي عليه لحظات، تخاله قد مات هناك. وأن الحاضر بيننا ليس سوى شبح شيخ قديم ضلَّت به الطريق منذ ستين عاماً دون أن يتمكن من التعرف على المكان وأهله.

وكان له أفكار غامضة عن المكان المهجور من أهله، يتذكر الأزقة والطرقات والمسارب. يعدُ على أصابع يديه أحجار الدار المرصوفة على جنبات البيت، يتحسس المدبب منها كأنها دُمّل شارف على الإنفجار، يتأكد من وجوده. يُقدّرالمُدَّة المتبقية لموته، وكان يُصرّح أحيانا بأفكار غريبة من غرابة حزنه وواقع المخيم الإفتراضي الذي يستعصي وجوده على فهم الغزاة أنفسهم.

كان يظن مثلاً، أن شجرة التين الوحيدة في حاكورة البيت، ما زالت تنتظر الرعاية التي اعتادتها أغصانها. وأنها لم تتجب منذ ذلك الحين. وأبقت على أجّنتها كلها بعدد السنين، أبقت عليها، لحين عودة أهل الدار.

يدهنها بالزيت في المساء وتغدق عليه دون حساب في الصباح.

أما الآن فلا تجد من يمسد جراحها ومن يدهنها بالزيت ولا يجبر كسورها ويشذب أغصانها او يزيل الأوراق المتساقطة منذ عقود الخيبة السابقة للرحيل.

وكان يظُن إلى درجة الإعتقاد، أن الأرانب التي تركها وحيدة هناك مازالت تتضور جوعاً منذ عقود وأنها على عكس الحيوانات كلها شاخت دون أن تجدد نفسها بنسل جديد.. واستطاعت أن تعيش بالحد الأدنى الذي يمكنها من البقاء.

يلح في حديثه الغريب الغامض. ليصرف عنا فكرة الخرافة. يحدثنا عن بيارات البرتقال والليمون، عن الأشجار التي نمت دون أن تجد من يجمع ثمارها. ويتخيل البيارات ممتلئة عن آخرها بجثث الثمار الميتة سنة تتلوها سنة.

عن البير الغربي، والماء العذب الزلال. عن الزيتون والزعتر. عن قمح البيادر، عن سعودات الشتاء، عن السهر والسمر وليالي الصيف ومواسم الفرح المتجدد. عن التفاح ورائحة الخيار، عن فقوس الحقول وفول السهول.

عن دونمات واسعة، ممتدة على مرمى البصر التي كان يملكها من بعد أبائه وأجداده ويردد بفرح مجزوء.

_ "*الملك لله*".

نصدقه ولا نصدقه، وتكاد عيناه لا تصدقان خيالات رأسه. ينصرف عنا، ويغرق في حديث رأسه، نسمعه من بعيد يتمتم كلمات متقاطعة، حول الحمار الذي تركه مربوطاً في باب الدار. وعن أربع دجاجات بلديات وديك.

وكان بشأن الدجاجات له رأي مغرق في غرابته، يعتقد أنها – أي الدجاجات الأربع والديك – ربما تكون قد وصل عددها إلى ثلاثة ملايين نسمة، بين دجاجة بياضة وأخرى لاحمة وبين ديَكةّ نضج صوتها، وقل غرورها وزهوها بسذاجتها وضعفها، وصيصان صغيرة تعتمد على نفسها مباشرة بعد أن تفقص من تحت رقاد أمها.

كان جدي أسطورة مركبة، يحبه الناس ولا يفهمونه، وفي جعبته قصص كثيرة لا تنتهي. بعدد الناس والأيام، بطول قامة الوطن وعرض أكتافه.

كان المخيم يتسامر على أحاديث رأسه الغريبة تلك.

يتبادل الناس أحاديثه وقصصه الغريبة وأشلاء ذاكرته المنسية، يتبادلونها بين الأزقة وفي الغرف المغلقة وفي الصباحات الكئيبة، على مائدة الطعام وأثناء الإستحمام. وبين النشوة والخيبة، قبل صلاة الفجر، وبعيد صلاة العشاء.

لقد عاصر القرون كلها، مثلي؛ أو أنا مثله احتراما.

لا أجد تفسيراً لظاهرته الفريدة، غير أنه عاش الوطن السليب، وأقسم ان لا يأتي زوجته، إلا بعد أن تعود فلسطين.

أمضى سنة وسنتين كما قال لي، دون أن يقترب منها.

وعندما أتته الرغبة في الخيمة لأول مرة، بين الأجساد المصطفة، في ظلمة العتمة، وقلة الماء، وبرودة الجو، وتلصص الجيران – ولا جيران في المخيم – فالمخيم بكله بيت واحد تفصله أستار هشة هلامية عن بعضه البعض وفيما بعد استبدل القماش بالطوب النافذ لهمس الليل..

أقول، عندما أتته الرغبة في ظُلم ليل المخيم. انطفأ حماسه لفلسطين، وأنجب أطفالاً بلهاء، مقعدين. لا يعرفون الحساب ولا التاريخ، ولهم عيون كسلى، وفي دمهم يجري إكسير الخروج والذل والرغبة في العودة إلى جوف الأرض.

كانت تأتيه الرغبة -كما كان يقول- في العام مرة أو مرتين، يبكي بعدها بعيونه كلها، وتنام جدتي إلى جوار خيبتها فيه.

لقد فقد سطوته فيها وخسر فحولته القديمة.

وكان يستعيظ عن المفقود بالصراخ والعويل، وبرسم تكشيرة لها تعاريج جبال فلسطين.

كان لجدي الأثير ذكريات لا تتمحي من زوايا المخيم، مع الأطفال والنساء والرجال والشيوخ. ومع الحجارة والأزقة وزخات المطر.

يجلس في زاويته الأثيرة يعد أطفال المدرسة في عقله، طفلاً طفلاً، يسأل عن من لم يحضروا، يطمئن على استعدادهم للدروس وتحضيرهم للواجبات، ويُعِدُّ لهم، ذكوراً وإناثا، وجبة الإفطار، ويربط لهم أحذيتهم.

وعندما يسألونه عن مصروف الجيب، يُخرج من جيب قمبازه الصغير، شلناً فلسطينياً يعود لما قبل النكبة. ينثره في الفضاء، فيستحيل بقدرة قادر إلى تعاريف على عدد الأطفال، يأخذونها بلهفة ويمررون شفاههم الرقيقة على يده اليابسة كجذع كزيتونة قديمة ويمضون إلى دروسهم.

يشكرون جميله، وفي كل يوم عدا أيام الجمع يتكرر اللقاء.

لجدي المرحوم ذاكرة حادة في تذكر الأحداث والأسماء والأشخاص والحركات.

جدي المسكين كان شجرة زيتون مغروسة في غير أرضها في تراب المخيم الخالي من الحياة، كان يجاهد الزمن في نفسه، يتصبر، يثور، يزمجر، أو يلقي بنفسه في حضن الشمس في الصباحات أو قبيل المغيب. وفي الليل، يتربع في حضن القمر. كان يعتقد أن لا أحد في هذا الكون يستحق أن يبثه شكواه سوى للشمس أو للقمر، وكثيراً ما كنت أصطاده يتحدث بالهمس للشمس، ويرنو بعين عاشق للقمر.

وكان على تقلب مزاجه وقسوته، رومانسياً من الطراز العجيب، تهزه الذكرى. ويطرب لحالات العشق القليلة التي تمر بالمخيم بين الحين والحين.

كان لا تحدث قصة حب في المخيم، إلا ويكون شاهداً عليها. يرسل الورود الحمراء إلى عشاق المخيم في عيد الحب على حسابه، وتأتيه العذارى لفك طلاسم الرجال في المواسم.

يقدم النصائح للنساء، ويترك العذارى يتدلهن بجهلهن كعصافير الحقول.

يقدم لهن الملاحظات الدقيقة والمهمة، يعرّي أسرار الرجولة في العَلن، ولا أسرار للرجال، سوى الرغبة والتملك والتزلف والغضب دون سبب.

وكان مضطلعاً بحكمته القديمة على أسرار النساء الغامضة، لكنه لم يكشف أسرارهن الغامضة تلك لرجل سواي، وليته لم يفعل.

كانت تأتيه النساء في الأوقات كلِّها، وبفطرتهن يدركن مواسم الكآبة التي تغمر قلبه كما تغمر الفيضانات السهول، يسكبن الشكوى بين يديه، يصمت ويطبب فيهن خون الزّمن وغيبة الرجال.

يهدهد وجعهن الأزلي، وخيبتهن فينا. يقدم الوصفات التي يستخرجها جاهزة من الجيوب الداخلية لقمبازه الداكن تارة، وتارة من أسفل طاقيته المطرزة وتارات من أسفل كُمه أو من ثقوب الجدران المجاورة، وما أكثر الثقوب في المخيم.

تطمئن نفوسهن للساعة، ويعاودن القدوم إليه في كل الأحداث والمناسبات، وعقب الخيبات، وفي اللحظات القليلة التالية للنشوة.

كان له مزاج غريب، وصبر لا ينفذ مع النساء، فيما كانت جدتي، الإستثناء الوحيد.

يطلُبن منه كل شيء، ولا يطلب هو منهن سوى شيئاً واحداً، أن يُبقينَ على خصوبتهن وينجبن الأطفال. ويردد بحرقة الملتاع.

"..ربما تلد النساء مرة أخرى صلاح الدين أو شبلاً له قامة قطز."

يُراهن على صُدفة عمياء، تُلقي في أحد الأرحام بذرة البطولة. برغم يقينه أن المشكلة في الرجال، فما عاد الرجال يحملون بذورة البطولة.

كان جدي الحزين، يعلم أن كشف أسرار النساء أمام الرجال، سيجعلهم أكثر زهداً فيهن. وكان هو يعلم بخبرته الطويلة أن النساء على ما يدّعي الآخرون سهلات الفهم والحفظ والنسيان. وأبقى على السِّر، بعيداً عن أيدي الرجال، كي لا تستحيل الحياة إلى حظيرة أغنام، ويتلاشى الحب من الدنيا، وتتوقف على إثر ذلك حركة المطارات والقطارات، ويموت الزهر، وينتحر الريحان، ويكتب

الورد وصبيته وينتحر في المروحة المعلقة في الحديقة بين سقف السماء وأديم الأرض.

كان يدرك أن الحفاظ على السر المقدس، مهمة كونية، كلَّفه بها القدر.

وكان على قدر مسؤولياته كلها، يصفع الرجال إذا خاصموا نسائهم، وإذا شاهد يوما عذراء ثابتٌ عذريتها تبكي، يمسح دموعها بطرف حطته البيضاء، يطعمها من الحلوى الباقية في جيبه، ويكتب لها وصفة تطامن حزنها. فلديه وصفات لقتل الحب الراكد، وأخرى لإدامة الثورة داخل القلب، ووصفات للرجولة المبتورة، وأخرى لإدامة الصبر وانتظار اكتمال القمر.

كان جدي أسطورة طهاها القدر على نار هادئة. وأسرف في رش الملح على جراحه.

كان المخيم يستوطن ذاكرته بكل أزقته وحواريه، بسكانه بأطفاله، ببناته ومواعيد حيض نسائه.

كان المخيم وجعاً أزلياً لا شفاء منه سوى بالموت أو العودة.

مسكين جدي. بقي يظن أن العودة حلم صيفي، سيتحقق في الغد، وفي أبعد تقدير في اليوم التالي للجمعة المقبلة، أو في الشهور التي ستلي الخريف.

كان يتردد بين الإيمان والكفر حسب مزاجه.

إيمان بجلال القدرة التي لن تتركه عرياناً أو مهاناً. وأهازيج قديمة عن الإختبار والصبر. وعن وعد السماء بنصرة المظلوم، وهو جالس في أزقة المخيم المتلفعة برطوبة الساعات، يقتل الساعات

بالساعات يعد الأيام، يهرب من واقعه قبالة الشباك الواطيء المطل على شجرة الحامض الهزيلة، يحدق في المجهول وفي المارة، يحصي طيور الجو ودواب الأرض الهائمة. يدخن دخانه الرخيص، ويداخل روحه إحساس العدم.

يفترش سخام الأرض، ويغيب خلف غيوم كآبته السوداء.

في ليالي كثيرة، يصحو أهل البيت في عمق الليل على صراخ، وعويل كأنه نوح النساء.

ينوح، يلطم صدره، يترحم، يلعن، يهذي، يغني المواويل أحياناً، ويبكي أحياناً أخرى. في لحظات تمتزج فيها أحلام رأسه بهذيان الليل وأحلامه.

تعاوده هذه الحالة على فترات مختلفة، تتسارع في المواسم وعقب المطر. وقد اعتاد أهل البيت على حالته تلك.

في الصباح ينسى ماضي ليله، ليقوى على بدء نهار جديد. يصحوا لصلاة الفجر كعادته. يحوقل على شيء لا نعرفه، ويبدأ بالتهليل والتحميد وقراءة قصار السور.

ينادي الحجة بأسمائها كلها.

فلها أسماء كثيرة أثيرة عنده. أو ربما يرفسها بقدمه.

تفرك عينيها، تلعنه في سرها أحياناً. فيما يحاول بين الفينة والأخرى ايقاظ الآخرين. لكنه يفشل كعادته في اقناعهم بالتخلي عن النوم للقاء الله في الصباح، وتستمر خيبتهم..

يردد..

" الله لا يهتم بالنائمين. يتركهم يغطون في نومهم، حتى تتفسخ جنوبهم. وتتعفن عقولهم. "

ذات مرة، حاول أن يوقظ عمي "عدنان" لصلاة الصبح.. وكان الأخير يملك عينين نافرتين كأنفه، تبدوان من بعيد، كأنهما زوج من الدمامل الناضجة على وشك الإنفجار. صاح عمي في وجهه على غير عادته، كمن يكمل حلماً ليلياً مزعجاً.

_"ماذا صنع الله لك طوال السنوات التي أجهدت نفسك في عبادته.."

ودفن رأسه ببقايا أحلامه وباللِّحاف الشتوي..

ليبدأ جدي سمفونية اللعن الصباحية، على البيت وأهله والمخيم وساكنيه وعلى وكالة الغوث والعاملين فيها دون أن يستثني أحداً.

أقول، عندما مات جدي وأتذكر الآن، أنه قام من قبره وجلس في ثياب الموت التي أعدها بنفسه لِلّقاء الذي تأخر كثيراً كما كان يردد، والتي لبسها قبل موته بقرون. جلس من فوره وسط ذهول المشيعين وفزعهم، وألقى خطبة عصماء لم يسمع بمثلها أحد من قبل. تحدث عن حياته وموته القديم.

وعهد إلى الشباب أن يتعلموا "الكمبيوتر" أن يتسلحوا بالعلم أولاً وقبل كل شيء. وعهد إلى البنات أن يطعمن الأرانب والدجاج. ويدخلن المدارس ويتعلمن اللّغات وفن طهي الرجال على مواقد الرغبة.

وقبل أن يُغلق القبر على نفسه، نادى على المشيعين واحداً واحداً، كلّ بإسمه، وهمس في أذن كل واحد منهم بما يعنيه ويدخل الفرح والأمل في نفسه. وبحركات سريعة مدروسة كأنما عاد له شبابه فجأة، أغلق القبرعلى نفسه، وغادر الحشد يحدثون أبنائهم ونسائهم عن معجزة الشيخ العجوز.

وفيما كان المشيعون يغادرون المكان، سَمعوا صوت ضحكاته الرنانة من تحت التراب، وهو يتبادل النكات والحديث المثير مع ناكر ونكير، وسَمع الجميع، صوت تمزيق "كرت المؤن"، وصوته وهو يَلعن الساعات كلّها التي احتفظ به، بعد حديثه القليل مع ملائكة العذاب والرحمة.

بقيت أسطورة جدي يتحدث بها الحاضرون ويرونها لأبنائهم جيلاً بعد جيل.

جدتي سيرة ذاتية

(11)

أما جدتي. فلها ابتسامة ممزوجة برائحة الحناء وخلاصة زهر اللّوز. ولها من المعادن صلابتها ولمعانها. ومن الورد خجله وغيابه. ولي عندها مشاعر تركتها في حجرها وهي تمسد شعري، وتبكي على يتمي المُبكر، دون أن يبلّلني دمعها.

جدتي كانت شجرة زيتون قديمة. زرعها الإمبراطور الروماني "تراجان" في زيارته الأخيرة للمخيم، فلها جذور ضاربة في عنادها، لا تأمن التراب، ولا غياب المطر.

جدتي لم تكن هي نفسها. وهذه أسطورة أخرى. من أساطير العائلة المتعددة.

فقد استبدلت بامرأة أخرى لها لون عينيها المعدنيتين. ولها لون بشرتها وطول قامتها وسعة صدرها. وعلى جبينها الواسع، كانت ترتسم خطوط الطول والعرض وجغرافية فلسطين.

جدتي تلك بقيت في البيت ورفضت الرحيل. كان حنينها أكبر منها ومن عزمها. جهد الجميع وقتها في إقناعها بالرحيل عن الخطر. والبقاء بعيداً عن زخات الرصاص وحبات المطر. ومن وقتها وهي تخاف المطر، وتعشق صوت الرصاص.

بعناد غامض، أصرت على البقاء.

قالوا لها من خلف جفونهم العارية من الصدق.

_" ***بالكثير، سنعود بعد يومين أو ثلاثة..***"

قالت في عناد النساء الأزلي الجميل..

_"***سأحرس البيت حتى تعودوا..***"

لم تفلح محاولاتهم في اقناعها بالخروج. رفضت، صرخت، أصرّوا عليها. تمسّكت بشواهد القبور، بالشاعوب بالمنجل، بحمار الدّار، بالمعلف، ربطت نفسها بشجرة اللوز الهرمة، حضنت خوفها ورجائها

لكن أنصاف الرجال.

قطعوا الشجرة.

قتلوا حمار الدار.

ونثروا الرمل في المعلف.

أمسكوا بها من يدها.

وفقط، استطاعوا أن يقتلعوها من شعرها.

في طريقها. أخذت عفش البيت وحلق الباب ومكنسة الدار. أخذت الشاعوب والمنجل، وطاحونة البيت الرخامية.

عند الباب الخارجي للبيت، انتصبت فجأة في وجه أنصاف الرجال. وبقوة عشرة رجال أفلتت يديها منهم، حفرت حفرة وغرزت جسدها في ساحة البيت، أطلقت شيئاً من الدخان، وتمتمت بدعاء لم يفهمه أحد. أشاحت بوجهها عنهم جميعاً. وأطلقت بصرها في عمق السماء.

فجأة، خرج منها امرأة أخرى. لها منها طول قامتها ولون عينيها.

تركها الجميع هناك دون أن يفهوا السّر، ولا طهو القدر. وبقيت جدتي تلك هناك، لا نعرف عنها شيئاً. لا نعرف طعم عجينها ولا رائحة فمها. بقيت مغروسة هناك في قاع البيت القديم. تحرس

زيتون المواسم، تقطف الليمون وتطعم الزعتر. ترعى الماشية، تربي الأرانب وكلب الدّار. تسامر النجوم، تقاوم الغزاة. تطعم الدواب الهائمة عقب الخروج المهين، تطبب جراح الحمام وتأوي العقارب والأفاعي التى هزها الحنين.

من ماء عينيها تشرب الغربان بعد أن جفت الينابيع والغدران. وفي المساء يصطف على باب منزلها العامر بالفرح عشرات الضالين والجائعين والمرضى.

من شتى الأجناس والمذاهب والأديان.

هذا رجل قلعت عينه رصاصة.

وتلك أضاعت مفتاح الدار وجاءت تقضي ليلتها إلى الغد.

يقفان تماماً في نفس الصف التي تقف فيه نعجة شارفت على الولادة. وليدها يمزق أحشائها ولا معين.

ومن فوقهم، ترفرف أسراب من الحمام القديم، توقف عن إصدار أصوات الحنين القديمة واستبدلها بأناشيد الصمود والمقاومة والبقاء.

استطاعت جدتي القديمة تلك بعينيها المعدنيتين، أن تشكل جيشاً جراراً من الحيوانات الأليفة.

وأن تُدجن أنواعاً جديداً من الأفاعي والحيوانات المفترسة، كي يساعدوها في إدارة شؤون المملكة البائدة من بشر وشجر وحجر، وحيوانات عجماء، سوى من شوقها إلى الدار والجبل ولون الوقت الباقي.

بقيت وحدها تدير المملكة بحنكة الرجال، حتى يعود الرُشد الي ملوكها وحكامها ووزارئها وقادة ألويتها. ويصحوا من غفوتهم الأزلية.

وقتها. ستتنازل جدتي، صاحبة العينين المعدنيتين عن الإمارة لأصحاب السيادة. فهي أكثر الناس زهدا في الإمارة. وأكثرهم إخلاصاً وحباً للوطن.

أما جدتي التي تعيش معنا. فلها منها النزر اليسير من الصفات، تجاهد البقاء، وتمتص البقايا القليلة الباقية من أيامها في الدنيا. كي تزرع بيتاً للزعتر، أو تقطف حبة ليمون من حاكورة البيت القديمة.

والدي الشهيد

(12)

لوالدي الشهيد، صورةٌ في وجداني باطار إسمنتي، رسمتها بألوان التمبرا، غير صورته القديمة تلك، بالأسود والأبيض التي تتربع في صدر البيت وقعر الذاكرة منذ رحيله عقب هزيمة حزيران، تذكرنا صورته القديمة بغياب الرجال وتذكرني أكثر بجدي.

كان له حدة عيني جدي وقوتهما. وله منه أنفه الغامض. وصمته المفاجىء، ورائحة عرقه.

لا أعرف طول قامته، ولا رائحة فمه، فلم أقابله البتة. وحملت بي أمي منه قبل النكسة.

لي منه لون شعره، عندما كان الشعر يستوطن رأسي. وله مني استدارة الوجع. وعمق النظرة، وحرارة الإنتظار السابق للّقاء.

أحملق في عينيه الصافيتين فأرى حزناً مترسباً في قعر روحه، فيما بعد توالت الأحداث مجتمعة مهمة القدر المستحيلة في تحويل الحزن المترسب في قعر الروح إلى وقائع نعيشها دونه.

أحملق في إطار الصورة المتهالك المتسخ. وقد رسم الذباب على حوافه ملمساً معقداً.

كلما نظرت إليه. انتابتني مشاعر متناقضة غامضة وبلهاء، لا جذور لها. أود تقبيل الصورة، لكن الذباب الذي يرسم قدره على إطار الصورة، كان يشعرني بالعزوف. فأفقد الرغبة.

في الخامس من حزيران، غادر سواد ليل المخيم على عجل، وانضم إلى المدافعين عن عروبة القدس.

واستشهد هناك.

أمّي كانت شجرة نخيل

(13)

أمي كانت شجرة نخيل باسقة؛ باكراً توقفت عن إنتاج الثمر. لَمّا يزل في أحشائها ملايين الأجنة الجاهزة للتلقيح. لكنها آثرت البقاء خارج الصورة، كشجرة للزينة، تحرس باب البيت ويستظل بظلها العابرون.

أمي لا ملامح لها سوى الكآبة. وعلى صفحة وجهها رسم الإسكندر خطته للهجوم على بلاد فارس.

كنت أشاهد " قورش" الفارسي مضرجاً بدم رأسه. ومن حوله القادة والعسكر، يهرولون.

أيها التاريخ القديم تقدم، ويا أيُّها الليل، لا تَبقى طويلاً في المنزل، فيعبق البيت بالوحدة ومزيج الذكرى المعقد.

أسفل عينيها، ارتسمت دوائر دخان له طعم حامض، في كل سنة ترتسم هالة تماماً كالشجر، دوائر للحزن، لا يجلوها ضحك الزمان، ولا قامات الرجال.

لها تاريخ قبل النكبة، لا أفهمه، ولم أعرف تفاصيله. مليء بالتفاصيل الصغيرة، أحداث كثيرة، سبقت النَّكبة وتلت الخروج المهين، تتحدث به في أوقات هدءَتها.

عن الصبية، عن البحر والجيران وحمام الدّار، لا يلتصق بذهني، سوى خيبتها، بعد أن ترّملت بعد النكسة. وجلست بعدها على قارعة الوطن تَعُّد النَّكسات القادمة، الواحدة تلو الأخرى، وفي كل ليلة تعيش نكستها الخاصة، بين الجدران العارية من الرجال، وذاكرتها الموتورة بالصور.

الكأس المقدسة (أختـي)

(14)

أختي الوحيدة التي سبقتني في الولادة وسبقتها في الحياة سأبقي على سرِّها بعيداً عن أعينكم جميعاً.

شربت ذات مرة من الكأس المقدسة، كتلك التي اغترفتُ بها من بئرك المحرمة، وبقى خمرها يسكرني السنوات الباقية مني. لم يتسع المخيم بعرضه واستطالة سمائه لروحها المتقلة -على عكس العادة- بالمرح وثقافة عشق الحياة.

هربت إلى المجهول، تحاكي العصافير في شدوها، لم تنظر إلى الخلف البتة ولا ترى سوى نور عينيها، وهامة وطن يطاح به في الأوقات كلها.

لها الآن ما لا يحصى من الأولاد والبنات، تزوجت مرات عديدة، قتلت بروحها الخفيفة أزواجاً كثر، وطلّقت مثلهم، لم يحتملها مزاج المخيم المعكور بذاكرته القديمة.

تعيش اليوم، خارج المخيم على الضفة الأخرى لحيرته. ترعى المخلوقات الصغيرة، التي تعتاش على السكاكر الباقية من جرحه.

أخلاق الغجر (عمي)

(15)

لعمّي "عدنان" أخلاق الغجر وطباعهم، يحبون ويكرهون حتى الموت. إذا جاعوا لا يأكلون، وإذا أكلوا، تنفتق أمعاؤهم.

وله سذاجتهم ومكرهم، وطيبتهم وحزنهم، ومثل الغجر تماما، ترك المتاع والزوجة والأولاد ذات يوم، وانضم إلى صفوفهم، يضرب الودع ويغير الزمان، ويعيد ترتيب الأوراق التي بعثرها ريح الشمال.

فالمخيم على قصر قامته، وحلكة لياليه، كان متنوعاً من تنوع تضاريس الوطن.

كان لي عمٌّ آخر، لا أذكر اسمه الآن، باع نفسه للشيطان. وتَعرّتْ سوءته مرتين. خانته أيامه ومضى هو الآخر في عناد قلبه، مثلي تماماً، فنحن نرث العناد مع لون عيوننا واستدارة وجعنا.

تاريخ هذا الوطن، وهذه العائلة يا سيدتي. شبيه بتاريخ الصين القديمة، ومتنوع بتنوع آلهة الهند ولغاتها.

كانت عائلتي وعوائل المخيم، كل منها، وطناً. تسكن المخيم، ويسكنها الوطن. وجعها ينبت برغمها من تحت أظافرها، وتملك حيرتها في جيوب معطفها الداخلية.

ولها برغمها، مشاعر داخلية تجاهد الوقت في إخفائها، ربما كي لا تنبعث منها رائحة العذاب، وصبر الإنتظار.

الفصل الثالث

سِفْرُ المُخَيَّم(1)

(16)

قبل أن تذهبي للقائك الأخير مع القدر، سأرسم لك لوحتين للمخيم.

انتظري لتنظري من أنا، وأي قدر ساقني إليك.

انتظري قليلاً وشاركينا الإنتظار الأبدي المثير للضجر. وبإمكانك يا سيدة الغرفة الثمينة، أن تضعي النظارة السوداء على عينيك، وأن تقولي ما تريدين، عن العيش والبقاء والنوم في العراء، والتلصص على أجساد النساء المسلوخة، عبر الشقوق وبين الأزقة والحواري المثقلة بالغبار وقذى العيون.

بإمكانك أن تضعي نظارتك الشمسية السوداء، على عيونك البرتقالية. فللمواجهة طقوس خاصة.

تجوبين أزقة المخيم بالكاميرا الخاصة لإلتقاط الصور، تماماً كما يفعل أصحاب البشرة المشربة بحمرة الخجل، يأتون إلى المخيم ليشاهدوا مزارع الأرانب البشرية، ويأخذوا بعض الصور التذكارية، من أرض الخراب، لسكان ما قبل الحضارة.

يضعون نظارات عيونهم السوداء، على قلوبهم الكاذبة. لكي يخفو تورطهم في التعذيب الليلي. وتورط الصغار والمارة، في تعذيب القطط الأليفة.

ولا تنسي أن تلبسي بنطالاً قصيراً يشف عن ساقيك الجميلتين وألبسي حذاءً رياضياً للسرعة.

في سني الشباب؛ ولا شباب في المخيم. مرّت الساعات بحيرتها، بخجلها بدمعها وعتابها وأسئلتها الكبيرة الجاهزة لجَلد الذات في كل مرّة، تغيب الساعات ويحضر وقت الزحام، والقلب مقفل على أفراحه كلها.

حدثت أشياء كثيرة، لا يحصيها الزّمان، غيرت فيها الأيام جِلدها مرات كثيرة. ووحدها المناسبات الحيرى بين الفرح والحزن تطرق الأبواب المقفلة على أصحابها؛ يغزو الشيب مفارق الرأس. يدق الحنين الرؤوس برتابة لكن بإصرار، يسير الناس في الطرقات دون هدف؛ ولا طرقات في المخيم سوى أزقة، تُذَكِّر المارة بضيق المكان، وضحالة أحلامهم.

يتنفسون هواء ممزوجاً بروثهم، وتقابل عيونهم عوراتهم في مرآة أسطورية نصبها القدر في كل زاوية وخلف كل زقاق. تُذَكّرهم بُعريهم أمام الوقت والزمان، تشهد لهم بسواد وجوههم، وقلة حيلتهم أمام عبور الأشهر بأسمائها.

تصطف البيوت إلى جوار بعضها كأنها دمى صُنعت على عجل من الكرتون الصلب. أو شكّلها أطفال يعشقون التجريد من مخلفات الورق.

من قريب؛ تبدو غرفاً يسكنها بشر، لهم أنوف تتنفس الهواء وأفواه تأكل الطعام، يمارسون الحياة والعادات في السِّر والعلن تماماً كما تمارسون.

من بعيد؛ يبدو المخيم كأنه مخلفات بيوت هجرها أصحابها، واستوطنوا الجبال لبعض الوقت، كي يعيدوا ترميم قلوبهم.

لا فوارق ملحوظة بين البيوت، فَكُلّها من لون واحد، وأبعادها رسمها طفل يعبث بقلم رصاص. لا أسوار تحمي طيب الجوار، ولا احداثيات تشي بالبعد الثالث للأيام وساكنيها، كأنّما أقيمت على عَجل وبقيت طوال الوقت، تحاكي لعب الأطفال.

يتشاجر الخارجون من الرحمات على الأشياء كلها، على الأمتار والأفتار، على النوافذ المشرعة، على الأقوات، على الماء والهواء ونزول المطر.

يتخاصمون على بقايا الذاكرة، يتشاجرون، يتعاتبون، ويضرب بعضهم بعضاً أحياناً، لغير ما سبب. سوى فراغ الوقت منهم، وفراغهم من الوقت، ولا وقت في المخيم.

لم أكن استثناءً، فأنا الفراغ، وأنا البقايا الحزينة لتجارب كانت ذات يوم لها شرف التجربة.

يرقد المخيم في أحشائي، يمارس الطقوس والعبادات غير التقية، يرقص على الأحزان على غير العادة، يماحكني بسيره على البساط المهترء، يتبختر، يتعجرف، يناجي الليل والمكان وخون الأصحاب. والليالي الكثيرة التي خلّفها النسيان وراء ظهره، وأبقى على انعكاس صورتها في صفحة القمر.

أرقب الأمكنة بعين الغريب المشتاق إلى الألحان، بقلب العابد المتبتل إلى الذكرى. أطالع صفحات الوجوه، وألوان النوافذ المشرعة على العري، ولا ستر في المخيم. أطالع التاريخ وأرجو أن يطالعني، أن يتذكر مرة واحدة، ماذا فعل بنا.

فلتعد أيها التاريخ فتح دفاترك القديمة، وتراجع السجلات الغافلة، المركونة في الشرفة السفلية، في الطابق الأرضي، في الحي الشمالي للمنطقة الغربية لصفحة القمر.

هناك ستقرأ..

أنني لست أنا، وأن نوافذي المشرعة على العري والخيبة، ليست نوافذي في الواقع. وأنني جُلبت إلى هنا رغماً عني. وأنني لم أشارك في هذه المهزلة، كلا ولا يسرني، أن أكون بطلاً في ملحمة مغرقة في تراجيديتها.

ستقرأ..

أن عاداتي القديمة لم تكن تبيح العري، أو تجيز فتح النوافذ على وسعها، أو النظر عبر الشقوق الأزلية للذاكرة، أو التنصت على عذابات الشوق الصادرة عن الزهرة.

أريد منكَ أن تتذكر ليالي السهر الطويلة على الشرفات، حيث تواعدنا ذات ليلة أن نَعُد سَبل القمح المزهر. نستثني من العد السنابل النائمة، نداعب الأغصان كلها قبل القطاف، بالزيت ندهن ثمر التين، ونذّلك الأغصان، ألا تتذكر، عاداتنا القديمة، ومفردات عشقنا القديمة، ألا تتذكر أيها النائم في أحضان السواد كشامة سوداء في وجه الحبيبة. أم ساقتك الساعات إلى الخون والنسيان، ولا تجد الوقت للتذكر، وعد السنابل من جديد، وتدليك الأغصان.

أنت خائن مثلي تماما للقدر، وذاكرتك مثلي، مليئة بالبثور وتهترء مباشرة بعد الإستعمال ويجب تبديلها عقب كل صلاة.

تذكر أيها القمر، ما ستراه في المخيم، لستُ أنا، هذا المكان لا يخصني، وهذه الطرقات لا تعنيني، وهذه الأزقة تُحكم الخناق حول عنقي، تمنعني من التنفس والحلم ومشاهدة صفحة وجهك القديم.

سِفْرُ المُخَيَّم (2)

(17)

تُرى، هل تعرفين المعاني الكامنة خلف الشرفات.

هل تقرئين الألم والنكران. ويضيق صدرك ربما بتفاصيل الفرح. هل تعرفين كيف ينام الصغار بمعدة فارغة من الطعام والإحساس بالطمأنينة..

ماذا تعرفين عني ؟؟

هل ابتكر العالم جهازاً لقياس الأمل. أو معرفة مستوى الكآبة التي تتوارثها أجيال المخيم، كما تتوارث لون عينيها وقصر قامتها.

هل تملكين أنتِ، أدوات القياس اللأزمة لضغط الفرح، أو درجة تسريب القلب لمشاعره المخبوءَة تحت بلاط الدار.

هل تستطيعين سبر أوجاعي بمقياس الزمن.

ترى، هل تعلمين كيف؟ ومن أين أشرقت أول شمس في المخيم؟

وكيف تَعلّم الصّغار حروف الجّر. وأتقنوا الحساب، وكرهوا التاريخ.. وتعثروا في خرائط جغرافيتهم، ورضعوا الحقد على الغزاة.

هنا..

ابتدأت الحياة في مساء يوم طويل ماطر.

بذكريات موحلة وليلة غاب عن عرسها القمر.

شبيهة أولى أيامنا، بأيام الإنسان البدائي. متعثراً بخطوه، مبللاً بِبَولِه، منكوش شعر الرأس، منقوص العافية. مرتبكاً مهموماً، يخشى هبوب الريح وصوت المطر.

كما ابتدأ الإنسان الأول حياته الأولى. بدأت الحياة في المخيم. بأدواته البدائية، بملابسه التي تقيه الحُب والبَرد وتخفي عريه عن عيون الشجر.

بوسع طلاب المدارس، وعشاق فن ما قبل التاريخ، أن يشاهدوا صوراً حية من حياة الإنسان الأول في ألبوم مدهش للصور، يمثل مراحل حياته كلّها في تسلسل أسطوري يصعب على الذاكرة الحية أن تحتفظ بتفاصيله كلها.

بوسعهم، أن يتصفحوا وجوه النسوة الهرمة، يقرأوا فصول الوجع من قتامة الهالات السود تحت عيوينهن. ويشاهدوا شعرهن المثبت بالوحل تماما كنساء "الهوموسبيز".

وإلى جوارهن يُقعي أنصاف رجال، لأفواههم رائحة عفنة، وتحيط بهم هالة صفراء فاقع لونها، تدمي النظر.

بوسعهم أن يرو الرسوم البدائية على جدران المخيم. تماما كرسوم الإنسان البدائي على جدران الكهوف. ويقرأوا الرموز وشيفرة الوجع والأمل والخسران، والتنوع وغياب الرؤية.

"فلسطين لنا.."

" عيدنا يوم عودتنا.."

".. فتح مرت من هنا "

" الموت والعار للعملاء "

" تحية للقائد الرمز أبو عمار.."

" لا لشطب حق العودة.. "

" لا لزيارة شولتز.."

"..فلتسقط، كامب ديفيد "

" لا للمفاوضات مع اليهود "

"عائدون رغم الحدود والسدود"

" القدس عروس عروبتنا.."

" الدم يطلب الدم، والشهيد يحيي الملايين."

" لا للحلول الفردية.. "

"حماس نور ونار وسلاح وانفجار"

".. لن نركع ما دام فينا طفل يرضع.."

" لا لخطة دايتون.."

" تحية إلى القائد الرمز جورج حبش.."

"فتح إذا قالت فعلت وإذا فعلت دمّرت"

" لا لزيارة رايس .."

" لا للفساد.. وللمحسوبية.."

"الميركافا صنعت في أمريكا وطورّت في إسرائيل ودمرّت في غزة "

" وحملتُ رشاشي.."

" حماس هي الأساس.."

"عدنا لنقاوم لا لنساوم"

" نموت واقفون ولن نركع.."

"الحرية لرمز الإنتفاضة القائد مروان البرغوثي ولكافة المعتقلين"

" نعم للمقاومة.."

" نعم للوحدة الوطنية.."

" نعم لفك الحصار عن الرئيس.."

وصور تجريدية بالألوان الأساسية للخروج، تماماً كرسوم الكهوف. تملأ الجدران بالصور، وبألوان بدائية تفتقر للتركيز وضوء النهار.

مشاهد استعراض للسلاح، ووجبات صيد، مشاهد مطاردة الجنود للصبية، وبعض المعدات الخاصة بالغزاة. لا يخلو الأمر من اشارة عابرة لطيف حب عبر المخيم خلسة، يتعثر في خوفه وخجله، ويعدو الصبية خلفه في كرنفال شبيه بعودة المهزومين بعد نصر صغير.

رموز تجريدية لا يفهمها سوى أهلها. تماماً كرموز "الكاتاكومبز" في العهد المسيحي الأول. المفتاح، القضبان، الأسلاك الشائكة، الحمامة، البندقية والجامع، ورموز مكثفة لعشق الوطن الغامض وللعودة.

جُمل تشكيلية، تعبر عن تنوع الإتجاهات الحزبية، ومفردات أخرى كثيرة من أشكال رموز الحرب القديمة، ينام المخيم ويصحوا على وقعها.

صور ورموز أخرى، موغلة في غموضها وتجريديتها مرسومة على الجدران الداخلية الصماء للذاكرة.

وبين الأزقة الموغلة في ظلمتها وضيقها، يختلط بكاء طفل، فقد أباه في معركة خاسرة، مع مواء قطة جوعى، وايقاع أصوات الغناء ومواويل العتابا.

"غلابة يا فتح يا ثورتنا غلابة.. "

" وحملتُ رشاشي.. "

" من سجن عكا طلعت جنازة، محمد جمجوم وفؤاد حجازي. "

" أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها.. "

وأهازيج طوطمية كثيرة، لا يفهمها سوى أهل الكهوف والمخيمات.

هل تسمعين همس التاريخ، يسير على رؤوس أصابعه مودعاً ومتسللاً في الهزيع الأخير لليل شتوي طويل، وفي أعقاب وجبة أخرى من الذبح الرحيم.

هل تملكين الوقت والصبر، لسماع ضجيج الجغرافيا المستلقية على أعتاب البيوتات الواطئة، تعد البشر والحجر وأنفاس العابرين.

هل تملكين المهارات اللازمة لمتابعة الفصل الأول لحياة عذراء بلغت لتوها، أفاقت مفزوعة وقد استباح الوقت برائتها وبلل وقتها الأحمر القاني.

هل تدربت أحاسيسك أنتِ، على التمييز بين هذا الخليط العجيب، من الصور والصلوات والأصوات والألوان والنغمات في فوضى منظمة وخلاّقة.

خليط عجيب من أصوات البشر على اختلاف أمزجتهم المسائية والصباحية ووقت الظهيرة، ممزوج بأصوات ارتطام الأشياء، صوت

مقدح يحفر الأسمنت، لغرس مسمار آخر في البيت، مع عواء كلب مُسن يستلقي في حضن حمامه الشمسي اليومي بعد وجبة موسمية دسمة.

عاش المخيم ليله ونهاره في الجو الإحتفالي الجليل لستين سنة، ولسنوات كثيرة أخرى ستأتي، يعلم الله عددها.

هل تعلمين شعور المرء، أن يسير عاري القدمين والمشاعر لأميال عدة على غير هدى. يحمل بعض الزاد، والبقايا القليلة من ذاكرة الوطن يعتاش عليها. إلى الأجل المحتوم.

أضناه حمله المتعب ومات بمرض النسيان.

هل تعلمين ذل السؤال عن الإبن أو البنت التي ضلّت بهم الطريق ووعورة المكان.

مشهد الطرد من الجنة لا يختلف كثيراً.

تداري حواء خجلها وعورة جسدها، يصرخ آدم من هول الصدمة وتبكي الجنة للفراق.

أتعلمين طعم النوم في العراء.

أجساد النساء تلتهم عريها الطرقات. وتضحك من قذى عينيها البلابل وأوراق الشجر.

تساوى في ذلك الغني والفقير، المالك والعبد. طعم السكر بطعم التراب، ولا طعم بعد اليوم سوى للتراب.

أتعلمين كيف يمكن للمرء أن ينام في مسجد، اعتاد أن يأتيه الرجال لتكفير الذنوب. كيف يزيل المرء ذاكرته بماء الوضوء، أن يأتي الخلاء لا لطهارة الصلاة ولكن... كي يفرغ معدته من آخر لقمة لاكها قبل الخروج، ولا يستحق بقائها في أحشائه.

هل تعلمين ماذا يعني أن ينام المرء في خيمة، يتعرى أمام الريح، يستحم في العراء، وتداعب النسمات والأعين عورته قبيل الصباح.

لحياتي الممتدة منذ أجيال عذابات لا تعرفينها.

كنت أخجل من ذاكرتي وقتها. أتردد بينها وبينك. لكنها اليوم أصبحت مستباحة.

فصول شهدت بعضها بأم عيني. وتحسست بعضها الأخر على جبين جدي، وفي الطبقات السفلى لعينيه الصغيرتين بعد أن توقفتا عن إنتاج الأحلام.

ماذا تعرفين أنت عن تلك العذابات.

ترى... هل خطر في بال جدك "الشّمالي" يوماً، أن ينام ذات يوم ماطر بين الأجساد الكثيرة المتربة. لا دفيء لها سوى دفي الإلتصاق بالأجساد الأخرى.

أن يصحو عاري الساقين محسور الذاكرة.

أن ينام ليصحو في الصباح ولا يجد لخيمته أثر.

يفتح عينيه ليرى سقف الخيمة – ولا سقف للخيمة – فيرى السماء مباشرة دون حجاب.

يدعو، يدعو.. ويدعو.. ولا مجيب..

فيما بعد، امتدت الخيام البيضاء، ومن كل لون على مساحات الجسد كأنها الندوب، وبدأت الأيام تطوي نفسها برتابة شروق الشمس.

تعلو أصوات عويل، يتخلله أو يتلوه صراخ ولطم للنساء. وللرجال نتف الشوارب ودق الصدور.

استمر الحال..

طوّر الرجال فيما بعد، هواية عدّ الأيام لقتل الوقت الباقي قبل الرحيل الأخير.

وانشغلت النسوة على باب الخيمة – ولا باب للخيمة – بابتكار هواية أخرى لها علاقة برتق الوقت بالخيط والإبرة. كُلّما ظهرت على سطح الذاكرة بقعة عري أو اهتراء بائن.

بدأت حياة المخيم التي لم تختلف على امتداد التشرد والبصر، في بيتنا وفي بيوت الجوار كلها. مع اختلاف لون الخيمة، وقرب الخيمة من الخيمة، وطعم الماء ولون الهواء، ودرجة سطوع الشمس على أجساد النساء، بعد أن أُصبن بفقر الدم، ونقص الفيتامين، وأصبحن ينجن أطفالاً عراة من الصحة ويفتقرون للذكاء.

ترى، كيف أنجبت النساء كل هؤلاء الأقزام. في ظلمة ليل المخيم، وإصغاء أنصاف الرجال على الأبواب المشرعة في وجه الريح، يصطرخون السمع لآهة شاردة، لغنجة دلال – ولا دلال في

المخيم– تستثير نومهم الأزلي ورجولتهم المنسية بين أشجار البرتقال.

في المخيم تتعلم النساء الصمت، لغة حواء القديمة قبل اختراع الكلام، ويتعلمن عادات سيئة أخرى أثناء الإصطفاف في الطوابير الطويلة. ويتعلم الرجال هزّ الرؤوس، وحرق الوقت مع لفائف الدخان الرخيص.

في المخيم، تغيب معاني العري، والفقر والنخوة والخصوصية والرغبة والأمومة والرجولة. وتبقى الخيمة قدراً عابثا بالدقائق والساعات المشبعة برائحة السردين، والملابس المتربة بآثار لحم الوطن المحترق في موائد الشواء الأسطورية.

هل تستطيعين التخيل، أن يعيش المرء لخمسين أو ستين وربما مئة عام. دون هدف سوى طي الأيام، وعد الساعات على جوانب الطرقات، وتأمل أرداف النساء وتقدير استدارة الصدور. أو أن لا يكون للمرء عنوان ثابت، يتلقى فيه رسائل الحب أو طرود العودة ولا حتى فواتير الهاتف والكهرباء.

المخيم رمز النكبة. وعنوان الوجع المنغرس في ثنايا الذاكرة.

سِفْرُ المُخَيَّم (3)

(18)

هل تملكين المهارات اللازمة لتمييز الروائح المتنوعة، برغم القاسم المشترك الذي يجمعها.

للمخيم رائحته الخاصة، التي لا تشبهها رائحة أخرى، وتشترك في ذلك المخيمات كلها، على اتساعها وبعدها، وقرب وجعها.

واحدة في الصباح. وأخرى في المساء.

رائحة الصباح، مجبولة بروث البشر وصورهم القاتمة.

يصحو المخيم، على الصراخ. وعلى انتظار الدور في شبه الحمام. ليبدأ نهار جديد للخيبة.

أصوات، صور، ألوان، روائح، ووقع أقدام.

أصوات آدمية، تخون أصحابها..

نساء تنوح.

صبية يبكون.

وعذارى تركن الذكرى هناك.

رجال لبكائهم صوت الحمام.

أصوات بنادق، زخ رصاص، حيوانات سائمة على وجهها، حمار ينهق الغياب والحيرة، شياة ضلّت الطريق تبحث سبيلها وقد فقدت بوصلتها الفطرية.

صور لها رائحة حامضة، ولون كالح.

رجل ينخرط في حمل صرة متاع رخيص، امرأة ترمم عقد زواجها المنفرط، شباب في عمر الورد الذابل يتجاذبون أطراف الشتم

واللطم، رجال في عمر الطين، شاخت سيقانهم ولوّحت وجوههم الشمس القديمة.

صور لصبية يلهون بأعضائهم التناسلية، وعذارى يسرّحن الشوك بأمشاط المغيب.

لا نتبادل الصباح، وفي كل الأحوال نتبادل السباب والتقريع، ولوم القدر. ننسى ما اقترفته أيدينا. وما بقي من فتات أحلامنا الصغيرة.

لصباحات المخيم، طعم الخل المعتق.

وطعم اللبن الحامض. ورائحة الخروج.

شمس الصباح، لها صفرة الموت قبل الرحيل.

تحترق دون أن ترسل الدفيء.

ما عاد العشاق يستحمون بأشعتها الصباحية، لم تغيّر عاداتها منذ الأزل، لكن خانتها قامتها في هذا الصباح، وتبرأت من تاريخها.

نسوة بعدد النجوم، يتّشحن بالسواد. يغطين وجوههن المكلومة بغربال الدار القديم. متزوجات حديثاً، يعشقن اللون الأصفر للزوال، ينمن في عراء القمر. أسئلة كثيرة مفتوحة على وسعها، كجراح طازجة.

فتيان في العشرين، يتطاير الشرر وفتات ريقهم في الهواء، يلوّحون بأيديهم في هواء المكان المترب، فتبدو كعصي فارغة القلب.

رجال في الأربعين، يتقوقعون على حواف جراحهم، كمحارات ألقى بها بحر فاجر قبل أوانها، لعلمه أنها حتما عاقر. شيوخ

يلوكون بقايا أسنانهم، يدارون وجوههم بغطاء رؤوسهم، ينتظرون المغيب.

وقع أقدام، تدب في الخفاء، تتلمس عتمة الصباح، تخشى الضياء، وتتهرب من قدرها. يتهامسون في العراء، ويتندرون على الضياء.

وقع أقدام العابرين يغفو. يتعثر أحدهم فيصحوا الحمام. يتندر على أحلامهم.

يمضون في تعثرهم.

ووقع أقدام الخارجين يملأ المكان.

ذكرى أصوات، صور، ووقع أقدام. تطرق الذاكرة، تعشش فيها، تنام عندما نصحوا، وتصحو قبل أن ننام.

تفاصيل لا تنتهي. تأتي من عمق السفر البعيد، متربة متعبة، أنهكها الرقاد والسفر وطول الإنتظار.

تأتي إلينا في ساعات الليل المتأخرة، في الصباحات الماطرة. وتطرق الأوقات كلها.

تستحم بمائنا العكر، تتطيب بصديد جروحنا. وفي الصباح يذوب الثلج وتظهر الصور المظلمة والألوان القاتمة، ووقع الأقدام الغريبة.

وحدها وقع الأقدام الغريبة. تظهر على وجوهنا وعلى السطوح الجافة لجروحنا. على صباحاتنا الظالمة. على رؤوسنا المنكوشة، وعيوننا الجاحظة بالدهشة والجنون.

أما رائحة المساء، فلها رائحة اللحم المحترق على موائد الشهوة. آثار الدخان الرخيص على الشوارب المصفرة والأنامل المخضبة بالكسل.

هي مزيج معقد، من روائح طعام المساء.

لكل بيت ذوقه الخاص، ورائحته المميزة، أصنافه المفضلة التي حملها معه من هناك، ويطهوها كل يوم في رتابة تعافها عصافير السماء وأسماك البحر، فيما يتساوى الجميع في رائحة زيت الطعام.

هي مزيج من رائحة الساحل ورائحة الجبل. رائحة طين الوديان بملح البحر قبل المغيب. عندما تبدأ الشمس بتبديل ملابسها الليلية الشفافة، تصطبغ الغيوم بالأحمر القاني مرة، والقرمزي أخرى، يعود الفلاح من أرضه مشرب بالتعب، يجر حماره في دعة، يمسح عرق اليوم بكمه، وينثر البسمة في وجه الشجر. يبدأ زبانية البحر بجر خيولهم الخشبية لتنام ليلها، على موعد مع الصبح الجديد.

لا أحد يفشي سرّ طعم طعامه الخاص، ويزهد الجميع في السؤال. روائح الطعام من كل الألوان، خلطات، حلوى، مقبلات، مقالي، خضار طازج، تشكيلات يخطؤها الشيطان في موائده. تمتزج لتشكل بكلها رائحة معقدة، ألفها أهلها، وتذكرهم بالوطن.

إذا اشتد الحر، أو غزُرَ المطر. تبدأ الأجساد تبث رائحة الوطن القديمة، ويمارس الوقت عذريته في وجوه المارة.

ليل المخيم

يداعب القمر البنات الصغار، يلعب معهن "الزقيطة" في الأزقة الضيقة، تتحدث النسوة قليلاً عن شؤونهن الخاصة. ويحلم الرجال أن ينام الصغار هذه الليلة باكراً.

لأرامل المخيم من الرجال والنساء، شأن خاص، حديث وسمر بارد، يتحدث فيه الرجال عن قشور البرتقال، عن فوات الحصاد، عن موت الربيع، وتتحدث فيه النسوة، عن غياب العادة الملطخة باللون الأحمر وسرعة جفاف الياسمين.

بُعيد صلاة العشاء، المهرجان اليومي الصاخب دون كلل أو تكرار، يتخلله عرض للأزياء الشعبية.

هذا يرتدي ملابس الشمال، وتلك تلبس حليَّ الجنوب، هذا يرقص على وقع أنغام الصحراء، وذاك يشدو ألحان السهول والوديان.

ليستحيل المخيم في كل مساء، إلى كرنفال يومي، يدخن الرجال والنساء على حد الخوف الشيشة والنرجيلة. تصنع النساء الحلوى التقليدية، تلبس الصبايا الأثواب المطرزة، كلٌ حسب جغرافية جسدها ووطنها. يتبادلن اللهجات، وتقترب الجراح الصغيرة، فتبدو من سطح الزهرة كجرح أسطوري يثير الحب والعطف وحمل السّلاح.

تستحيل رائحة المخيم، إلى رائحة البلاد على طولها وعرضها، الخالية من سكانها.

فبيوتنا هناك، ما زالت خالية من الوطن. وخالية من السكان الأصليين.

كل بيت في المخيم، فيه رائحة قرية أومدينة أو حي أو شارع فرعي. كأنما هو منزل إفتراضي، رسمه قدر يعشق التجريد، واستكان الجميع لصنع القدر.

هذا من "اللد"، ذاك من "الرّملة". هذا من "حيفا"، وهذا من "يافا". تلك من "يازور"، وتزوجت رجلاً من "سلمة". وأنجبت ذكور بطنها في ظلمة المخيم واستحمت من لهو الليل في الخفاء.

هذا "الداوي"، وذاك "يافاوي"، ونفر يتسلقون الشجر، يتعلمون فنون المبارزة، جاءوا من النقب. لهم لون الصحراء وحلكة شعرها، لهم نقاء سريرتها وجحودها، لا يتخلون عن لهجتهم القديمة، غادروا بداوتهم، رقّت طباعهم، وبقي حنينهم للبيت المصنوع من جلد الماعز، للنوم في عراء ليل الصيف، لقلة الوقت، وغفوة الماشية وقت الهجير.

هذا سكن "بيسان" وانتقل بعدها إلى ديار الحبيبة في "اصبع الجليل". أصله من "الجورة"، ويملك 30 دونماً مزروعة عن آخرها بالحمضيات. وذاك تنقل بين "الناصرة" و"الخليل".

تلك. كانت تغسل قدميها برغوة موج البحر، وهي جالسة على عتبة بيت أبيها.

تتحسس أصابعها بعد دعابات موج البحر، تعدها. وفي عتمة الليل، تتعرى من حياء النهار، تُشّمر ساقيها، تتمرغ في الرمل. واذا

غاب القمر، في السنة مرة، تتجرأ على أنوثتها، تتمرغ في رمل البحر، يتخللها البحر، تغيب في نشوة البقاء، في الصباح تتحسس جسدها ووجهها وقامتها، فتجدها أكثر جمالاً واستقامة.

تتذكر وتدمع.

ذاك يجلس وحيداً في الزقاق المظلم، يمضغ قلبه، يعالج دمعه، يقلب "القواشين" في الإتجاهات كلها، يريها للمارة، يرفعها في السماء، كي تقرأ الكواكب، يضرب كفاً بكف. يتذكر ويُطرق.

وآخر يفتقد قبور أجداده، يعيدهم إلى الحياة، يستعيد ذكراهم الباقية من زمن الكرامة. يتذكر قبورهم الباقية هناك. فهي الوحيدة التي قاومت بعد الرحيل.

هل يستحق الأموات الصمود. والبقاء أكثر منا ؟

تتساءل عظام الأموات ورفات الأحلام الباقية في الجليل فيما بينها، تتساءل عن زوار القبور في المواسم والأعياد، كي تُقرءَهم السلام، وترسل الرحمات، وتقرأ على رؤوسهم الفاتحة.

ترى هل صمد الأموات في بقايا عظامهم صمود الأبطال أكثر منا نحن الأحياء.

" كان يجب أن يموت الجميع هنالك، أو يبقوا جميعاً"

يقطب جدي الجالس وحيداً بين الحضور، يرتسم على جبينه طبوغرافية فلسطين المائية كلها. يُرغي ويُزبد. يسب ويشتم.

يهمس بكلام سمعه الجميع ألف مرة ومرة.

" لو كنت معنا وقتها.."

ولا يكمل..

أفهم منه الجزء الباقي للهزيمة.

تقرر السماء فجأة أن تنام. تُطفىء أنوارها وتغلق أبوابها لتستريح. فيبدأ كرنفال آخر فوق الأسرة، وفي أرض الغرفة اليتيمة. يلبس الأطفال ملابسهم التنكرية للقيا أحلامهم الغامضة، يفترشون الأرض، يرتجفون برد بطونهم الحيرى في الشتاء، أو يستحمون في عرق أجسادهم في الصيف.

تنام الأم إلى جوارهم، في كل مرة تهدهد وحشتهم، تمسد شعر رؤوسهم، علّها ترسم صور أخرى لصفحة أحلامهم، تستنهض بطولات أسلافهم. تستصرخ آخر حبة رمل باقية في رجولة صحرائهم، تنادي في عتمة الليل، عمر، حمزة، المعتصم، صلاح الدين، قطز، أيبك، موسى، طارق، المهلهل، عنترة، جيفارا، عمر المختار، القسام، جهاد، نضال، ثائر، كنعان، تنادي آخر رجل فيهم، أخر حبة بطولة، تسكن جيناتهم، ولا مجيب.

في المخيم تتساوى أحلام الرأس بالتراب.

من بعيد، تدور أعين رب البيت المحروق بالشهوة في محجريهما كطواحين الرّحى. يحدجها بلؤم، يهمس كلمات طوطمية قديمة تفهمها ولا تسمعها.

يرفس الطربيزة بقدمه، يقتل دخّانه الرخيص، آخر فرصة للنجاة. يَسعُل الصغار، يتمرغون في كوابيس رؤوسهم، وتضيع جهود الأم في استنهاض بقايا الرجال.

تحتار بين الماضي الرابض على سرير الوقت تحرقه الشهوة. وبين المستقبل الموتور محجوب الرؤية، يجلس منتظراً على حافة السقوط في مقبرة النوم، ولا متعة في المخيم سوى للنوم.

تهدهد نومهم الموتور تارة، وتارة تعالج الأبواب المغلقة للرجل مهروق الذاكرة، الرابض في زواية السرير الوحيد. يتقلب على جنبيه، يعالج أفكاره ويعيد ترميم ساعة الحائط المهشمة. يرتق ذاكرته بخيوط الرغبة، ينتظر ابتداء مائدة الشهوة غير عابئ بالصغار ولا بأحلامهم.

تكره رجولته المنقوصة.

تُتمتم كلاماً لا يسمعه، تقتل شوقها حتى يصيح ديك الصباح، ولا صباح في المخيم..

تقاوم كسل جفونها، تأتيه برغم التعب وقلة الرغبة.

تتعرى من جسدها، وتدلف إلى جوار الكرى. تعاند كرامة الوقت الباقي للأذآن.

" تخزي الشيطان..." وتطاوع انثناءآت الوقت المتبقية ليموت الليل، ويتجدد طلوع النهار.

فالصباح له فم يقول فحش الكلام، وآذانٌ كثيرةٌ تسمع.

للجسد دفيء النوم، وليس له من الشوق سوى إطفاء عواء حشرجات الشهوة الباقية في حلق الرجل، تتجدد كل يوم، بأنانية

موروثه، ترخي قلبها، حتى ينقضي الوقت ويستلقي الوجع المتجدد على ظهره، كأرنب بري.

ويتجدد اللقاء.

في المخيم تجوز الصلاة بالتيمم، ويجوز القصر والجمع والعزل. فسكان المخيم، برغم السنين، يجوز عليهم ما يجوز على المسافرين.

وفي المخيم قبلتين. واحدة لله، وأخرى للوطن.

في المخيم. تعاند عقارب الوقت الزمن، وقد تجمدت السوائل المرافقة لأفكار رؤوسهم وأحلامها. لا يفكرون سوى في العودة، ويجترون الوقت المتخثر في ذاكرة أجدادهم، يعيشون على بقاياها، لاكتها أحناك أجدادهم واجترها آباؤهم. بعد أن تقطع القابلة سرة الرضيع الباقية له من أمه. يؤذن جده في أذنيه. ويصرخ الحضور في وجهه بصوت واحد نشيد العودة. يمسكون اصبعه الصغير ويشيرون به إلى الخارطة. كي يحفظ الموقع والإسم واللهجة والعادات والأطعام والأوجه والأسماء.

فيشرب الحليب الباقي له من أجداده.

وأول حلم يعبر صفحة رأسه، حلم الزيتون والزيت والليمون والبرتقال والزعتر.

سِفْر البقاء

(19)

الأشهر في المخيم لها أسماء أخرى غير التي يعرفها من عاش في الديار قبل الهروب من الجنة.

كان للأيام كرّها، وعدد أيامها يختلف.

الشهر 48 يوماً، والسنة 67 شهراً والسنة تحسب بسرعة الضوء.

للأيام والأشهر، رائحة خاصة.

في الكوانين، رائحة النار ولذتها، وطعم الكستناء.

يعود الرجال باكراً من الحقول. محملين بتعب أجسادهم وهدأت بالهم، وفي جيوبهم خبز الله الوفير.

تطلق أجسادهم رائحة الأرض المثيرة للغرائز، تلتصق الأجساد إلى بعضها طلباً للدفيء. فتحمل النساء في لياليه رجالاً تلدهم في أواخر الصيف، وعذارى يتفتح الورد من تحت أرجلهن. ويمور الدلال من بين أصابهن.

في شباط، تتدله النساء على الرجال. ويبدأ موسم الوحم والدلال الممزوج بالحناء. تأتي السعودات واحدا تلو الآخر.

سعد الذابح، وسعد السعود، سعد بلع. حتى السعد العاشر.

يتقلب الناس بين المواسم، ولكل موسم طعم وعادة تتناقلتها الأجيال كابر عن كابر.

ويداعب زهر اللوز أنامل آذار، فتستفيق شهوته النائمة ويبدأ موسم التلقيح والإنجاب. تغار الإناث من مظاهر الفرحِ الممزوج بالألم. ويطلبن اللذة بألسنتهن. ينجبن على أثر ذلك، أطفالاً لهم حكمة الشيوخ، وقلوب شبابهم. يبدأ الزهر ينفض غبار الغياب، فتستحيل الأرض إلى بساط أخضر. تستحي الشمس فتختبىء خلف الفرح. ويحلم الصغار بالصيف القادم من بعيد ينبيء بالتجدد ومواسم الدَبكة والزواج والتلقيح، وتطلق الأرض رائحتها الممزوجة بالسَمر.

لنيسان مهارة في رسم لوحاته بالزيت والتمبرا. فنيسان "فلسطين" يملك مهارات الرسم كلها. تعلمها بصبر، وهو يرقد طوال الشتاء ينتظر اخضرار الأرض وتفتح الفرح وإنقضاء المطر. يرسم بألوان الزيت لوحات الطبيعة الخضراء. يمتلىء المكان برائحة الألوان التي يعدها بصبره الطويل وخبرته الممتدة في مزج الألوان، دون أن يفصح لأحد عن أسراره.

في نيسان، تقول الأرض أشعارها التجريدية. وتبدأ مواسم طرق الأبواب للزواج، وتبدأ العذارى بممارسة هوايتهن الأزلية في التلصص من بين الشقوق وخلف الأبواب المشرعة على الفرح.

ولأيار حكمة لا يعلمها إلا من خَبر السنين وعددها.

مُسَّنٌ، يَحملُ عبق الربيع في يمناه، ورائحة وحرارة الصيف القادم في يسراه، فيه يبدأ الزرع الذي رعاه نيسان بالتفتح وتتلون الأرض بالثمار.

أما حزيران فله قصص لا تنتهي، ترقص الجدات، يبلغ الرجال على يديه سن الرشد، والعذارى سن النضج، يغني بملئ صوته، تردد الحقول من خلفه، ويرقص الشيوخ طرباً.

يمشي تموز بين الأزقة، حاملاً سِلال التين الخرطماني، والسوادي والحماضي. فيه ينضج الفرح، تحنّي الزهرة يديها ورؤوس أصابع قدميها. يستفيق الزّمان من غفوته. يقتنص من الشوق ساعة، فتشرق الأرض بالمشمش. له بياض أجساد العذراوات ونضجهن، وله منهن إحمرار الوجنات وتَقَطُّرُ الأنوثة.

تتوالى المواسم وكل يومٍ في حياة الأرض موسم.

ولا تنسى حتى هوام الأرض من خيراتها.

لآب اللهاب سُمرته، وسَمرهُ وسَهرهُ، ولِعنبهِ المشبع بالسكر قصص ملئى بالإثارة، وتبادل الزيارة.

أما أيلول فيدخل في أيامه التين العجلوني المقطر بالشوق المحلى بنشوة العشق، وعناق الزوجات لأزواجهن. ليحملن منهم أجيالاً أخرى تزرع الأرض وتسقي الزرع وينوّر الوطن على سواعدهم شوقا وغبطة.

للتشارين. دَيْنٌ ووعد قديم لا تخلفه البتة، تجدده كل عام. تُلقعُ الأرضُ عن عاداتها القديمة كلها، تبدأ رحلة جديدة، وتنسى التفاصيل كلها. تجدد أنوثتها وترمم بكارتها وذاكرتها، يحبو الصغار على ظهرها وعلى يديها يبدأ البيات الشتوي للكائنات.

تجدد الأرض نفسها، بورقها بجبالها بمائها بهوائها لتبقى جاهزةً في المواسم كلها.

وكل يوم في حياة الأوطان مواسم.

أحمل في أذني، أصوات الصدى المتردد عبر الوديان الشاسعة للأمل، عبر الفضاء اللامتناهي. يبث الدفىء وثقل الأمانة. ينادي العشاق أسماء حبيباتهم مباشرة أو بالإشارة. وتردد الجبال والوديان أسمائهن مرخماً مغنى، فتطرب الأشجار وحصى الطريق.

تنادي الأم ولدها، يعدو بين الحقول، ويذوب طوله بين سنابل القمح الذهبية. تضحك وتحمد الله على العطاء.

تضع أذنك على الأرض وتصغي لما يدور في أحشائها. أجنة بعدد النجوم في السماء. تداعب القشرة الخارجية لبطن الأم الرقيق. ترفس أقدامها أذنيك. تدغدغ الدنيا أحلامك، ويجلس الفرح عند قدميك.

وعندما يحين موعد ولادة الأرض. وتتوالى صرخات الطلق، يبدأ عزف الناي وقرع الطبول. يرافقها ايقاع الدبكة الممعن في غرائبيته. لتشكل في مجموعها سمفونية الولادة. كي تساعد الأرض، على انجاب أطفال بقامات الرجال. وعذارى يضمخ وجوههن الخجل. وعندما يبدأ الأطفال الصغار حديثي الولادة باطلاق صرخة الحياة. تبدأ مواسم الفرح من جديد. تزغرد الجدات بكل ما أوتينه من قوة، ولا قوة لهن سوى أصواتهن اللامعة وعيونهن الحادة، وطول ألسنتهن على البنات. تتناثر الحلوى التي صنعتها العمات والخالات في الفضاء، ويزغرد صوت البارود فرحا من بنادق الأخوال والأعمام.

يتجدد صوت الرعد والبرق في كل عام وتشكل الأرض من جديد سمفونية البقاء.

أحمل في أنفي روائح الزمن الغابر. طَلْعُ الرُمان، رائحة العسل الجبلي، نسائم الصباح المضمخةً بعذرية أصباح الريف، وتسافر رائحة الميرمية الجبلية، إلى الطبقات السفلى للذاكرة. وللزعتر رائحة النساء في الصباح، وخضرة أحلامهن..

رغيف الطابون، له رائحة الحياة لحظة الخلق، وعلى صدره يتربع فلاح شاب مفتول الشارب والعضلات، حمصته شموس كثيرة أدمنت الإشراق على يديه، وأدمن عشقه للحياة وفهمه للموت.

يقضم قضمة من زوادته الصغيرة، ويتلو قصيدته اليومية في حب الحياة والوفاء للأرض.

الكل هنا؛ يقول الشعرعلى بحره الخاص، إن لم يكن ابداعاً، فحفظاً وإظهاراً. ويتقنون الغزل بأنواعه كلها، فلم تعاني النساء من الكآبة أو رتابة الوقت بعد انقضاء شهر العسل ويصبن بالملل فقط بعد عبور السبعين.

يجلس الشيوخ، في حلقات الذكر والسمر. تطرطق مسابحهم، يتقمصون الأدوار كلها، ويحفظون التاريخ عن ظهر قلب، أما الجغرافيا فمرسومة على تجاعيد جبهاتهم، يتلون الإلياذة الفلسطينية التي تؤرخ للوطن والحب والناس. يتبادلون النكات السمجة فيما بينهم، ويضحكون بأفواههم الخالية من الأسنان الممتلئة بالفرح.

وينقلون خبراتهم الغابرة إلى الأجيال القادمة بفرح غامر، وحماسة الأرض وقت هطول المطر.

يربتون على ظهور الفتية، يتحسسون أكتافهم، يهصونها، يختبرون مواطن الرجولة فيهم. ويطلقون بين الفينة والأخرى بعض التعليمات التي يجب على الفتية القيام بها. يصغي الفتية بمجامع سمعهم. وتمور في أذهانهم أفكار أخرى، لها طعم زمانهم ورائحة الوطن. ويواصل الجميع الأحلام كل على سجيته.

تغني الجدات بأصوات لها رنين المعادن، أهازيج للفرح المتجذر، يغنين العتابا، ومواويل الفرح. يغنين للزرع، للأطفال، للغياب، للحوامل. يغنين للزيتون، للتين ولأشجار البرتقال المثقلة بالأجنة، يملكن الإثارة كلها. في تفخيم الصوت وترقيقه، في استخدام لغة الإشارة. يحتسين الشاي المعتق ويشرب النرجيلة، وينصت الجميع إلى أصواتهن الخشنة الممزوجه بتعاريج الزمن.

تجلس النسوة في دوائر حول الجدات، يجلس الصغار في القلب فيما عذارى البيت يتوارين خلف الخجل الأبيض الممزوج بحمرة شروق الشمس. ينام الصغار، تغطيهم أحلامهم بالفرح المذاب مع الوقت، وتعب النهار.

للأصباح طعمها المميز الخاص الممزوج بالدهشة والبراءة والعشق. يصحوا الجميع بعيون متسعة، ووجوه مفتوحة لا تحتاج إلا لماء الوضوء للصلاة. فالوجوه هنا مشرعة على فضاء أحلامها في الصباح والمساء، وكل حين.

لا أحد يغلق وجهه في وجه المارة، وتضرب جزية شهرية، يقوم المختار بتحصيلها لصالح الأشجار، على أصحاب الوجوه المغلقة التي لا تقوى على الإبتسام.

للصباح رائحة الندى على أوراق الورد المبللة بالعذرية. وشوق اللقاء، فلا يوم يشبه سابقه. ولا غدٌ يحاكي في وقعه أحداث الأمس.

تكاد الشمس كل يوم تغير مكان شروقها. وتحافظ على عادتها فقط في الغروب، لتدل الصيادين وعمال الحقل بأحمالهم وتعبهم وشوقهم إلى بيتوهم.

تشرق الشمس، كل يوم من زاوية مختلفة وغير متوقعة. كي تُبقي على الدهشة، ولا يشغل الناس بالهم كثيراً بتبدلها هذا. يكتفون بإمتاع عيونهم بها وبمفاجآتها، يدفعهم شوقهم إلى الإشراقات القادمة. أين ستكون، من أي زاوية ستأتي. وأي لون من ألوان الحياة تحمل في قلبها. تتجدد في كل يوم، بسناريوهات متنوعة من تنوع حياة الريف ورتابته.

وفي قادم الأيام. تضرب المواعيد للقاء عابر، يتسلق الفرح على الأكتاف، مخترقاً الأبواب والشرفات، عابراً إلى الحجرات الداخلية للقلوب.

لا مكان هنا سوى للفرح، ولا تعيش المخلوقات البشرية الريفية هنا، إلا إذا تغذت بالشطائر المعجونة بالسرور.

تُتقِن العذارى لعب الدور دون تدريب، على وقع أقدامهن يدرج الدوري، ويتلصص الكنار على مخادعهن، يستحلفنه أن لا يفشي

السر. يقدمن له أثر لعابهن حلوى، يمتصها ويغفو. ويفقد على أثر ذلك ذاكرته في الصباح.

وعلى وقع أقدامهن وهمساتهن وهُنّ يرتدن الغدير، تسير القوافل القادمة من بقاع الأرض، طالبةً الحج إلى محراب الحب الأزلي، تأتي القوافل بركبانها، منهم من يسير على قدميه، منهم الراكب والزاحف. ومنهم من يحبي على أربع. يتلصص الأزواج من خلف ظهور نسائهم على الأرداف الصغيرة، ويتذكرون خوالي السنين، يتلمضون، وتأتيهم الرغبة فجأة كالسيل. يقرؤون عدد الأجنة الساكنة في أحشائهن الداخلية، ويتجدد الفرح.

تنظر نسوة الحي دون حسد إلى بكر العذرية، يتذكرن سالف الليالي، وينثرن زهر العصفر والزعفران بألوانه على رؤوسهن المشربة بالخجل.

يؤدي الرجال والفتية السلام الملكي على وقع أقدام العذارى ويعزف الربيع ألحان الغربة، والعودة من جديد إلى مواسم الزواج وتتجدد الحياة على وقع أحلام الصغار وبراءتهم.

ولهن قتلى بالعشرات، وشهداء ما حملو يوماً السلاح.

يقتلن من لا يملك السلاح الكافي للدفاع عن الدين، ويتركن الجرحى في الطريق للغربان تنهش أحلامهم.

للفاكهة روائح تسبق مواسمها، تشتم الخيار عن بعد ميل، وتستشعر حلاوة البطيخ قبل زراعته بعام. للوطن ذاكرة مظمخة بالروائح الخاصة. روائح المكان والتراب. روائح عرق المعتق

بالتعب يفرزه مسام الرجال في الحقول المترامية الأطراف. وللتراب رائحة ولون الحناء عقب المطر.

في خالي الأيام لم نعرف التقويم، ولا عدد السنين والحساب.

فكل يوم له رائحته الخاصة ولونه المميز، ومنذ الخلق تدربت الأنوف على معرفة التاريخ واليوم بالرائحة.

نصحو في الصباح، نذكر الله ونحمده على النعم كلها. نتنفس نسيم الصباح الندي، نشتمه من تحت إبطه، أو في موطن الذبح منه. فندرك أنه تاريخ جديد ليوم جديد، بطعم جديد وهمة وفعل وعمل جديد.

ولا تخون الرائحة أنوفنا.

سِفْرُ المُخَيَّم (4)

(20)

وفي الدفّة الأخرى للوجع، في المخيم. تنتصب الفوارق فتملأ السطوح بالأسئلة، تشرع أيديها إلى السماء في عريها الأبدي، ولا مجيب.

فالأشهر في مخيمات الخيبه لا اسم لها، ولها رائحة واحدة، تخلو من مواسم القطاف والحصاد.

النساء تحمل فيها عن كره، وعندما يلدنّ الذكور، لا تفرح الجدات كثيراً.

في المخيم يتساوى شباط مع تشرين، ولا يميّز سكانه كثيراً بين الشتاء والخريف.

الأول يُذّكرنا ماؤه بالوحل ، والثاني تذكرنا أوراقه المتساقطة بالخروج.

في شباط لا شيء يحدث سوى الإنتظار.

وفي آذار لا يزهر اللوز هنا. فلوزنا نحن مر الطعم. والرائحة، ينبت فجأة ويموت دون سابق أو إزهار.

نيسان المخيم لا أعياد فيه. الأشجار القليلة المزروعة على ضفاف جرحه، لا تنتج الخضرة، وتعيش خريفها علة طول العام وكل الفصول.

ففي أيار ووقت الحصاد كان الطرد من الجنة والخروج من نعيمها..

أمّا حزيران موفورة ذكراه للنكسة، ولحربه التي سمّيت برقم لا يتجاوز عدد أيام الأسبوع.

تصفو سماء تموز في المخيم. فيطالعنا القمر في أيام البدر، ونحن متورطون في قتل الوقت الباقي منا.

وعندما يصادف وجوهنا. يلؤو بنفسه ويدير ظهره عنا.

في آب لا نأكل إلا الصبر الذي أحطنا أنفسنا به. ويا لحزننا الباقي، نأكله بقشوره، ونلقي بلُبِّه للكلاب الضالة.

وفي أيلول خيبة أخرى. وذكرى هزائم وانتصارات كاذبة، أما التشارين فلا طعم لها البتة. وتبدأ النسوة في فرش الأرض بالبقايا الباقية من جلدهن المسلوخ. كي يضفين شيء من الدفيء على صقيع المخيم.

ينخر برد الكوانين العظام الباقية– ولا عظام لنا في المخيم– يثقل بردهما برد الغربة والوحدة.

لا مواسم في المخيم، سوى لطم الوجه، البكاء، التدخين، ودق الصدور.

يتعلم الصبية الدبكة بين الأزقة، يدقون الأرض بأقدامهم، علّها تصحوا، فتقيء الأموات من بطنها، وتبتلع موات الأحياء بخوفهم وجبنهم. يطرق الشيوخ، وترتسم غلالة قاسية في ذاكرة الرجال.

لا مواسم في المخيم سوى مواسم ذكرى الخيبة، على "كربلاء" الجديدة، تخلى فيها المشتاقون عن الحسين الشهيد، وفي كل بيت من ديارنا، "حُسينٌ" شهيد.

ولدينا في المخيم مناسباتنا الخاصة بنا، لا يشاركنا فيها سوى معذبوا الأرض كلهم.

لنا يوم الأرض، ويوم الأسير. لنا عيد إعلان الدولة الإفتراضية على سطح القمر.

لنا ذكرى النكبة، وموعد يتجدد كل عام مع حزيران النكسة. ولنا يوم الشهيد، ويوم الجريح. ويوم لمن لا تلد نساؤهم سوى الإناث، لنا يوم خاص بأصحاب السوابق، ويوم لأصحاب المركبات العمومية. يوم لأطفال الشوارع، وآخر لنتف الشعر وحلق الذاكرة.

يوم للسخرية منا.

يوم للغموض، تقام فيه طقوس وثنية، نزرع فيه مفاتيح بيوتنا القديمة في التراب الباقي من أرض المخيم، نغمرها بماء عيوننا، ندهنها بالزيت وخل قلوبنا، في ايمان غريب عجيب، كي لا يصلها صدؤنا.

ولنا طقوس أخرى، ممعنة في الغرابة. نسكب الشاي البارد على رؤوس الأجداد والجّدات الباقين بيننا، نقّلم أظفارهم، نحصي شيبتهم، نزرع لهم أسنان جديدة، نحاكي ضعفهم وقلة حيلتهم. وعندما يحل المساء، نتحلّق حولهم، نلعنهم بصمتنا، نشرب الحليب بدون سكر، وفيما بعد نضرب نسائنا في الكرباج، ويضربننا في الصباح.

ليس لهذه الطقوس الوثنية من تفسير، سوى الرغبة الخفية في إدامة الوجع، والإبقاء على نضارة الجرح ونزيزه الصامت.

ربما. أقول ربما لرغبتنا الدفينة في الإبقاء على ذاكرتنا حية من الذبح أو الهتك، أو لتشجيع حنيننا على مقاومة العطب.

نحن في المخيم، نعيش الجاهلية الثانية وربما الثالثة.

لم نتحرر من خطيئة الخروج الأولى. ولا نعتق أنفسنا من عبوديتها الأولى. نجلد أنفسنا في طقوس شبه يومية بالحبال التي أحضرناها معنا. نمارس عبادة الوطن الأنثى. لم نتعلم بعد أصول الكلام ولا تقنيات الحرب ولا المفاوضات. ونمعن في جاهليتنا الجميلة، كلّما اقترب حل، أو زارنا زائر يرفل بأثواب شفافة، نقرأها وحدنا، تشي بالذئب القادم في ثياب الحمل.

ما زلنا نمارس الجاهلية حتى في طقوس العبادة.

يوم الجمعة، لا تقام صلاة الجماعة. ولا صلاة العيد. ووحدها صلاة الجنازة تجمع شملنا.

في المخيم لا نسمي بناتنا "إعتدال" لأننا لا نحب الإعتدال، اذا أحببنا نحب حتى الوت، ويصل البغض عندنا حد القتل.

نجوع إلى حافة الموت، ونأكل حتى تتفتق أمعاؤنا.

نخاصم نساءنا السنة بطولها، وإذا تصالحنا لا نغادر بيوتنا للعمل في السنة التي تليها.

نحن في المخيم لنا عاداتنا الغريبة، اكتسبناها من عُرينا ووحلنا، وشوقنا، وبردنا ومطرنا وشتاء أحلامنا. عادات غريبة طورها البعد والخوف وذل الخروج.

نراوح أمكنتنا ونغير ديننا في اليوم مرتين.

في المخيم لا تعمل البوصلة. وتتوقف الساعة عن العمل لسبب لا يعرفه أحد.

على جنبات المخيم، تنتشر محلات متخصصة بقراءة الكف وسوء الطالع، ويعمل السحرة والمشعوذين في حرية تامة وتنتشر روائح العود والبخور في كل مكان.

هذا رجل جاء يبحث بين دفاتر القدر عن السبب الذي شُرِّد من أرضه، وذاك يلعن نفسه، فقد ترك ثروته في الوسادة البالية وآخر تحت البلاطة.

وامرأة جاءت تسبر المجهول عن سر زواج زوجها مرتين، وأخرى تطلب الطلاق من الدنيا بسبب لون عينيها. وثالثة لغير ما سبب سوى، لقصر قامتها.

رجل وامرأة في عمر الخريف حضرا للبحث عن إبنهما الذي فُقد وقت الخروج. وابنتهما التي فاتها قطار الزواج.

شابات يقصدن ضاربات الودع، لمعرفة حظوظهن من الدنيا الفارغة من الفرح. شباب يبحثون عن فرصهم الضائعة في قعر فناجين قهوتهم.

رجال بطول الأشجار، يرتجفون من خوف القدر، يسبرون المجهول، ينكسون قاماتهم خشية أن يتكرر الخروج.

أزقة المخيم مليئة بالسماسرة. وقارعي الطبول، لهم قلوب مشروخة، شوارب مفتولة، وكروشهم ممتلئة عن آخرها بالمرض.

تفترش النسوة الأرض، يلعبن الورق والنرد ويضربن الودع.

الكل مزهو بذاته. ويسخر من الآخر.

في المخيم لا أحد يعمل في النهار شيئاً.

يستلقي الرجال على ظهورهم، وتبدأ النساء رحلتهن الأبدية في التجميل وإزالة الشعر الزائد.

في المساء، يبدأ يوم العمل في المخيم، بين الأزقة الضيقة في الحارات وفوق أسطح المنازل – ولا أسطح في المخيم –.

يضطجعون خلف الساعات، يمارسون أشكالاً غامضة من عشق الذات، والركون إلى الصلاة، والبقاء دون طعام لساعات طويلة. عندما يحضر الطعام، تغيب الذهون خلف التلال. ويبدؤون الرقص في الأزقة، وعلى مفارق الحارات، في طقوس مسرفة في الغموض والإثارة، لها جاذبيتها الخاصة، ولها مريدوها، يقصدونها في المواسم لأخذ الصور التذكارية. والسخرية من عادات انسان الغاب، ورجال القبيلة.

في المخيم، لا يلبس الرجال الساعات لمعرفة الوقت. ويكتفون لتقدير الوقت، بالنظر إلى السماء وعبر الشقوق الخلفية لأشواقهم القديمة، يمارسون الغواية والعبادة، واللعب على الأوتار كلها برغم التزامهم بأوقات الصلاة كلها، وفي جماعة.

لا تصوم النساء في المخيم، فغالباً ما يوافق رمضان فترات الحيض عندهن، فلهن "دورة شهرية" غريبة من غرابة الوجع وخصوصيته، دورتهن سنوية، وموعدها تقريباً عندهن في وقت واحد، وغالباً ما تأتيهن في رمضان، يبدأ النزف مع هلال رمضان وينتهي مع هلال شوال.

يستقيل الرجال في هذه الفترة من الرجولة، ويسلمون مفاتيح البيت إلى ذوات الصدور العامرة، ويبدأون مرحلة غريبة من العبادة.

يعتزلون النساء، وقرع الطبول، والسهر خارج البيت. يعودون إلى البيت باكراً، ينامون كالقطط الأليفة إلى جوار أولادهم.

تبقى النساء طوال هذه المدة يجالسن القمر ويساهرن الليل ويصبن بالأرق، يعتزلن الغناء والرقص، ويبدأن بتغيير جلودهن إستعداداً للحمل القادم.

بأمر الدولة، يُمنع إشعال النار للطهو أو الإنارة طوال هذه المدة، فتصاب جدران البيت بالحصبة، وتتصدع أعمدته.

نتذكر فجأة صلاة العيد، نضرب كفاً بكف، ونهرع لشراء الملابس وكعك العيد.

نتسكع بين الأيام، نلهوا بالوقت ويلهوا الوقت بنا، وتُعملُ السنونُ خِنجرها في خواصرنا.

لا نتعلم نحن من الشمس، ونظن أن القمر يغيب عن المدرسة شطر الشهر، وأن النجوم خجلى من غرامها القديم. نظن بسذاجة عقولنا، أن البحر لا ينام في الليل، ولا يقوم بواجباته الليلية إتجاه الأسماك. نؤمن إلى درجة الخوف، أن الأشجار تتساقط أوراقها في الربيع، وأنها تصاب بالعقم قبل الأربعين.

نظن أن المساء يحمل بين طياته معنى الرحيل، وأن الشتاء لن يلد من رحمه الربيع.

نعيش شبابنا ورعونتنا في مفاهيمنا الخاطئة، وعندما نشيخ نبدأ التأمل وفهم التاريخ، عندها نكون قد فقدنا أسناننا وفحولتنا ورغبتنا، وقوتنا في إثارة النساء.

ويموت الأمل من جديد.

وحدهم صغارنا، يحركون فينا الأفعال الراكدة، يفلحون أحيانا في منحنا زاوية جديدة للفرح، نلهو بها قليلاً مستشعرين تجريدية الوقت والمكان، نضيق بهم بطفولتنا فيهم. نسارع للعودة إلى حالتنا المخمورة، نعود إلى حالتنا الشعورية الغريبة التي نستمدها ونطهو لحمها على وقعنا.

بين الحين والحين تتفتق قريحة المخيم عن إبداع جديد، تارة لعب الورق وتارة الشطرنج وأخرى عد الحصى على قارعة الطريق.

كانت آخرها تعاطي المنشطات والمنبهات والمسكرات. والمركبات الكيماوية الخاصة لغياب الوعي، وكسر حاجز الوقت والصمت، وتأجيل الخيبة والرغبة معا.

تتعاطاه النساء لنسيان أنوثتهن كلها، ويقتلن الرغبات القديمة المدفونة منذ الأزل.

يتعاطاه كبار السن، قبل ذهابهم إلى الصلاة. كي يعينهم النسيان على التركيز والخشوع.

ويتعاطاه الرجال، قبل النوم وعند الصحو، قبل الصلاة وعقب الوضوء.

وجدوا فيه سلوى للوجع المزمن، الذي يرثه الأطفال في أرحام أمهاتم وبذور آبائهم.

وحدهم الأطفال. الذين لا يملكون خبرتنا العفنة، يعيشون حياتهم بطريقتهم الخاصة، يأخذوننا بين الحين والحين، إلى عذرية بداياتهم.

وفي كل سنة يكبرون، نأخذهم إلى عالمنا المنتن، يبدأون العزف على أوتار الملل والحيرة والتسكع بين الطرقات وخلف أزقة الساعات. يمارسون الغزل الرخيص باكراً.

أولاد المخيم تبدأ مراهقتهم باكراً جداً، وتنتهي باكراً أيضاً. ولمراهقتهم طقوس ملوثة من تلوث الهواء الساكن هنا منذ 60 سنة ويزيد، فهواء المخيم لا يتجدد سوى في القرن مرة.

ولهذا مراهقتهم بائسة، ألفاظهم بذيئة، ملامس أيديهم جافة وعندما يقع أحدهم في حب فتاة تصغره في السن، يرسل لها الورود البلاستيكية الخالية من العطر والنظارة.

ولهم ذائقة مشوهة في تقدير جمال النساء.

في المخيم عقدة اسمها الزمن والوقت النافذ في الأشياء. يقاومون الزمن الذي نشب أظفاره فيهم منذ ستة عقود.

البنات في المخيم. لا يعتنين بأنفسن، سوى في الفترة الفاصلة بين حربين، بين الخطبة والزواج.

تفترق البنات عن الأولاد. يمتلكن أجهزة معقدة لا يملكها الأولاد. فيبقين على عذرية الوقت في العبث بالعرائس.

لا يتعاطين الغزل الا لماماً، وسرعان ما تتجدد دائرة الحيرة من جديد، عندما يبدأن بتنضيب حواجبهن. وسرقة الوقت في طلاء أجسادهن بالأصباغ، لإضفاء شيء من الحُمرة على قتامة لون المخيم بساكنيه وملابسه وطعامه ولون جراحه.

في المخيم نادراً ما تجد مرآة، تَصْدُق أهلها.

هنا النساء لا يمشطن شعورهن سوى في العمر مرة.

والرجال يحلقون ذقونهم بالسكاكين. ولا ينظرون إلى وجوه العذارى، خشية أن تنعكس صورة وجوههم الميتة في صفاء وجوههن.

تزهو بنات المخيم بطول القامة وتكور الصدر والعذرية النائمة للقادم الجديد. ولا جديد، سوى من البيت المجاور للوجع، أو الحي المقابل للعري، أو المخيم الآخر المشابه لعدد الغرف ولون الجدار وقرب الباب من الباب. وسرعان ما يستحيل لون الفرح ووجوههن إلى اللون القاتم، يهشمن المرآة التي اشترينها مع جهاز العرس. يتخلين عن كريمات التجميل. ومرطبات البشرة، عن العطور ومزيلات العرق، ويصنعن من الملابس الداخلية الملونة اللواتي حلمن بها لكسر الصمت وانغلاق الوجوه، يصنعن منها مماسك لأباريق الشاي، وفوط لمسح الغبار عن الرفوف، إذ سرعان ما

يكتشفن أن الّهو في ليل المخيم يفتقر إلى الضوء. والألوان الزاهية تصبح بلا معنى في غيبة الضوء.

يكتشفن فجأة، أن الجمال في ليل المخيم لا معنى له في العتمة. ويعرفن أيضاً أن الصوت عورة، والدلال خطيئة، ووحدها البكماء، محرومة الجمال، تنجب الأطفال وتُعمِّر أكثر من غيرها في المخيم. ووحده الصمت يلهو في الفراغ المتشكل في سماء المحاكم المنصوبة في الغرف الحمراء.

فالنوافذ تشي بالفرح، وللجيران آذان تسمع. ولهم عيون في الصباح تتلمس آثار الّهو المنصوب على شرفات الروح في العيون.

تتخلى النساء في المخيم، عن أشيائهن الخاصة كلها فجأة.

عندما تحاول النساء ذوات الخبرة إقناعهن بعدم جدوى شراء مساحات الليل واكسسواراته، روائحه وألوانه، لا يفهمن؛ يعاندن، ولإكمال مراسيم الزواج التي غالباً ما تكون متوقفة على كلمة أو حركة، سرعان ما تتخلى النساء ذوات الخبرة عن توجيه النصائح ويبكين في السر بكاء المشتاق.

في المخيم، لا يمشط الرجال شعورهم. ويفضلون الذهاب إلى مُزيِّن الشعر في السنة مرة.

يحلقون فيها جلود رؤوسهم، وبقايا الذاكرة أيضاً.

لا يشذب الرجال شواربهم، ويبقون عليها، خشنة وموحشة لأنهم ببساطة لا يُقبلون نسائهم.

أطفال المخيم يدرسون الحساب البعيد عن القوانين، لا يصدقون التاريخ، ويكرهون الجغرافيا، وفي الفترات الفاصلة بين الحصص الخالية من العلم، يقرأون عن صرخة واحدة، جَيَّش المعتصم لها جيشاً مستطيلاً كوجعهم.

التاريخ كاذب كبير. يعلّق أستاذ التاريخ خالي شعر الرأس ومتعة الحديث، ويرنو بوجهه إلى خارطة الزمان.

يفتخرون بتاريخهم القديم. وعندما يخرجون إلى الشارع. بعيداً عن نظرات أستاذ التاريخ، خالي شعر الرأس ومتعة الحديث، ينكسون رؤوسهم.

على عكس أطفال الأرض كلهم. يكره أطفال المخيم اللون الأزرق بدرجاته كلها. فهو يذكرهم بالوكالة التي أطعمتهم، وأجّلت عودتهم ووءَدت أفراحهم الصغيرة.

في المخيم، يتساوى المالك والمملوك، وتتحق عدالة الخالق في خلقه، يتساوى الواقف والجالس، الراكب والماشي، يتساوى الفرح بالحزن، ولا أفراح تقام في المخيم. سوى فرح الخروج منه، إلى حيث انطلقت أسراب الخارجين من الرحمة، الباحثين عن الكلأ والماء، ولا وجه حسن.

وبقينا طوال الوقت، بلا وجه حسن، نقابل بعضنا وفي أعيننا أسئلة تكبر وتكثر، تبقى معلقة في صدر البيت، كمشانق أبدية، تتعاظم كلما سار الزمان خطوه الأكيد، غير عابىء بنا.

تغيب أشواقنا، تتوارى خلف أستار أشيائنا الصغيرة، نطرب لزفاف عريس، لولادة مولود، لطهور الذكور وحيض البنات. وتبقى الأفراح صغيرة، بصغر قامات الرجال العابرين في الطرقات.

وبقينا نراوح المكان والزمان، ونجدد خلافاتنا في الصباح والمساء، في أعقاب الصلوات، في الأعياد وعند زيارة الأموات. وبين الخطوة والأخرى، وعند الزحمة والمطر. في الصيف وفي الشتاء وبين انتقال الفصول. في عيد الأم وعيد العمال ويوم المرأة. واليوم العالمي لمكافحة مرض الإيدز. حتى في القاعات المخصصة للمدخنين وغير المدخنين.

نتخاصم على النساء أولاً. وعلى الثوابت والقواعد، على المحور السيني والصادي،على الفتح والكسر، ونخلق جدالات لا تنتهي بين العصر والمغرب، وقبل الحيض. وفي أثناء الحمل وقبل الولادة.

عندما نأتي نساءنا في المخيم، نأتيهن بغير الرغبة. نقذف فيهنّ جَهلنا وقلة حيلتنا، ينهضن دونما نشوة، ويواصلن غسل الصحون، وإعداد وجبة الصباح اليومية. يجرعن شوقهن مرة واحدة دون ماء، ويدفن الرغبة الساكنة فيهن منذ ملايين السنين، بصبر وصمت حتى يكبر الرجال، وتنضج جلودهم.

في الصباح يحملن منا خوفنا المتجذر فينا، تكبر بطونهنّ. تمتد لتشغل هواء ومساحات المخيم، يواصلن الصبر وإعداد الأطباق

للرجال القادمين من التسكع خلف الأبواب وعلى الأرصفة الباقية للوطن.

يتجملن، يبتسمن ويضعن أحمر الشفاه الرخيص على شفاههن، يزلن الشعر الزائد كله. ولا نزيدهن نحن الا حيرة. وخيبة.

وعندما تحين موعد ولادتهن، يلدن صغارهن منا، يشبهوننا في كل شيء، في صمتنا وجهلنا وحيرتنا. وهرمنا المبكر وهزالنا المفاجيء.

نتأفف من فترات نفاسهن، تزوغ عيوننا.

يأتين على أنفسهم في كل مرة، ينتصبن واقفات ويبدأن في اعداد موائد الإفطار، وطقوس حلاقة الذقون، والإستحمام وتغسيل الصغار.

يزلن الشعر الزائد في اليوم والليلة مرتين، ولا نزيدهن إلا خشية منا. لتبدأ سيرة عنترة، الرجل ذو الشارب الثخين الذي يأبى الدنية، وفي سريرته لا يعرف طقوس الصلاة ولا حب النساء ولا مواعيد الحصاد.

يحملن منا من جديد، جهلنا وقلة حيلتنا.

ويزددن صبراً علينا، يزددن حكمة، ولا نزداد سوى جهالة، لا نتعلم منهن، أسرار الحياة وأوقات الصلاة ولا السير دون مظلة تحت المطر.

نحلم بالسهول والهضاب، نمتطي ظهور جيادنا الخشبية. ونرقص على جراح نسائنا. نأتيهن مخمورين بالحزن والخيبة. ندفن رؤوسنا في كثبان الدم واللحم، نطفيء عواء خيبتنا، هناك في

صدورهن، وفوق صرير الأسرة البالية، على ضفاف همس أطفالنا، ونحيب الوقت. وعقب كل حيض وطهارة.

في الشارع والمقهى. وفي غرف النوم وبيت الماء.

نحفل بالتفاصيل ونترك أشياءنا المهمَّة إلى ختام المشوار. عندها يسرقنا الوقت ومواعيد العبور، ونتوه في المواقف ومواعيد الوصول.

وتدور الأرض دورتها اليومية، تغير من وجهها وسرعتها عند المطبات، تنتفض أحياناً من رتابتها، دون أن نغيّر من عاداتنا السيئة الكثيرة في قتل الوقت، والنوم دون أن ننظف أسناننا، والبقاء خارج عقارب الوقت في انتظار انقضاء وقت العصر وطلوع الفجر وانتصاف النهار وقرب الزوال، يموت أُناس ويولد آخرون، تبدل الجدران طلاءها تقريبا في كل عام، ولها عادة تغيير الألوان، أما نحن، بقينا محافظين على طِلائنا القديم وحسرتنا الأخيرة. والإنتظار دون عمل.

بقينا نقاوم الزمن، نلح على الحنين. أننا باقون على العهد وعلى البطاقة الزرقاء، لتحفظ حقنا الشهري، في الحليب والسردين والطحين والزيت والأرز وشفرات الحلاقة، وفوط الأطفال والنساء.

يبدأ نهار جديد، ليس له طعم الصباحات الجديدة، له مرارات الأمس، وخوف الأمس، ورعب الغد. وأثقال العمر تزحف بتثاقل من خلفنا، نجر خيبتنا وسوء طالعنا، وخيبة أولادنا ونسائنا وغدنا المجبول بالعجز والقهر والإستلقاء على قارعة القدر وبين ثنايا السنين.

سِفْرُ المُخَيَّم (5)

(21)

الليل والمخيم، عنوان يصلح لدمي.

لعنتان تطاردان شوقي وانعتاقي.

ضدان جمعتهما صدفة طهاها القدر، أسرف في رش الملح على تفاصيلها الموجعة.

يتآمران على العشاق، وعلى أحلامي فيهما.

يضحكان مني، ويلهوان طرباً على أنين جراحهم، يسيران إلى جواري، يحتسيان القهوة المرة، يمتصان الوقت وينفثان الذكرى الحامضة مع السجائر الرخيصة.

في الليل، الممعن في حلكته عقب غياب القمر. في أوقاته المتأخرة، وبعد انتصاف السواد أو قبله بقليل.

أقول بعد أن ينام الخوف، ويغفو قليلاً تعب الخروج الساكن في ضلوعنا. المعشعش في تفاصيل مسامنا، نتساوى في نومنا بالراحلين.

ولا يتركنا النوم لنتساوي بهم في موتهم المؤقت، تداهمنا الأحلام وتعزف الذكريات المُرّة ألحاناً جنائزية.

في الليل، أزهو بالمخيم.

في ليل المخيم. العابق بالروائح والصور، الممتلىء عن آخره بالأوهام. أرى فيه ذاتي وأحتقره في الصباح.

فيه خطوت أولى خطواتي. وفيه تلقيت النبوءة وتعلمت الألف والباء والياء والنصب والجر، وتعلمت فيه أسرار قلبكِ. تعلمت

التلصص من خلف الأبواب، وجدران الصفيح، فيه فقدت عذريتي عندما اغتصبني الحنين، دون إرادتي.

في طرقاته المتربة بالشوق وعفونة الخروج. تعلمت أبجدية الوطن. وتعلمت أن الأوطان كالنساء، لها غشاء بكارة رقيق من الشوق.

تحب من يحبها أكثر، وتعطي أشياءها الخاصة، من كل قلبها، لأقل استثارة، تمنح نفسها لعشاقها دون تردد، وتنام معكورة المزاج من رتابة اللقاء ورطوبة الوقت.

في أزقته المظلمة، تعلمت الدهشة، واعتدت المفاجآت الصاخبة. في أزقته تعلمت العشق الساذج، وخبرت أجساد النساء الثقيلة المتكدسة بين المفارق، تعد المارة وتقيس قاماتهم، وتحصي عليهم أنفاسهم.

هناك. وعيت جسدي، وأدركت وجعي، ورضعت نقصي من صدر أمي.

علمني المخيم. أن أعزف على أوتار التناقض، وأعيش على الإختلاف. أن أتنقل بين النساء كما يتنقل العصفور بين الأزهار.

علمني المخيم.

أنَّ الخروج كان طريق مسدود منذ البداية.

ليقل جدي ما يقول.

ليصنع مبرراته التي يهوى.

ليبكي كما تبكي النساء.

عصافير الحقول لا تغادر أعشاشها إلا إلى قيامتها. والمهاجرة منها تعود، كلّما هزّها الشوق أو أيقظها الحنين.

جدي؛ ليرحمك الله، إذا بقيت بين الأموات إلى هذا الوقت. وليرحم عذابك.

كنت أعلم أن الرأس الذي تحمله أكتافك، يجول البلاد طولاً وعرضاً، يتسكع في البيارات وتحت مزاريب الوطن. يعدّها يتأكد من نظافتها قبل مواسم الشتاء بقليل، يتمرغ في الوحل، يأكل الطين، وينام في العراء عارياً سوى من عشقه القديم.

وكلما هزه الشوق لداره وحماره ومرعى طفولته، ومنعته أسوار الجُبن والخيبة من تحقيق رغباته. يحرق نفسه بنفسه تماما كالنار.

يقطف الرّمان، يعالج الزيتون، وتداعب أنامله الجافة أزهار اللوز في آذار. وينعكس في حلكة عينيه لون السنابل الذهبية في أيار.

يا جدي الحزين. لم تكن تقنعك وعودات أصحاب اللحى المطهمة بالحناء. بأن عذابنا سيدخلنا الجنة، وأن ظلمهم سيدخلهم النار. ولا كانت أحلام الرجال المنقوصة تثير غرائزك المستيقظة أبداً على الخيبة.

كنت بسذاجتك ونقاء فطرتك. تضحك منهم ومن عجزك وقلة حيلتهم. تتوارى خلف الزوايا، تتلوّن أطراف أصابعك من دخانك الرخيص. تغوص في عمق نفسك، ولا يثيرك الصراخ ولا العويل.

تطرب حتى النشوة عندما تسمع، أن شهيداً جديداً ترجل باتجاه الوطن، أو أن نصراً صغيراً ربما يبعدنا شبراً واحداً عن الهزيمة.

لكن انتصاراتنا الصغيرة، كانت لا تُدَّون، يجرفها التيار المار المتعفن الساكن فينا، تجففها خلافاتنا على ألوان العلم، على التواريخ والأرقام، وعدد الصفحات، ولون ربطات العنق التي تتناسب مع نضارة جراحنا.

مسكين جدي، مات دون أن يرى الجنة. دون أن يمتع عينيه بالشجر، مات متصحرًا، في صحراء المخيم، حيث لا ماء فيه يصلح للشرب، ولا هواء يخلو من العطب.

يرحمك الله يا جدي. منذ أن رحلت، وقد مضى على رحيلك قرابة ألف عام. لم نغير شيء من عاداتنا السيئة، من مواعيد نومنا، وشربنا للشاي وغُسلنا من الجنابة.

نم قرير العين أيها المسكين. فما زال مفتاح البيت معلقاً في صدر البيت إلى جوار صُور المرحومين، من الرجال الصالحين، علاه الصدء وازداد وزنه قليلاً، يقاوم الغدر والخون والتغيير والتغريب والقتل.

نم قرير العين أيها الشيخ العجوز محدودب الظهر، فنحن بفضل الله ما زلنا نحافظ على نزقنا القديم، وعلى أخلاق السادة. ما زلنا على العهد، نقاتل القادم الجديد، ونسافر أبعد من هاماتنا في الحب والكره، والرغبة في الإنتحار إذا استعصى علينا أمر بعيد.

لكن هواء المخيم المجبول بالوحل والحزن والجوع وطعم السردين، كان المخيم خيبتنا الثانية.. وحليب الوكالة سر عطبنا.

تقولين لي، وأقول لك.

نكذب أنفسنا. نلهو بالفراغات المتاحة بين أوقات صلواتنا. بين الصبح والعصر، وللمساء عندنا طقوس عجيبة، يركض الصغار، يتسكع الكبار وتبدأ النسوة بإعداد أطباق الشهوة للرجال العائدين من موائد العصيان.

يجتر الساكنون ذكرياتهم العفنة. ويموتون في اليوم والليلة على ضفاف حزنهم. يقاومون فرق الزمن، وفارق المكان بصور الأحلام المنشورة على أوتار القدر.

يقاومون حزنهم، يجادلون، يتخاصمون، ويحتسون الشاي المخملي المحلى بفترات الغياب، السكر زيادة دائما ولأطراف أصابعهم لها طعم الحنظل،ومرارة الخروج.

يتسلل الليل في سكون من بين أطراف الساهرين، يبدأ نومهم عندما يصحو المخيم على السعال وعلى الصديد وفضلات الأحلام القائمة.

الوقت في المخيم رمز للحزن، وفرصة ذهبية للندم.

تنتصب الساعات في بيوته كمشانق متدلية لقتل العابرين.

" نحن نعيش لنأكل..لا نأكل لنعيش"

لطمني الأستاذ عندما قرأت العبارة بالمقلوب وأصررت عليها.

كان يجدر بي أن أقول

" نحن نأكل لنعيش، لا نعيش لنأكل".

كظمت غيظي كله وقتها، ولعنته في سري..

وبقيت أردد لسنوات. "نحن في المخيم نعيش لنأكل"

ولو لم يكن كذلك. فلماذا نحن قابعون ما زلنا في أشباه البيوت، نتسكع بين طرقات الصمت، ونقتل وقتنا بالإنتظار.

ننتظر أواخر الأشهر وهي تزحف على ركبتيها فينا، ننتظر طحين الوكالة وحليبها وأرزاقها القادمة من أرجاء الأرض كلها.

نحن نعيش لنأكل على عكس أهل الأرض كلِّهم. ننتظر نهايات المواسم، وفتات الموائد، ندعي عشق الوطن، وننتظر زيت القلي، لندلك به أعضائنا التناسلية، كي تستفيق من عقمها الأزلي.

مرَ على المخيم أعوام بعدد الستين، وسيزيد. عشناها بكلها لنأكل فقط.

يقابلني الأستاذ "أبو سليم"، يضحك بمرارة، يضغط على كتفي بيديه الخشبيتين، ويردد " نعيش لنأكل.. نحن نعيش لنأكل.." ويواصل الضحك، حتى ينطفيء، ويمضي في سيره.

سِفْر العودة.

(22)

يقول لي صوتك الرطب مرة.

-" يجب أن تكف عن خجلك وتعثرك في الكلام.. فأنت تملك ما لا يملكه الآخرون"

نعم سأكف عن الخجل والتلعثم في الكلام عندما يبرأ المخيم من جرحه القديم. وأضع أحمال الذكرى عن كاهلي. سأبرء فقط عندما تموت الروائح التي ورثتها من جدي وتنتحر الصور. وسأتعلم من جديد صف الكلام، وتجويد الخط، وقواعد الإعراب، وفن العزف على القلوب، والسير على النار.

فعذرية الأرض الفَتِّية أبداً ترفض أن تمنح نفسها لغير حبيبها. على أن يبقى وفياً لها. وحتى يحين ذلك الموعد، سأحافض على حيرتي فيكِ وفيها. وأتعثر بخطوي إليكما. أتلعثم في الكلام أمامكما. وألحَنُ في الإعراب والعروض. وأقول شعراً مقيتاً جاهزاً، يخلو من الوزن والقافية والمعنى.

وسأتخلص من روثي وسوء خلقي ونزقي، وقلة حيلتي عندما أعود إلى ديار الحبيبة الأولى.

أنا لا أفهم التشاؤم ولا التفاؤل.

وأعرف أن الأرض لها رائحة. ولها صخر وتربة، ولها رحم ومواطن للشهوة، عليها يجرأ الأبطال على حمل السلاح، ومنها تلد الأمهات الأبطال، وعليها يدرجون.

بكى أبو عبد الله الصغير الخروج الأول من الأندلس.

" إبكِ مثلَ النساء، على مُلكٍ لم تُحافظ عليه مثل الرجال"

قدم "أبو عبد الله الصغير" استقالته من الرجولة، يبكي مثل النساء وأبقى لنفسه بعض مظاهرها.

الأمهات وحدهن يملكن الحل والربط والقول الفصل.

" أبو عبد الله الصغير" ما زال يبكي.. وتلعنه أمه في سرها ولا أظن أن بكائه سيعيد حشرة لتدفن في االمكان الذي ولدت فيه.

لا أظن الأندلس ستعود، ولا أرى فلسطين محررة لا في هذا العام ولا العام الذي يليه.

الأمر مرهون بالأرحام التي ماعادت تلد الأبطال.

أعدك بعدها أن أدعوك إلى زيارة البيت القديم، إلى العدو في البيارات وبين السهول وخلف الأشجار وبين الأعشاب.

من يسبق من، الحب أم أشياء أخرى..؟؟

وجودية السؤال تثير أسئلة أخرى، وهي بدورها تنبت أسئلة لا تنتهي. أبقى أنا بين الأسئلة والأجوبة كطائر جريح يعشق صياده.

أهو الحب إذن، ولكن كيف للملتاع المنفي من سلطان الزمن، أن يحلم بحب أميرة تتربع على عرش قلبها، تأمر وتنهى بالإشارة ويغار الشوق من لقياها.

كانت أكثر جرأة مني على البوح، وكنت أكثر منها جرأة على الصمت.

كانت تشتعل الحياة بتفاصيلها العامرة، تتسلل أولى خيوط الشمس في الصباح من خلف جفونها.

وكنت أرزح تحت ثقل الزمن القديم الذي ورثته كابراً عن كابر.

أعزو ذلك لثقافتها الأسرية التي كانت تتيح لها مساحات شاسعة من الرمز والحرية. وعاداتي الأسرية التي تمارس الصمت ونوافل الحديث والسير في شوارع فارغة من الأشجار المثمرة.

أتلفع باليتم الذي رضعته باكراً، أتعثر بالفقر عند كل منعطف وخلف كل زاوية.

وكلما عاودتني الذكرى، لا أتذكر البتة.

ينتصف عمود أزلي بيني وبين السماء.

من يسبق من ؟

في حالتنا نحن، من سبق من.

الحب أم الأشياء الأخرى؟؟

ربما نملك تعريفاً مقتضباً جاهزاً للحب. نردده بين شفاهنا بتثاقل وعفوية. ربما نتفق على شكل خاص نمارس به الحب دون أن ندرك المعنى الذي يختبأ خلف الكلمات.

ومن يسبق من. الحب أم أنتِ ؟

وتنتصب قامتك، في وجهي كعمود من نور. يشرق الفرح من جديد، وتتلون الدنيا، وأبدأ بطلاء الجدران الخارجية لبيوت المخيم بيتا بيتاً بألوان الطيف السبعة.

أبدأ بتزيين المداخل بعروق الزيتون وأغرس في رؤوس العذارى، زهر الياسمين.

يأتي وجهك الممتلىء عن آخره بالحبور. يضيء الزوايا. ويطلي الوقت بالسكر. أفرح عقب اللقاء. تتغير كيميائي، وتتلوّن أطراف أصابعي بالحناء، أنام قليلاً، وأصحو باكراً.

أنام على معزوفة الليل الساكن فيك، أصحو على أصوات العصافير، تنقر الشباك مكسور الزجاج كسندريلا تماماً. وأنتظر ساعات اللقاء.

تأتين أنت مزهوة بأشيائك، أتعثر أنا بك، يمدني الحب بقوة لا أعرفها، كأنني مربوط بخيط سحري يشدّني إليكِ.

ويشدنا أكثر هواء المخيم الساخن، ولزوجة وقته، يذكرني "ابو محمود" به، وتذكرني الأشجار وأعمدة الكهرباء وأوراق الشجر. فأعود مرة أخرى أتعثر بخجلي الأزلي.

يطاردني المخيم برائحته، وأزقته، ووجوه أيامه المُوّحدة.

أحمل تاريخ جدي القابع أبداً في زاوية قلبه.

أحمل التفاصيل كلها، في كل مرة تتقابل عينياي بضوء الشمس القادم من صفحة وجهك، أجرجر السنون الغائبة في الحيرة والتردد

بين المقاعد، والإنتظار بين الشهور وعلى الحافة الحادة للسنين، فأنا لا أستطيع أن أتخلى عن مسؤولياتي، خاصة تلك المتعلقة بجدي.

أنا ربما أكرر فعله، مع فارق المكان والزمان وغياب الوقت. عندما حمل والده قليل الحجم واللحم في مسيرة الخروج المهين. حمله على ظهره تارة، وتارة حمله على رأسه في صندوق كالنساء.

مات جدي الأول في الطريق، مات من بكائه على الحمار. والمسبحة وموقع السجود. مات من كمده على الصور المعلقة في الجدران. مات بالسكتة القلبية، وكان قد بلغ المئة وربما زاد فوقها عشرين. وكان يرجح له أن يتجاوز عتبة المئتين لو أبقوه في بيته الأول.

في الواقع بقي جدي يبكي المرحوم، قليل الحجم كثير التُقى لعشرين عاماً ويندم على حمل العجوز في رحلة الخروج المهين. ماذا كان يريد العجوز صاحب المئة من السنين التي عاشها في الوطن. ماذا أراد من الخروج.

حملوه دون رغبته، استخفوا بقوته، قاوم جدي الأول قليلاً، لكن المئة التي مضت أثقلت كاهله. فاستسلم لعجزه وللبكاء، ومات في الطريق.

تقول الأساطير،- وما أكثرها في المخيم- أن ملائكة العذاب وملائكة الرحمة اختلفت بشأنه، وكادت تمتد خلافاتهم إلى التشابك بالأيدي، ودار جدال طويل، كانت آثار دموعه ما تزال تطوق محجريه الصغيرين، وكان فيهما أثر التماعة حياة ما زالت، وفيهما الكثير من السرور والإيمان واليقين.

قالت ملائكة العذاب، هذا من الخارجين، والخارجون، مطرودون من الرحمات ومن شم الياسمين.

وقالت ملائكة الرحمة، لا نعلم النوايا ولكنه خرج برغم أنفه، قاوم الخروج، لم تسعفه قواه. والشاهد آثار الملح المتخثر على أطراف عينيه، من البكاء على ضياع وفراق فلسطين.

احتد النقاش، وكثر الهرج والمرج. والسائرون في مسيرة الخروج. يقلبون الكف بالكف.

بحث جدي حينها في زوايا عقله المشغول بالوطن، فلم يجد سببا للخروج، سوى الطاعة لرأي العامة، والعامة لا عقل لهم.

خامرته فكرة العودة من جديد، للقيام بواجبات الرجل قليل اللّحم، صغير الحجم والعينين.

لكن سيل الخارجين الجامح، صدّه عن التفكير. أقعى هو ونفر قليل. يحملون رؤوسهم المسفوحة بأيديهم. كان الرأي أن يتم دفنه في الأرض التي فارقت روحه فيها إلى باريها، أينما تكون.

غسّلوه بالماء القليل الباقي من دموعهم الجافة في أثر الرحيل، قرأوا على روحه "الفاتحة" و"يسن"، لم ينتظروا حتى الصباح كي يزيلوا وحشته الصباحية، ويجالسونه لبعض الوقت في صباحه الأول في المنزل الجديد. لم ينتظروا ليقرأوا القرآن على قبره كالعادة. ومضوا في كربهم وخيبتهم، وفقدانهم.

فحارس البيت الهزيل قد ترجّل أخيرا عن حماره، وغادرت ربة الحكمة البيت.

بعد أن سكن الشيخ بيته الجديد، وفارقه الأهل والأصحاب وخلة الطريق، عادت الملائكة من جديد إلى عملها، هذا يمسك بيد الشيخ العجوز يمنة إلى الجنة، وذاك يمسكه يسرة إلى الجحيم.

ويرسل الله المرسلين الملهمين كما في الأزمان كلّها، وعلى صور شتى، ومعانٍ لا يدركها سوى الصالحين.

يلوح طيف من بعيد، بملىء صوته ينادي، يرتدي ثياب البحر، من الإتجاه المعاكس للخروج، يفصل بين المتخاصمين يرضونه حكماً بينهم، يقدم لهم حلاً يرضى الطرفين. يعطي كل طرف من ملائكة العذاب وملائكة الرحمة، متراً. يأمرهم بقياس المسافة بين موقع خروج الروح،وموقع البيت قبل الخروج، وموقع الجسد بعد اللجوء.

ويا لمحاسن الصدف. يموت الرجل في المسافة الفاصلة بين الوجعين. ويكون هو أقرب إلى الوطن بخطوتين عن موقع اللجوء. يفصل بينهم رجل البحر بثيابه ورائحته، أن الرجل هو إلى الرحمة أقرب منه إلى العذاب. ما لم يكن عليه مخالفات أخرى لدائرة السير، أو لم يسدد فاتورة الهاتف النقال، أو لم يدفع ضريبة الأملاك لهذه السنة.

أنا مثقل بذاكرتي يا سيدتي إلى درجة الوجع، وأنت ترفلين بصفاء الذهن وخلو الذاكرة من أوجاعها.

وأحمل فوق ظهري، وجدان الأموات الذين قضوا في طرقات الخروج، أحمل في ذاكرتي صوراً قديمة لأمهات ألقت بأولادها من الشبابيك ومن على السطوح، خوفاً وطمعاً.

أحمل قصصاً لأمهات تركن أطفالهن في أسرة الخوف. ونساء أرضعن أطفالهن لبان السباع رغماً وقصراً.

أحمل بين أضلعي الدهشة والخوف، ورعب المكان، الكافي لإذابة المعادن..

أنا يا سيدة البيت التليد.

أجرجر خلفي أشياء البيت التي نسيها الأهل هناك، دون أن ينسوا طعم ذكرياتها. يذكرون آثار أصابعهم على الكؤوس والملاعق والأطباق.

نسيت ذاكرتي تحت الشجر، وفي الحقول، تركت ايقاع حياتي على البيادر في سمر الصيف وقرع الطبول والأرجل تدق الأرض لتستفيظ من غفوتها المسائية.

وتحمل عيوني صور ملونة، عن الأعراس والزفة الفلسطينية، عن البقاء في وجه الشمس لساعات، نعد الأشجار ومحارات الشاطيء، في انتظار موعد عشق، أو خطاب، أرسلته الحبيبة عبر الحمام الزاجل أو مع أحد الأطفال.

الفصل الثالث

نِهاية محتملة

(23)

وجاء الموعد الذي تحدثنا عنه بالأمس.

وكنتِ في الطرف المقابل لمعادلة العشق القديم هذه المرة، كنتِ تلميذة وأنا أستاذك.

تُبدل الأيام جلدها، وتبقى الأحلام تراوح مكانها، بقدرية البقاء والخلاص والمقاومة.

وكعادتك، تحترفين تبديل الألوان، وإختيار أحمر الشفاه الذي يناسب وجعي بك. وحرارة الجو، وسرعة الريح، ورطوبة اللقاء.

ولكل مناسبة من مناسباتك الكثيرة، طلاء شفاه يخصك، له لونك وكثافتك، وشفافية مشاعرك الغزيرة. تتقنين كما كنتِ دوماً العزف على الألوان التي أحبها، أو تلك التي علمني حبك، حبها. ترى ماذا أصاب مخارج الحروف ومداخل الشوق على شفتيك.

كانت شفتاك متقدة بألوان الطيف كله، ولها حرارة أصباح الصيف الباكرة، وأشواقه، ولها من الشروق ألوانه الممزوجة بالرغبة السابقة للشهوة.

ففيها دعوة مشرعة إلى تأملها، إلى تذوقها من بعيد في قبلة سرية غامضة، تعيد ترتيب الأيام وصياغة الساعات.

ليبدأ بعدها، زمن آخر، وتبدأ الساعة دوران معاكساً للعادة. عند الظهيرة، تدعوك إلى تناول قطعة من الكيك الغارق في السكر، في قبلة عنيدة لا تعرف أنصاف الحلول.

قبل العصر لديها رائحة خاصة، تبثها كما تبث الزهور رائحتها قبيل المساء، بعد أن تعيد إنتاج نفسها من جديد. وقبل صلاة

الغروب، تدعوك إلى لحظات قليلة من التأمل والغياب. تنسى على أثرها الصور القديمة، لتعاود في الصباح، تكرار التجربة من جديد بألق خاص، كأنك تعيشها لأول مرة.

وها أنت الآن تستخدمين أحمر الشفاه بغزارة شغف الأطفال بالشوكولاتة، ورغبتهم الغامضة في تلويث أنفسهم وطلي شفاههم بالقار، في سريالية مبهمة.

أحمر الشفاه الذي تستعملينه ويستعملك، يزيدك إغراءً للمارة، واحتراقاً أمامي.

ها أنت تؤطرين مداخل الحروف بإطارات ملونة لها رائحة خشب الصندل، وتطوقين مداخل الكلمات بألوان تمزجينها بيديك، تذيبينها بحرارة اللقاء.

لماذا تدخلينني في كل مرة تجربة فاشلة، بعد أن فشلت فشلي الذريع وشفيت منك.

وتعيدين تأطير شفتيك بسياج مصنوع من الإسمنت الملون، يحول بيني وبين اقتحام الكلمات، لمحرابك المقدس.

أم أنك تخافين الكلمات، وتبقين على الدهشة السابقة لها، كي تبقى مثقلة بهواجس لا تنتهي.

تضعين كحل بلاد العجم. وبعض الظلال أسفل عينيك. وتجهدين في رسم رموش العين لحمايتها من سهام غضبي، وثأري.

أنت لا بد، تلبسين قناعاً من الألوان. يحميك من حرارة كفرك القديم.

أنت حتماً تخفين عني شيئاً ما تخافينه.

ترى، أتخافين أن أقرأ عمرك.

أن أقرأ السنوات التي مرّت على بقائك صامتةً في غرفة معتمة، تواصلين الإنتظار.

ها هو شعرك المرسل، يختبئ خلف حيرته، بين الأحجار والأشجار الصغيرة، يطوقه الشوق، يمنعه من التنفس، ومن قراءة حظه وتاريخه القديم. تطوقينه بأحزمة تشده إلى الخلف، وقد كانت الدنيا بكلها تداعبه بأناملها، ويعبث الريح بتفاصيله المخبوءة.

هذا ليس لون شعرك القديم ؟

لا ولا لون بشرتك السابقة للحنين.

أتمارسين خداع العمر مثلي، وتصبغين شعرك بألوان قزحية !

ما الذي تريدين إخفائه عني، عن الشمس وعنكِ.

ما الذي تودّين قوله يا سيدة البيت. وتخشين من سطوة الكلمات.

كان لك صدر النساء المثقل بالثمر، يرقد الفرح على رأسه، يأتي المساء يُقرؤه السلام، وفي صبيحة كل يوم، وقبل أن تستفيقين، يتسلل الصباح على رؤوس أصابعه إلى غرفة نومك، يتحسسه، يتمتم تراتيله الغامضة، يبكي قليلاً ويمضي.

اليوم، نامت العيون، وتهاوت القمم. وتربعت تكشيرة عريضة مكانه تنبأ بالحدث الجَلل. فقد ذهب عنفوان الصدر وسطوة الشَعر،

وإغراء الشفتين. وها أنت تتساوين مع المخلوقات كلها. في إخفاء شيبها، وتأطير حزنها، وقتل شوقها برسم الوجه وإضاءته بالمساحيق.

ها أنت تتقنين الرقص على جراحك الآن، وأنت تتسلقين قمم الحزن الفاخر.

ولحزنك أنت لونه الخاص أيضاً.

يختلف الحزن من حي إلى حي، ومن بيت لآخر.

يقول تولستوي: " البيوت السعيدة كلُّها متشابهة في سعادتها، أما البيوت الحزينة فلكل بيت حزين حزنه الخاص وطعمه المتميز".

وكعادتك، يأتي حزنك أكثر إبداعاً من فرحك المسكون بالذكرى.

تطاردك ذاكرتك مثلي تماما بين الصفحات، في الصور والأصوات والأوقات، وأحداث اقترفتها يداك، تهربين منها، ولا تحتملها صفحة وجهك القديم.

أنت مثلي تماما، أصبحتِ مصابةً بعطب الذاكرة.

وها هي معادلة العشق القديم، تأتي بعبقها وزخمها وقدريتها، تأتي إلينا بعد العمر، وقد بدلَت أدوارها هذه المرة، أنت التلميذة وأنا أستاذك.

أرى النساء كل النساء، أحجاراً صامتةً في متحف التاريخ، أراها أتفحص مواطنها وتفاصيلها، تشبهك في الإنتماء إلى المملكة المقابلة لقلبي؛ ولكن شتان.

أتفحص الأكتاف ومفرق الشعر، وأتذكرك..

كنتِ لغيري، يفترشك الرجال كل الرجال، في الأمسيات ووقت السحر. وأبات أنا في عراء شهوتي ووحدتي، وموت أفراحي. أصحو على أطياف أحلام رجال لست منهم.

تنكرني ملامحي. ووحدي أنا أعرف كذبها. فأنا لم أرى فيها سواك..

تنفسي..

تنفسي بملىء رئتيك..

فلقد انتصر السيف على القلم. وأنتصرت عيناك، وحق لك أن تشربي نخب قلبي. وتقيمي الأفراح على صدري، وتعلقي الزينة والورد البلاستيكي على مداخل شراييني.

افرحي. فأنا المغبون، المقهور.

تنفسي بملىء عينيك؛ فلقد انتصر الموت على الصبر..

ازهي بنفسك وتدلّهي، وأنا المتيم بأحزاني.

تَنعمّي، وليعلو صوتك بأنغامه الغريبة، تنعمي بأشيائي التي ورثتها. وثروتي التي لا أملك سواها. تنعمي بها فأنت تستحقين الحياة على قبري، والموت على صدر الوطن.

اضحكي بملىء الفم. وبالجوانح كلها، لتلمع أسنانك بدمي المسفوح، عند أقدامك العارية مني.

تقلبي في فراشك. فأنا لم أنم بعد، وأصابني مرض الأرق. تقَّلبي على وجعي، فلك جلد سميك من الهجران والصبر المبلل بالعطور الفاخرة.

وتملكين مفاتيح الجلَدِ وتَحَمُّل البُعْد..

أما أناَّ، فلم تدربني الأيام المريضة على كثرتها، لم تدّربني على الصبر الذي تتقنين. وأخترت الصبر بعد الموت، عندما تتقد أقدامي بالبرد، ويشتعل قلبي بالوحدة.

تقلبي على وجعي يا سيدتي؛ فأضلاعك مني، ووقتك مني وقلبك مني، وأنا لست لي.

تخلَّيت بعدك. لمرة واحدة عن مشاريع قلبي كلها، دفعة واحدة. وانتصرتْ ألوان أحمر الشفاه القرمزية التي تؤطرين بها مخارج الحروف على السيف والقلم، ورجولة الوقت فينا.

أما وجهك المثلَّم بالذكرى، فهو اليوم ينتصب في وجهي كمارد خرج من قمقمه فأعاد لى الذكرى حيّة كـــأنها الأمس أو أمس الأمس.

وها أنت تعودين فجأة؛ دون إنذار أو سابق عذاب.

تماماً.. تماماً؛ كما ذهبتِ فجأة.

ها أنت تجلسين في الضفة الأخرى لنهر الحيرة، تغتسلين من خطاياك أمامي. كأن شيئاً لم يكن.

تصابين بالرعشة أحياناً.

الماء البارد يصيب أطرافك بالرعشة، ويطوق خدر المساء أطراف أصابعك البيضاء العارية من الحياء.

أنت لا يهمك عريك، تتحسسين قدري. وتتمتمين تراتيل وثنية لا صلة لها بأسرار الخلق أو التوحيد، ولا العبادة القديمة للموتى.

تتأملين مواطن الشهوة؛ دون اكتراث لغابة العيون المشرعة على نافذة جسدك القديم.

تغتسلين من ذنوبك كلها، ولا تتطهرين منها، وشتان ما بين الإغتسال والطهارة.

أنت لا تعرفين الطهارة، وفي كل ساعة تقترفين إثماً جديداً يستوجب الطهارة.

فمحرابك وديانتك، على عكس الأديان كلها. لاتشترط الطهارة للعبادة؛ وربما تغوي بالإثم، والفحش، كي تبقين متوجة ربة للإثم والجمال.

أجلس في الطرف الآخر لمعادلة العشق القديم؛ وقد تخلص تلميذ الأمس أُستاذ اليوم من تعثره وخجله، أو هكذا يظن. وأصبحت أنت تتعثرين بالخطو بين الخطو، تتأتئين بالكلام الذي لا تودين قوله. وتدخِّرين الكلمات الهامة إلى المساء. لتقولينها في غرفة من الزجاج مكتوم الصوت، كي لا يسمعها أحد سواك.

ها أنت تجلسين أمامي. كتلميذة نجيبة، تتقن سلخ نفسها عن نفسها، وتعيش الأدوار كلها. تعرف متى يبتدأ الصمت ومتى ينتهي إلحاح الذاكرة. وتدرك بحدس عمرها وظُلمها، متى ينتهي الصبر ويبدأ عبث القدر. وتعرف عدد رموش العين اللازمة للبكاء على صدر القدر، كي ينسى ظلمها القديم ويستسلم للغفران.

ها أنت تتعثرين بعشرين عاماً من الخيانة، والسقوط، والتسليم. ومقاومة التاريخ، والعدو أمام القدر.

أنتشي أنا، لبعض الوقت.

معادلة موتورة بيننا، تتغير أطرافها كل لحظة، ينتشي أحدنا بنصره الصغير، ويبكي على الحافة الأخرى.

أنتشي بنصري خارج الزمان وبعد المكان.

وتبكين أنت على الحافة الأخرى. ونتبادل فيما بيننا الأدوار.

لا أحد سوانا يدرك المعادلة القاسية التي تمور داخلنا. ولا يقرأ مفرداتها سوانا.

كانت مسرحية سيئة الحبكة. وأدوارها الرئيسية أسندت إلى الكومبرس.

المخرج ترك المسرح أثناء التدريب، وسافر في رحلة مجنونة إلى معابد الهند القديمة، يسائل القديسين والرهبان وعبدة الأصنام، ينظر في عيون الزّهاد والنّساك، ومن نذرن عذريتهن لأرباب الظلام، يسائلهم جميعاً عن سر الخلق وسر الموت، وسر الخروج المهين، عن خلود الروح وفناء الجسد بعد الرحيل، عن خلطة سحرية لإذابة العشق. عن الأوقات المناسبة للنوم ومواعيد الصلاة.

رحل دون أن يحمل زاداً ولا متاعاً، وأخذ معه النص الأصلي لمسرحيتنا الهزلية هذه، يبحث بين الوجوه على اختلاف وجعها وألوانها. عن شخصية رمزية لها تجريدية عينيك، وصمت قلبك أمام القدر، كي تقوم بالدور بعد إعتزالك أو انتحارك المتوقع.

وها هو المسكين يمضي على ترحاله قرابة عقدين من الزمن ولا أخبار ولا أسرار. لا رسائل تصلنا منه في البريد الإلكتروني المخصص للنسيان.

وبقيت هذه المسرحية تُبث على الهواء مباشرة؛ دون ممثلين، ودون مخرج أو نص أو جمهور، طوال السنوات الستين الماضية على الخروج.

كنا نكمل فصول المسرحية القدرية بغباء الممثلين المعتزلين، أو أولئك الذين يخشون إعلان فشلهم خارج المساجد بعد صلاة الجمعة أو عقب قداديس الأحد الحزين.

واستطعنا أخيراً أن نؤدي الفصل الأخير منا فيها، لكن فصلها الأخير كان سخيفاً وسمجاً وغير مقنع للمارة، ولا للجالسين في المقاعد الأمامية فينا.

في الواقع، كانَ هذا الفصل، من قريحة مخرجنا الحزين، وقد ازدادت أسئلته غموضاً، كلما قابل ناسكاً أو عاشر راهباً أو تحادث مع رجل دين.

بالأمس فقط، عُثر على مخرجنا غريب الأطوار، وبطريق الصدفة. وقد استطالت لحيته حتى وصلت الأرض، لم يقص أظافره منذ الخروج الأول. ولم ينم منذ النكسة يوماً واحداً. يعشق التأمل، يعتاش على فتات ذاكرته القديمة، يصلي صلواته كلها دون طهور، ينام في عراء أحلامه، يفترش الليل ويلتحف ظلمة ماضيه. اكتشفه أحد المارة، من خلال لون عينيه الذي يشبه إلى حد كبير لون فلسطين. وجده جالساً في إحدى المعابد يمارس طقوس عبادة الأنثى،

ووجد في وصيته شرحا مفصلاً للنهاية المحتملة التي أرادها لإخراج مسرحيتنا الهزلية، مجهولة النهاية، مقزمة الأطراف.

ووجد في وصيته رغبة أرادها أن تتحقق بعد موته، رغم بقائه على دينه القديم، فقد أوصى أن تحرق جثته في محارق الهندوس، وينثر رماد جثته في عيون النظّارة، قبل أن يصابوا بالنعاس أو يقعوا فرسية الإصغاء الشديد.

مسرحيتنا يا سيدتي شارفت على الملل، وأصبحت أنتِ أكثر شخصياتها غرابة. وها نحن نبدل الأدوار فيما بيننا. بعد أن عشت عمري كله تلميذاً في محرابك القديم.

أقف في الأمام؛ تجلس هي أمامي تصغي إلى كلماتي، ولم تتعلم حرفة الإصغاء من قبل.

كنتُ أودُ قبلها، أن أعلّمها فن الأصغاء إلى صراخ القلب قبل الفراق، أن أستعيد معها ذاكرة البقاء على الأرصفة، تنتظر الوقت المتبقي لعبور قطار الليل الأخير. وأعلمها ايقاع سمفونية الحياة الأزلية في الحياة والموت، في الهبوط البطيء والسقوط المدوي. في الحب والكره، وفي آثار أقدام الزمن على الجباه وبين السطور.

كان شيئاً ما، في عمق عينيها. مكسوراً، مهشماً.

تتحسس جدارن ذاكرتها بكلتا يديها، تبحث عن قصة حب عاشتها ذات يوم.

الحبيب الموعود، اشترى تذكرة العبور باتجاه واحد. مزّق جواز سفره الجديد في الطائرة، وألقى به في دورة المياه. وابتعد بما يكفي لينسى، سلَّم نفسه لأقرب رجل شرطة، وأقسم أن لا يعود.

يتنقل بين النساء، بلا تكلف ولا سابق تأنيب.

أقسم أن لا يضاجع امرأة مرتين.

وقد أمضى سنوات لا يعلم عدادها، في حبٍ عذري مقدس، لم تتخطى يداه حاجز الأدب فيلمس أناملها او أطراف تاريخا المبلل بالغموض.

مزق الحبيب جواز السفر المزور الذي استصدره على عجل، وقرر العيش في بلاد البرد والصقيع، يمارس الدعارة في العلن، يحترف القوادة لأصحاب الألقاب الرفيعة، والذاكرة السريعة.

يعيش على الصدقة والشفقة والسرقة، بعد أن سُرقت ذاكرته منه، مع ما سُرق من متاع، ولم يستطع أصحاب الألقاب الرفيعة والذاكرة سريعة، مساعدته في استعادة ذاكرته ومقتنياته.

اكتوى بالهمس واللمز والتآمر على لغته وعملته واشيائه الصغيرة، واكتفى بالعيش في ظل الوقت والتلذذ باليوم حتى يحين المساء كي يقتله بدم بارد، تَعلَّم أن يعيش بلا ذاكرة كي لا يقع في شرك النسيان.

كانت هي تقاوم الهجران، وإلحاح الوقت.

وكنت أنا، بحذر وخدر لذيذ، أحرر الغُرز الجافة من آثار الجرح القديم، دون أدنى شعور بالألم، وأستعيد عافيتي.

بالأمس البعيد، كانت ذاكرتها بيضاء لامعة، لا يعتريها الغموض ولا عثرات الطريق. وهي الآن يعتريها الرعاش ويطوقها شوق البعيد إلى البعيد، تقاوم حنينها، تبحث عن قادم لا يأتي، ومفارق لن يعود.

قالت وقتها، وأظن أنني من قال حينها :

" **للزمن حكمة لا ندركها حتى نشيخ.. وعندما نشيخ نفقد الرغبة** "

صمتت؛ وأغمضت قلبها ووسع عينيها في بكاء داخلي له ملح الدمع وحرارته.

تُمعن هي في إنكار ذاتها. وأمعنُ أنا في نسيان ذاكرتي التي خلفتها ورائي هناك حيث دفنت مقتنياتي العزيزة كلّها.

تجلس قبالتي؛ كتمثال من الشمع ينتظر الشرارة الأولى كي يذيبه شوقه.

في دخيلتي، وما أظلمها. لم أكن أعرف إن كنتُ أقتصُّ منها وقتها. أو أنني أجالس الدفء المتولد من حضورها كي أقضي على برودة الساعات التي مضت، وأنا بعيد عن عينيها المصابتين بكسل شتاء العمر أو خدر هزيع الليل الأخير.

تتقابل نظرات عينينا، تحفر في الظلام قبور الموتى. تعيد إدخالهم إلى غرف التعذيب السوداء من جديد، تقمع أظافرهم، تنزع جلد رؤوسهم. وتطفيء السجائر الفاخرة في عيونهم ومنابت شعرهم، وتنتشر رائحة اللحم المحترق على موائد الخيبة من جديد.

أحفر في عينيها البكر، خنادق للوجع، أتخندق فيها، أطفىء الأنوار، وعندما تأتي، أطلق صفارات الإنذار. وأرش الملح على جراحها، أضحك ضحكتها القديمة في وأمضي.

أتركها كي ترمم ثقوب ذاكرتها وتطفىء الحرائق المشتعلة في الغرف الداخلية لعينيها الشرقيتين.

أستخدم الديناميت والمبيدات السامة، لقتل الوقت المتبقي في الزوايا البعيدة لعينيها الغامضتين.

أتلذذ في عنادهما وجلدهما، أطيل الساعات كي أبقي على صَلبهما في الغرفة العارية من الأثاث، لتعترف بما اقترفته في غيابي.

ولا تزداد سوى عناداً وكفراً، وتدرك أنني ألعب معها، آخر ألعابي البهلوانية قبل أن يسدل الستار عن المشهد الأخير. تصمد، تصبر، فما هي إلا صبر ساعة، ويعود المشتاقون إلى اللّقيا من جديد.

تعاود هي إجترار الساعات وإعادة انتاج الدقائق وتعليبها في عبوات معدنية، لها تاريخ صلاحية مفتوح على جرحنا وذاكرتنا المشتركة.

تقول لي:

–" عيونكَ الذكية، تثير دهشتي وأسئلتي، وجبهتك العريضة تشـــي بصفاء الذهن، ونقاء السريرة ".

وأقول لها:

– " لك عيون تتقن ثقافة الغدر والفتح، وفيها كَتب التاريخ أسطره الأولى، وأنفك الأسطوري، صنعته سنوات طويلة من الحضارة "

نتبادل الغزل الصريح بالكلمات الجارحة.

تتلامس أناملنا عند أطراف الوجع.

نعيد فتح جراحنا بعناية، وصبر وخدر لذيذ، نوهم قلوبنا بحسن النوايا، وعودة الأيام.

نبتعد بعدها آلاف الأميال، كي لا تأخذنا أشواقنا خارج الغرف المضاءة باللون الأحمر، فيقرأ اللآخرون تراجيدية العشق المستحيل بين النار والماء، بين السماء والأرض، بين الألوان الحارة والباردة، بيني وبينك.

وتمارسين عادتك القديمة في البكاء أثناء العبادة، وتظنين أن آلهتك التي صنعتها بيديك، تصدق دموعك ويبهرها إنهمار المطر. وتمارسين عاداتك الوثنية جلّها في قلب الحقائق. وإغراق الذاكرة بالماء والصابون.

وأمارس عاداتي التي تعلمتها على يديك. في تطبيب الجراح ومسح الدموع بشهادة ميلادي القديمة التي بللتها قبلك دموع الندم، على رفات الباقين هناك بين الصمتين. صمت القبور وصمت الوحدة لخلو المكان من البشر.

ونراهن في شوقنا على الوقت الباقي فينا.

على معجزة من السماء، من تحت الأرض، من بين التجاعيد الباقية، بين موعد صلاتين. كي تعيد لمفتاح البيت ألقه، وللقلب لهفته.

نراهن على الحصان الخاسر. في الزمن المتبقي لإقلاع الطائرة المحملة برفات أبلاه طول الرقاد، وبقايا من شهدوا الخروج.

تراهنين على آلهتك المصنوعة من الشوكولاتة. وأراهن أنا على الخيبة المجبولة مني، المصنوعة من دمي الفاسد بعد الخروج.

كنت تقرئين عناوين صحف الصباح باللون الأحمر على جبهتي، وتشاهدين المارة يعبرون صفحة عيوني، وترسمين فيهما أجمل لوحاتك وأكثرها تجريدية.

تبدو عيونك أكثر ثقافة من ذي قبل، وإن قلَّ ألقها، لكنها لم تزل تحافظ على دفء المعابد فيها، ولها منها غموض الطقوس. كنت بلا إرادة مني كلما وقفت أمامها، أرتد عن ديني وأمارس طقوس الوثنية التي تعلمتها على يديك.

أُقبلُ الأعتاب، أتحسس الرموش، أتفحص المكان الممتلىء عن آخره بالنساك. أشاهد الوثنية بأزهى صورها.

في عمق المعبد الوثني، يجلس تمثال من الذهب الخالص، يتربع بسخرية من سذاجة صانعه، نساكه ومريديه، أتمتم كلاما لا أفهمه.

أسلم جبهتي العريضة الممتلئة بالذكريات كي يضعوا عليها علامة أخرى من علامات الهزيمة، وأواصل الدوران والدروشة في معبدك القديم. وتواصلين أنت الضحك مني ومن غباء البشر القديم.

في اختراع عشرات الآلهة، ولم يستطع أي منهم اختراع بعوضة صغيرة.

أخرج من المعبد القديم مصاباً بك.

يُكّذبُ عينيه من لا يصدّق لغة العيون.

فهي نوافذ مشرعة بطول النهار على دواخلنا.

نجفف على شرفاتها غسيلنا الوسخ. وترخي أحلامنا المؤجلة جدائلها على شرفاتها المطلة على عرينا.

لا نستحي من عريها إذا تعرت في النهار. نؤطرها أحياناً بالخيبة، نكذب على أنفسنا. ونخفي عنادنا لأنفسنا.وإهمالنا للوقت الباقي.

نؤطرها بالألوان كي نخفي خوفنا من أنفسنا. ورغبتنا الحميمية في البكاء على قارعة الطريق، ووقت الزحمة. وأثناء سقوط المطر.

كانت نوافذ عينيك ينقصها الضياء اللازم لطقوس العبادة. أم أنك كعادتك تخافين الضياء وتعشقين الظلمة.

وتخافين التحديق في الأفق؛ وتعيشين يومك بمسراته. تؤجلين غسل الأطباق وكيّ الملابس. تحبين الأكل في المطاعم واستعمال الأدوات التي تُلقى في سلة المهملات عقب الإستعمال، ولا تحتمل الغسيل.

وتكرهين إغلاق النوافذ أثناء الليل. وتنامين عارية تماما من ذنوبك كلها.

أنت امراة تكره عاداتها كلها.

وتكره أكثر، الزائر الثقيل الذي يزورها كل شهر مرة. وتكره الإستحمام بالماء الساخن. وتكره أمومتها للوقت.

لا تداعبين أطفالك، ولا تصنعين السيريلاك والكستر لهم، لا تغلسين ملابسهم في الأسبوع مرة، كما تفعل النساء.

أنت امرأة ما تزال تعاند نفسها وتاريخا، بطول قامتها.

مصنوعة أنت من عيدان الكبريت الجافة، سهلة الإشتعال سريعة التوقد. لا تخافين الوقت، تكرهين الإنتظار، والبقاء على أرصفة الوجع، وتشعلين حرائقك وتمضين.

وأجهد أنا في إطفاء الحرائق على جانبي الطريق التي تسيرين بها، لا تأبهين لجبهتي العريضة التي أحببتها، وقد تلطخت بالسواد والسناج والغبار والرماد، وتأنيب الضمير.

وكنت أنا أعشق عشقك في الموت دون رغباتي.

وداهمتنا الحيرة على غير ما توقعنا. نتنقل كلانا في حقل مزروع بالألغام فُقدت خريطتة السابقة لنا. مع كل حركة أوهمسة أو لقاء عابر، أثناء سفر العيون في الوجوه، تصطدم الذاكرتين وتنطلق شرارة تشتعل على اثرها حرائق جديدة.

تتغير ملامحنا في كل مرة. تنشب أظفارها في الوجوه وعلى الجبين.

تبدو لنا آثار أنيابها على وجوهنا ونخشى أن يلحظ ذلك المارة عبر أزقتنا القديمة، أو الجالسون في طوابير الإنتظار لإيداع النقود أو سحب آخر النقود المتبقية فينا.

أغالب الضحك، ويتنازعني بكاء العيون.

أأنت انت..؟؟

وأنا.. ؟؟ أنا..؟؟

ماذا أراد الزمان أن يقول لنا.

كان بإمكانه أن يقول ما يود قوله بطريقة أقل افصاحاً وفضحاً لمشاعرنا.

أقف خلف الطاولة؛ وتجلسين أنت في المقعد الأمامي مقابل الذكرى تماماً. أرتجف من حضور ذاكرتي المفاجيء كأنها طيّار هبط في مظلته هبوطه الإضطراي المفاجيء، يتضرج وجهي دونك.

أنتِ .. أنتِ..

ما زلت تمارسين قتل الخجل بالوقوف أمام شرفته مباشرة. والتحديق في عينيه. وتواصلين التحديق بعناد المرأة، في جبهتي العريضة، وتركنين إلى مهاراتك الكافية الباقية أزلاً في الإغراء والإبقاء على حرارة المكان.

لم تتحرري بعد من عقدة العظمة التي لازمت طول قامتك.

تعاندين الوقت، وتقفين في مقابلته لا تكترثين بهزات العقارب. وضجيج الساعات، كأنك تقفين أمام أحد التماثيل الصامتة في متحف لتاريخ الصور.

أغار أنا، برغم كل شيء من صمت وجهك. وتأطيره بالدهشة تارة والحيرة أخرى، أو أن تنعكس دهشتك أو حيرتك على مشاعرك العابرة.

فأنت امرأة المتناقضات الكثيرة.

امرأة تصحو على صوت الديك في الصباح، وتظن بملء قلبها، أنه يصحو ليغني لها. وتعاند غباءها الجميل المؤطر بعذوبة الوقت وتواصل الحلم والعناد، والتحديق في المرآة، وقتل الوقت بالصمت الجميل.

ففي الصمت وحده يتساوى العابرون جميعهم على اختلاف تسطُّح الجرح، وعمق الوجع.

حولك كانت النساء كلهّن، عجماوات،عجفاوات ولا يملكن ميزات الأنوثة ولا الأمومة، ولا المقدرة على إنتاج الحليب أو قطف الثمر. حولك؛ كانت أشباح نساء، أشباه نساء، أنصاف نساء، وظلال باهتة.

لهن نفس صفاتك تقريباً، وآثار الجمال البائد يجلس بخجل وأدب جمٍّ، عند مفارق شعرهن المصبوغ، وعلى أطراف شفاههن المؤطرة بالألوان والكلمات.

لهن استدارة الخصر نفسه، وعناد الذاكرة، وبرود العواطف، ولهن نفس الجلسة الجريئة المقتحمة في عقد القدمين فوق بعضهما البعض تقريباً، يلبسن نفس اللون اللحمي الذي يظهر لون البشرة ويخفي عطبها.

لا يصغين جيداً لما أقول.

ويجاهدن في قراءة تاريخي القديم، وتجاربي المتعددة، ورغبتي الحاضرة دوما في البكاء على صدر الذكرى.

أجلس قبالتك، وتجلسين أمامي. ويؤثث المكان تماثيل لنساء المجتمع المتحضر مصطفة لا أراها، وأرى أثار عيونها تقتحمني.

نتبادل التحديق في المجهول، يوطرك الحياء، ويتملكني الخجل، أكاد أنقلب على وجهي، وأنكفىء عن خوض تجربة الموت الجديدة.

ولأصرف قلبي عن استعادة أوجاعه وحقوقه القديمة، أعود وأتذكر الهدف الذي جئت لأجله.

أتذكر بعض التقنيات الحديثة التي أتقنها في السيطرة على الذات. وافتعال الهدوء. واهمال الجماهير. والنظر في عمق نفسي والقفز بين الجسور العالية، وعبور الأرصفة بين السيارات المارة، دون أن أصاب بخيبة جديدة.

تتهامس النساء. وتتنقل الأبصار بيني وبين الوجوه المستديرة كالساعات. يتجاذبن بقايا الأحاديث المسائية.

أن تحافظ على البقايا الباقية من الرجولة، في مجتمع حافل بالنساء. مؤثث بالعطور من كل نوع، وروائح أخرى يجترحها امتزاج الجسد بالمكان والزمان واتجاه الحديث. تحتاج إلى إستدعاء الأنثى الصغيرة النائمة في الأحشاء منذ بدأ الخلق.

كنت محتاج إلى إستدعاء الأنثى الصغيرة، ولا أحتاج لسواها. فسيدات الطبقة المخملية. وبعد هذا العبور على الرغبات كلها، يشتقن إلى إطراء سالف الزمان لهن. وأن يقف رجل مثلي يُجرجر التاريخ

خلفه كمن يجرجر كيساً ممتلىء عن آخره بالذكاريات البالية. ليقول ما يردن سماعه.

لكن معك لا ينفع إستدعاء الأنثى، وبقيت لبعض الوقت أطارد عينيك وذاكرتي.

تزدحم صور كثيرة أمام عيوننا.

أطردها خشية أن أقع في خرف الذاكرة الفجائي أمام الحشد وأصاب ببلادة الإحساس.

جاء صوت السيدة صاحبة القلادة المعدنية الموغلة في ترفها، من على المنصة الواطئة في قاعة الإجتماعات. لينقذني من المواجهة المؤجلة زمناً، طالبةً من الحضور الصمت.

فترات الصمت هي أقصى الأوقات التي تسبق القفز بين الكلمات، نجهد خلالها في تنميق كلامنا ونخدع أنفسنا ونكذب على الآخرين.

وطلبت منى تعريف نفسي بالحضور.

طلبت، بذكاء مهاراتي في الإتصال ورغبة مني في كسر حاجز الفراغ المتشكل بيننا، أن نبدأ بتعريف الحضور لأنفسهن كي أقر التاريخ وأرسم الخرائط السابقة للزمن.

في الواقع كانت أولى كذباتي.

وأردت من ذلك تعريتك أمامي.

أريد أن أتحسس جسدك المترهل. أن أتعبد الزمن الساكن في تفاصيلك المخبوءة. أعلم أن الوقت يعبث بنا. ويكتب السطور الأخيرة لتاريخنا. وما بيننا ليس سوى رحيل جديد، جاء ليعيد كتابة التاريخ الأول للرحيل.

ما بيننا يا سيدة المنزل المسكون بالذكرى، ثأر وذل قديم، واختلافات متجددة في الأساليب الملائمة للمقاومة، في السبل الصحيحة لزراعة الألغام. واختيار الوقت المناسب للهجوم. وإعداد الإستراتيجيات الملائمة، للقفز بين الجسور.

ما بيننا فراغ مرعب من الأسماء والأشخاص والألوان والتواريخ والأحداث، وهوة عميقة شكلها قدرك ووجعي، وافرازات الزمن الذي لا يهدأ ولا يمل من تكرار نفسه.

ما بيننا فروق طبقية، في الألوان التي تحبينها ولا تناسبني.

أتأمل المدن التي عبرتها عيناك. أتأمل شوارعها، وأزقتها والأسواق والمحال التجارية التي زارتها، اتأمل مفارق الطرق المكتظة بالمتسكعين على سطوح جراحها.

أتأمل مدينتي النائمة فيك.

ترى متى ستصحوا مدننا من نومها القديم.

وهل شاخت شوارعها وامتلأت بالتجاعيد كما شختِ أنتِ.

لكن شتان بين تجاعيدها، والخريطة الذهنية التي رسمها تاريخك على صفحة وجهك، بخطوط سرية وأخرى لها رائحة عطرك النفاذ.

أنتِ المدينة.. والمدينة أنتِ.

لا فرق بينكما، تشهد الأرصفة، والشجيرات المصطفة على جنباتها على مشاعرنا، على خطونا وخواطرنا.

وأنتِ. أنتِ لا تستطيعين الهروب من الذاكرة، ولا تستطيعين العودة إليها. لا تملكين الجرأة الكافية لتأثيث ذاكرة جديدة. فالصور القديمة، والروائح القديمة، وآثار خطى العابرين مرسومة بكلها على تاريخك المخبوء، تطاردك، وتمنع الهواء أن يتجدد في رئتيك.

مرة أخرى تطاردنا الصور القديمة، تخطوا خلف خطونا، تراودنا عن نفسنا، تشعل رغباتنا الساكنة فينا، وتمضي.

قالت النساء أسمائهن، وبدأت بإحصاء العدد. أنتظر سماع أسمك من بين الحضور، وأدّعي الجهل بالتاريخ وبالجغرافيا كلها.

وجاء دورك انتِ.

ونطقت بإسمكِ في حضور الجميع، وتعرفت إليك للمرة المليون بعد الألف.

وكذبت على الجميع، وكذبت على جراحي كلها. وأنت تؤطرين كلامك المعسول المنمق، وتجهدين في اختيار الكلمات المهروسة على مقاسك الخاص.

ـ" سعادتنا كبيرة أن تكون بيننا اليوم وأن نتعرف على مهارات جديدة في التواصل، وتقليص الهوّة بين الأجيال..."

وكلمات أخرى كثيرة لا أتذكرها.

لكنها كانت لا تشبهك في شيء.

وتنثر الرماد في العيون.

الأفواه ترقب مخارج حروفك المحملة بالصور وبي.

تجاهدين رسم الكلمات بالفحم أو اللونين الأبيض والأسود دون أن تسمحي للدرجات الرمادية أن تقتحم صوتك. فتخونك ذاكرتك. وتنفجري على قدميك فتلطخين المكان بالشوق والحنين إلى الأيام الأخرى.

تكذبين أنت كما تتنفسين. ولا تصدقك الكلمات.

وأنا أجترأ على الزمن، أبحث عن المفاتيح القديمة التي أخفيتها تحت معطفك، وفي حقيبة يدك المليئة بالأسرار.

ماذا أريد..؟؟

حيرتك المرسومة تحت التجاعيد، تعيد طرح الأسئلة، ترسم هالات داكنة من الوجع والرغبة في الخلاص من طقوس المواجهة بيننا.

يعرفني حدسك وأعرفه، وأهرب من ذكائه المرهف.

يسائلاني كلاهما.

ماذا تريد..؟؟

هل جئت لتسجل نصراً سخيفاً، بعد كل تلك الهزائم المتراكمة – وبالمناسبة كل منا له وجهة نظره الخاصة للنصر والهزيمة–، هل جئت لترفع رايات النصر على الأعمدة الرومانية القديمة، متآكلة الأطراف مهترئة التيجان.

هل جئت لتلوّح من بعيد للأرواح الساكنة في القلعة الحمراء للوجع، مبتسماً، وتجعل منها "شاهد ملك" على إسترداد الكرامة، والحق في الرفض، والإنصراف دون استئذان، أو البقاء رغماً عن القدر.

يسائلني حدسك المرسوم في هالات الحيرة المرسومة بعناية في وجهك.

.. ماذا تريد؟؟

لكن أعظم الأسئلة وأكثرها حيرة، تلك التي كانت تنبت في رأسي.

أفكر في امتلاكي لموهبة التفكير في أمرين معاً، دون أن أستسلم لكسل التأجيل.

أقف بين سيدات المجتمع لأقول كلاماً جديداً،عن حرية المرأة، وسعادة المرأة، ورائحة وجمال المرأة. عن مهارات جديدة في التواصل بين "الزهرة" و"المريخ". عن نساء عصر "نفرتيتي" وعصرالعولمة، لأقول كلاماً تعرفه النساء منذ الأزل، ويكتمنه عن أنفسهن درءً للمصائب وتأجيلاً للخطر.

ها أنا أقف أمامك.

للمرة الأولى، عاري الساقين مكشوف الذكرى والذاكرة. أتلمس البائد وأتفقد الباقي.

وأسئلة في عين الوقت تنشب في رأسي..

أطالع تقاسيم الوجه الذي اشتقته للسنوات الكثيرة الماضية، ولم أجرأ على اقتحام حرمته خشية من الإنهيارات المفاجأة. وربما عناداً

قديماً ورغبة غامضة في البقاء على الجرح المتقد بالأوجاع الصغيرة المتجددة. كي لا أصاب بكسل الذاكرة أو تلفها المبكر.

أمتطي فرساً مطَهَماً أعدو أمامك في الساحة، أزهو بجرحي القديم.

لماذ جئت.. تُسائلين..؟؟

لماذا الآن، أسائل أنا نفسي، وأقول كلاماً كثيراً من خلف قلبي أمام الحضور. كلاماً حفظته عن ظهر قلبي. وأبقيت باطنه لكِ. لأقوله في الغرف المغلقة على خيبتنا. في الليالي الكثيرة التي سبقتنا.

لا أجد إجابات حاسمة.

لماذا جئت الآن.

وماذا أريد..؟

لا أدري، وأكذب مرآتي، لو قلت أنني بصفاء ماء الجداول.

أنا نفسي لا أدري ماذا أريد منكِ.

ربما حنيني القديم، لأنّ أمضي برفقة الساعات الممتدة بيننا أعانقها، أضع يدي بيدك. نسير على ضفتي نهر الشوق الممتد بيننا، نقضي بعض الوقت في التسكع في شوارع المدينة التي نعرفها ولا تعرفنا، نشرب القهوة "العُسملّي" على قارعة إحدى مقاهيها، وندخن من السيجارة الوحيدة الباقية معاً.

نحادث الأشجار، نسائل الأوتار، نعد حصى الطريق، نسير متشابكي الأيدي في حاراتها القديمة، نرتطم بالمارة، نتصفح الوجوه المتشابهة في وجعها وحبها في الخان القديم، نأكل الزلابية، نشرب العرق سوس، نصعد الجبل المحكوم كقدر بها، نهوي بنظرنا وذاكرتنا

المشتركة في الوادي السحيق، نَعُدّ بيوتها ومساكنها العالية من علٍ، بيتاً بيتاً، وكلما أخطأنا العدد، نبدأ من جديد دون ملل، عندما يجترىء الليل على نهايات النهار، نقتل الوقت الباقي بالنظر إلى السماء، نعدّ من النجوم حتى تنتهي الأعداد على أصابع يدينا وقدمينا مجتمعتين.

أذهب لأجتر الذكرى، وتعودين أنت إلى دهشتك وصمتك، وأسئلتك الباقية أبداً عن "النصيب" وصنع القدر.

ماذا أريد منك؟

كنتِ دوماً فعلاً جاهزاً، وكنتُ أنا المفعول المعلول الأبدي بك. ربما أردت ولمرة واحدة أن تغير الأرض ضمائرها، رفعها ونصبها، فأصبح فاعلاً، وأنت المفعول والمأمور، محسور الذاكرة، تؤطرك الحيرة، ويرسم الترقب هالات داكنة أسفل عينيك.

لا أنكر لذة طعم دمك الساخن تحت لساني، ولا زهو قلبي بانحناء قامتك العتيدة، كانت عصافير الحقل، تشاركني حقدي القديم، وطاووس الحديقه يحمل بين ثنايا غروره حقداً دفينا على قامتك وأنفك صاحب الإعوجاج الأسطوري. أسر لي برغبته في مشاركتي هذه اللحظات، إذا بقي من أهل الدنيا.

لكنها لذة انتقام قصيرة، سرعان ما ستنتهي. ويعود كلانا إلى جرحه القديم، ليلعق حلاوته.

أتريدين مني أن أعدَّ لك أعداؤك كلّهم، وحسادك كلهم، ومن طحن صفاء بشرتك، صفاء أيامهم ولياليهم.

ماذا أقول لك.

أعداؤك لا حصر لهم، وقتلاك بالعشرات

وها نحن نتلذذ بالساعات، في ضوء وحرارة شمسك الباهتة في الشتاء، نقضيها أما هياكل الجمال الباقية فيك، فتزهو ربات الجمال بانكسارك الجميل المذل.

بعد أن أذقتها حسرة تلو حسرة، وسهرت على وجعها بخيلائك القديم.

ماذا تريد مني. تسائل عيناك.. ؟؟

وأمعن في إعمال السكين في أحشائك القديمة.. لا تأخذني الرحمة بك، أتذكرك وأتذكر دمعي وخيبتي، أتذكر عذريتي المهروقة على مذبحك القديم. وأتذكر بكائي الصامت.

أتذكر عطرك المضمخ بالدلال. صورك بالأحجام كلها التي تركتها أثناء إقامتك الموجزة في حجرات قلبي المبنية من الآجر المحروق بك، وتذكرني بتاريخي وبك.

حيث مضيت، بعناد امرأة تقدر قيمة الوقت حينها، تعشق طول قامتها وشموخ صدرها وشبابها الأزلي.

لكنها لذة انتقام قصيرة، سرعان ما ستنتهي. وبعود كلانا إلى جرحه القديم، ليلعق حلاوته.

أريد أن أجلس على قبرك ساعة. أقرأ "الفاتحة" وربما "يسن "، وأقرأ تاريخي بعدها، أنسخ كالأطفال التفاصيل الغائبة بحرفيتها، علني أفهم جزئياتك الصغيرة، وأفهم معها هزائمي المتراكمة والمتكررة كلها.

أتذكر جدي اليتيم. وتاريخ الخروج والنزوح والإنبطاح المهين.

أنا لا أحملك النتائج كلها. ولا ألقي على كتفيك أسباب الهزيمة ولا أسباب النصر المؤجل. أنا فقط، أعيد قراءة التاريخ في وسع عينيك، وحزنك الجميل. وأعيد كتابة فصول القضية، منذ هجرة الكريتيين إلى أرض اللبن والعسل. إلى إقامة جدار الفصل العنصري.

أسائل السماء عن نبي الله "موسى" وسفر الخروج، وأُسائل الأنبياء كلهم، عن سر صلاتهم مجتمعين في الأقصى. أسائل السماء عن عذاباتنا كلها.

وأسأل "بلفور" عن وعده المشؤوم.

ترى هل تشمين رائحة التاريخ المنبعثة من المقاعد المشتركة بيننا.

هل تقرئين الأحرف المحفورة بغباء ونزق الصغار على جذوع الشجر، أكل العابرون بعض أطرافها، ونسوا تماماً الصور.

هل تسمعين نزيز نزف الأيام.

هل ترين السماء بزرقتها كما أراها. بعينيك المكحولتين بالمرارة.

لا تغرُك ربطة العنق التي أطوق بها جيد الوقت، وألهو بألوانها التي لا تلائم أوجاعي.

هل تملك أصابعك يا سيدتي، الإغراء الكافي لتتحسسين تضاريس الزمن المحفورة كالجراح الجاف في عمق الوطن.

وهذا الجسد المُمَدَد أمامي مرصوف عن آخره بالذكريات العذبة والمعذبة، جاء ليعيد ترتيب الأيام والتواريخ القديمة على هواه.

أنت مثلي تماماً. لا تملكين سوى ماضيك الملطخ بالصور الملونة، مشبوهة التواريخ. تقاومين زحف الليل بإغلاق عينيك دونه وإغراقها في البكاء غير المبرر.

وفي هذه الأثناء تسترقين النظر من خلف وجعك، لتشاهدي أثر سُمَك على سواد الليل الصامت.

وتظنين بكل قدرتك، أنك قادرة على خداعه بأساليبك القديمة. ويزداد هو سخرية منك ومن أساليبك المسرفة في سذاجتها. يتحلى بحكمته وطول خبرته، ويمضي الوقت بطوله إلى جوارك صامتاً، يمدّك بالمناديل الجافة لتغرقها دموعك الكاذبة.

تعاودنا في فترات الصمت، صورنا القديمة.

أين الزَمان وتراب المكان.

ونرفض فيما بيننا الظلام المتشكل من غيابنا.

نرفض البقاء خارج الصورة. تتبدل فينا جلودنا. تستطيل أظافرنا. ويكبر أولاد الأخرين بيننا. فيما ونراوح المكان بأحلامنا القديمة الباقية منا.

وترفضين الإعتراف، والبقاء..

أتظنين أنني مزهو بمكاني الجديد أمامك ..

بخبرتي البالية التي منحتها لي الأيام، بعد أن غادرت الجسد أفراحه.

يخونك حدسك هذه المرة، وأعلم أن حدسك القديم وحده الباقي منك.

أقف أمامك، لأفترش ذكرياتي على ملاءة متسخه بالألوان والأصباغ.

ماذا أريد منك.

لا أملك أجوبة جاهزة عما أفعله الآن في الفضاء المتشكل بيننا في هذا المكان المعتم من جلال الحب الذي عرفه كلانا ذات يوم.

وفيما بعد جَلّله الحزن لما بقي من عمرنا.

ترى لو – ولو من عمل الشيطان...–

ترى لو ضحك فم الزمان لنا في وقتها..

ترى هل سيكون للحب فيما بيننا متسع ليفترش فيه وينام إلى جوارنا.

أم ستزاحمه العادة، وسيدسُ الروتين له السم في فناجين القهوة الصباحية، أو ينتحر عقب محاولة فاشلة لاستنهاض فحولة الأرض، عقب يوم مفجوع بالتعب.

أسئله ساخرة، ساذجة سمجة باهتة، كلقائنا هذا.

المخيم بقي على حاله يا سيدتي.

جدي طواه الثرى، وبقيت رائحة عرقه الممزوجة بتراب الأرض ورائحة الدخان الرخيص، تملأ أزقة المخيم وفراشه الدافيء الوثير.

بقيت أمي تلوك ذكريات الأيام التي سبقت النكسة مع عجين صباحها، في المساء تتلفع بحنينها وتنام بنصف إغماضة، تساهر حراس المخيم من أن يغتالهم النوم فجأة، لحظة هبوط ربة الأحلام قُبيل صلاة الصبح بقليل.

وأنت ماذا بقي مني فيك.

تزوجتك ولم تنجبي مني.

لم تنجبي مني وتتزوجتِ بغيري.

واكتريتِ فيما بعد مقعداً حجرياً على سفح الجبل، مقابل الجبل الأخر، تطالعين مساء المدينة الخامل من علٍ، وفي الصباحات التالية لخيباتك الليلية، تغسلين أطراف قدميك في البيوتات الواطئة.

تنظرين إلى المخيم الحزين القديم البعيد عن عينيك وقلبك، وقد غطته غلالة بعيدة. ما زالت المسافه الهوائية بين جبلك العالي ومخيمي القديم بعيدة، وربما مستحيلة.

برغم تغير الوقت والفواصل.

أقولها أنا لك هذه المرة، وليس جدك "الشمالي" بشاربه مصفَّر الأطراف.

"المسافه بيننا ما زالت غير قريبة، وتحتاج لمعجزات من زمن الأنبياء لردمها"

لن أعيد انتاج التاريخ بنفس الخيبة القديمة، لأضفي عليها أسماء جديدة.

سأمضي للمخيم. ولن أغادره بعند كرهي له، كي أتوحّد مع وجعي وأصبّ على الأيام القادمة ناراً تحرقها.

سأعيد تأثيث البيت والمخيم الذي عاش فيه جدي من جديد.

أضيء شوارعه المعتمة. أجدد أبوابه المهترءة وأعيد تصفيح الجدران الداخلية للقلوب التي أدماها طول الإنتظار. أزوج من لم يتزوج من أبنائه وبناته.أملئ حجرات ساكنيه بصور جديدة عن العودة والمقاومة والبقاء.

وأعيد تصنيف الأولويات القديمة لنسائه. فالنصر والهزيمة يأتي من أرحامهن وحليب صدورهن.

وهذه التي تشبهك، ولها اسمك ولون عينيك وعدد شعرك وطول قامتك، وعجرفتك المسموح بها لإمرأة تملك ما تملكين.

هذه التي تقتلني في صباحاتها البريَّة البريئة. وأرى غدها مرسوماً في صفحة وجهك.

هي وجعي الأزلي الباقي منكِ.

أرَددُ على مسامعها، قول شاعر تركيا الكبير"ناظم حكمت"

"أجمل الأيام تلك التي لم نعشها بعد.. "

لأستنهض فيها المعاني الباقية كلها.

أما أنا، فأجمل أولادي.. لم أنجبهم منكِ أنتِ.

المكونات..

الفصل الأول	(1) بداية ممكنة.	11
	(2) أحتار، أيكما الكتابة وأيكما الصورة	17
	(3) لا أفهمها	29
	(4) كنت وكانت	35
	(5) ووجد في الختام أن تاريخ الحضارة يا سيدتي، ليس سوى تاريخ	59
	(6) "إلا تخجلين من ذاكرتك المحشوة عن آخرها بالصور"؟	67
	(7) _"تبدو أكبر من سنك؟"	67
	(8) _"ما زلت تكتب الشعر؟"	97
	(9) _" السرطان والجوزاء لا يلتقيان."	127
الفصل الثاني	(11) جدي سيرة ذاتية.	157
	(12) جدتي سيرة ذاتية.	175
	(13) والدي الشهيد.	181
	(14) أمي كانت شجرة نخيل.	183
	(15) الكأس المقدسة (أختي).	185
	(16) أخلاق الغجر (عَمّي)	187
الفصل الثالث	(17) سِفرُ المُخَيَّم(1)	191
	(18) سِفرُ المُخَيَّم(2)	197
	(19) سِفرُ المُخَيَّم(3)	207
	(20) سِفرُ البقاء	219
	(21) سِفرُ المُخَيَّم(4)	229
	(22) سِفرُ المُخَيَّم(5)	247
	(23) نهاية محتملة.	229

تقلبت في فراش الأمس المبلل بها، أتحسس أنفها الأسطوري، أمسّد اللّيل المسكون في شعرها، وأعد أصابع يديها وقدميها.
أُعِدُّ على شَرفها، وَليمة من العِتاب، وطبقاً من الشوق المحشو بِعندها وغبائي، وقِلَّة خبرتنا معاً.

وها أنا أتخلى فجأة عن خططي كلها.

كانت من خلف الزجاج المصبوغ بظلمة شعرها تبدو أكثر نضجاً وصمتاً. كفاكهة استوائية، حمصتها الشمس ورَطَّبَها ماء السمَّاء ودلَّلَّها ضوء القمر.
ربما شاخت أفكارها، رغم الإنتظار الطويل للموعد المعقود تحت زخات المطر.
أقول؛ ربما شاخت أفكارها عنها، وانقطع طَمث غرائزها ومشاعرها الباقية بعدنا.
ودخلت مرحلة أخرى لأداء العزف المنفرد بها.
كانت أكبر من عمرها. تحاكي الأرض في العمر، وشرب الخمر.

صدر للمؤلف:

- اللوز المر 1998 (روايه).
- عيوش 2014 (روايه).
- لَم الشّمل 2016 (روايه)
- التناظـر الجمالي بين الملصق والرواية 2010 (دراســه).
- لحياة أكثر ابداعاً 2013 (تنميه بشــريه).
- تخرج بكفاءة 2016 (تنميه بشــريه).